

الْحَلَّةُ الْحَاوِيَّةُ

لولى النعم كحاج عباس سليمى باشا الثانى خديو مضر

﴿ سنة ١٣٢٧ هجرية ﴾

﴿ بقلم ﴾

محمد البدينونى

﴿ الطبعة الأولى ﴾

﴿ حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف ﴾

مطبعة مقدسيته والدرة عبد الأول



✽ كتاب صاحب العطوفة رئيس مجلس النظار الى المؤلف ✽

تفضل صاحب العطوفة رئيس مجلس النظار فأرسل الى صاحب كتاب الرحلة الحجازية بكتاب ثناء على مؤلفه برى المطلع من خلال كلماته ذلك النور الذى يضى للناس المحجة التى تسلكها هذه الحكومة السعيدة السعيدية لترقية الامة بتنشيط المعارف وتربية المدارك والتهوض بالهمم الى الدرجة التى تتناسب مع الحياة الصحيحة . فهو اذا شكر الكاتبين وحمد المجتهدين فأما يشكر نفسه ويحمد اهتمامه بمصلحة البلاد من الطريق الانفع والسبيل الاصلح . جزاه الله عن الامة خير الجزاء .
وانا تشرف بأن نذكر هنا هذا الكتاب الكريم بكل اجلال وتعظيم ووجودنا كله شكر لعطوفته على هذه العناية الكبرى والرعاية العظمى :

القاهرة فى ٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٢٨ — ٢٨ ديسمبر سنة ١٩١٠

عن يزي لبيب بك

أمنت النظر فى كتابكم الجديد الموسم بالرحلة الحجازية فرأيت فيه آيات البراعة فى التحرير والتجوير واعجبني منكم التعويل على التحقيق والتدقيق ، وأملى وطيد فى أن ينسج الكاتبون على منوالكم المفيد حتى يكون القارئ مشاركا للكاتب فى عواطفه مراققا له فى حله وترحاله ، وتلك عندي افضل وسيلة لتربية الملكات وترقية المدارك . أما ما زينتكم به صحائف الكتاب من الرسوم فقد زاد فى قيمته الثمينة ، وقد تجلت بها تلك المعاهد المقدسة للانظار وتمثلت تلك المشاهد المباركة للعيان ، هذا فضلا عن المباحث العمرانية فى فلسفة الحج فقد افضم فيها بقلمكم السيال وجردتم هذا الموضوع الجليل مما اعتوره من الشوائب على طول الزمان وبرزتموه فى حلته الاولى وبهيجته الصحيحة ، وفقكم الله للقيام بأمثال هذه الخدمة للأمة والسلام

رئيس مجلس النظار

محمد سعيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من ارسل رحمة للعالمين أما بعد فقد شرقتى مولاي الخديو الاعظم بتعيني مندوبا خصوصا في خدمة ركابه العالي مدة سفره الى الاقطار الحجازية وبعد عودة سموه بسلامة الله اسعدني بصدور أمره الكريم الى هذا العاجز بوضع شيء عن هذه الرحلة المباركة .

ولما كانت هذه البلاد غير معروفة للآن كما يجب لذوى البصيرة والعرفان مع أنه يقصدها سنويا أكثر من مائتي الف نفس من المسلمين وكل ما كتب عن رحلة الحاج إليها لا يخرج عن بعض المناسك التي يضل المطلع في كثرة شعابها ووعورة طرقها ومجاهلها مما يزيد ارتباكاً وجبالاً ، رأيت ان اضيف الى الرحلة الخديوية كلمة عن المشاعر الدينية المقدسة مبتعدا عن الترهات التي الحقها بها مبالغة الوهم أو مغالبة الغرض مما اتخذته اعداء المسلمين وسيلة الى الطعن عليهم في دينهم الذي جل ما تعرفوا به منه انما أخذوه عن أولئك الجهلاء الذين رزى بهم الاسلام فيكيلون لهم الكلام جزافا من غير ما يشعرون بأنهم به ينتحرون !!!

لذلك سلكت في هذا الطريق مسالك التحقيق والتدقيق حتى جاءت كلمتي فيه والحمد لله مسفرة عن حقيقة الحج مينة الغرض منه شارحة مناسكه بعبارة هينة لينة سهلة على كل مسترشد وضرورية لكل من قصد سفرا اليه أو معرفة به .

وانى قياما بهذا الواجب الاقدس لم اقتصر على الكلام فى النقط الدينية بل تناول بحثي ما يهيم القارىء من المسائل العمرانية والاجتماعية والجغرافية والتاريخية مما لم يسبقنى اليه أحد ممن كتب عن هذه الديار راجياً بذلك الخدمة العامة للعلم والاسلام وتيسيراً للفائدة قد وضعت فى هذا السفر المبارك كثيراً من الخريط الجغرافية والرسوم النظرية التى وضعتها بنفسى أو الصور الفوتوغرافية التى أخذت بمعرفة بعض من كان فى معية الجناب العالى الخديوى أو سواهم من أفاضل المصورين الذين سبق لهم السفر الى تلك الارحاء من مصريين وغيرهم ووضعت للحرمين الشريفين رسماً نظرياً معتمداً على الابعاد التى وضعها لها المرحوم محمد صادق باشا المصرى ورسمت كروكى مكة ومنى وعرفة والمدينة مستمداً من بعض الرسوم القديمة المأخوذة عن الكرويكات التى وضعها بوركارث فى أوائل القرن الماضى لهذه الجهات التى لم تختلف كثيراً فى هيتها ونظام ابنتها وعمارتها عما كانت عليه من قرون مضت . والله تعالى المسئول

ان يرفع به بمنه وكرمه

عبد البديع البنيوي

سفر الجناب العالى من مص الى جدة

طلما كانت تنوق نفس مولانا الخديو المعظم عباس باشا حامي الثاني الى حج بيت الله الحرام وزيارة نبيه الكريم وكانت هذه الفكرة المقدسة تتردد في خاطره من سنة الى اخرى حتى تأكدت عزيمته على اداء هذه الفريضة في شهر رمضان الماضي سنة ١٣٢٧ فأصدر أمره السامى بتجهيز ما يلزم لسفره الى الأقطار الحجازية . وفي شهر ذى القعدة أخذ حفظه الله فى تعين من يلازمه فى هذا السفر الميمون من رجال معيته الفخام ومن غيرهم من العلماء الأعلام والذوات الكرام وبالجملة فقد صدرت ارادته السنية بتشريفى بالسفر فى خدمة ركابه العالى وصدر الامر الى بعض الحاشية الخديوية من ملكيين وعسكريين بالسفر بعضهم الى جده وبعضهم الى مكة لانتظار تشريف جنابه السامى بهم انخص بالذكر منهم أصحاب السعادة أحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوى العربى والافرنكى (مدير الاوقاف العمومية حالا) وحسين محرم باشا السرياور الخديوى ومهمندار جنابه العالى فى هذه الرحلة المباركة (وكيل الحربية) ومحمد عزت باشا رئيس الديوان الخديوى التركى واحمد خيرى باشا ناظر الأوقاف الخصوصية واحمد صادق بك (وكيل الخاصة الخديوية) ومحمود بك محمد رئيس قلم عر ضحالات بالمعية السنية وفضيلتلو الشيخ محمد شاكر وكيل مشيخة الازهر الشريف والسيد محمد البيلاوى من علماء الازهر ووكيل الكتبخانة

الخدوية المصرية والشيخ محمد عاشور مفتي الاوقاف الخوصية وغيرهم من حضرات ضباط الحرس الخديوى .

وفى يوم السبت الموافق ٩ ديسمبر كانت تشرىفات الوداع فامتلات ارجاء سراى عابدين بصنوف الودعين وتواترت الوفود من جميع انحاء القطر اللهم هذه اليد المباركة بحال لم يسبق لها مثيل وقلوبهم تتهل الى الله تعالى بأن يحفظ مليك البلاد المحبوب وان يردده اليهم قريباً بكل ما يرجون له من كمال الصحة والعافية ولم تقتصر هذه العاطفة على المسلمين بل كنت ترى المصريين على اختلاف اديانهم مشتركين فى السرور بهذا الاحساس الشريف والشعور الحى الذى تحرك فى فؤاد مليك من اكبر امراء الاسلام للقيام باداء هذا الواجب الدينى الاجتماعى مؤملين من ورائه الخير والسعادة العظمى ان شاء الله للاسلام واهليه عموماً ولمصر وبنها خصوصاً .

وفى ٢٨ القعدة سنة ١٣٢٧ — ١١ ديسمبر سنة ١٩٠٩ صدر الى عطوفة رئيس النظار الامر العالى الآتى .

« قد شاءت الارادة الالهية بتحقيق رغبتنا فى اداء فريضة الحج وزيارة الروضة الطاهرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام فعز منا على السفر لهذا القصد الجليل فى هذا العام .

ولو توفنا فى عطوفتكم رأينا أن نقوموا مقامنا مدة غيابنا فى ادارة شؤون حكومتنا بما نعهده فيكم من الخبرة والدراية وقد أصدرنا هذا اليكم بذلك راجين من الحق عز شأنه أن يوفقكم مع حضرات النظار زملائكم لما فيه سعادة الامة وخير البلاد

وأنا لئرجو أن يكون توجهننا الى تلك الاقطار المباركة ووقوفنا بالذات على أحوال الحجاج المصريين وحاجاتهم باعثاً في المستقبل لراحتهم واطمئنان بالهم خصوصاً في هذا العهد عهد مولانا خليفة المسلمين السلطان محمد الخامس أعزه الله وأيد ملكه بالعدل والتوفيق

هذا وسنرفع أكف الضراعة الى مقام العزة الالهية في تلك البقاع الطاهرة بأن يوفقنا الى خدمة الامة العزيزة المصرية التي لانفارقها الا وقلبنا معها وفكرنا مشتغل بما يؤدى الى خيرها ومجدها في الحال والاستقبال كما اننا على يقين من أن دعواتها الصالحة تكون ملازمة لنا في الحل والترحال ان شاء الله »

وفي الساعة السابعة والدقيقة الاربعين من صباح يوم ٢١ ديسمبر سنة ١٩٠٩ (٢٩ القعدة سنة ١٣٢٧) وهو اليوم الذي تقرر فيه رسمياً سفر الجناب السامى تحرك القطار الخصوصى من سراي القبة مقلا للحضرة الفخيمة الحديدوية وبعض الحاشية الكريمة فوصل الى محطة مصر حيث كان في انتظار جنابه العالى أصحاب السعادة النظار الكرام والعلماء الأعلام ووكلاء الدول وقناصلها وكل من فى مصر من الذوات وأصحاب الحيات وبعده أن صاحبهم حفظه الله مودعا من الكل بالدعاء الصالح تشرف حضرات النظار بالركوب مع سموه وسافر القطار على بركة الله تعالى الى السويس وكانت جميع محطات السكة الحديدية مزدانة بأفخر الزينات الباهرة وفيها مالا يحصى من جموع المودعين لا سيما فى محطتى بنها والزقازيق اللتين احتشد فيهما خلق كثير يضرعون الى الله تعالى بأن يرد عليهم أميرهم محمود

العودة محرّوساً بالعناية الصمدانية وما زال القطار سائراً تشيعه القلوب حتى وصل
بسلامة الله الى السويس ثم الى محطة الحوض في الساعة الأولى بعد الظهر
وهناك كانت معالم الزينة في أجمل مظاهرها وكان المستقبّلون من عليّة
المصريين لا يحصون عدداً حيث كانت قامت الى السويس قُطُر (قطارات)
مخصوصة من جميع جهات القطر تفل وفود المودعين من عواصم الثغور
والمديريات وفي مقدمة الجميع حضرات أعضاء الجمعية العمومية ومجلس شورى
القوانين يتقدمهم صاحب الدولة والفخامة البرنس حسين كامل باشا (وكان
رئيساً لها) فلما وقف القطار نزل الجناح العالى وصافح دولته وكل من كان
حاضراً من الامراء والعظماء شاكرآ لهم تحملهم هذه المشقة واتى عليهم بلسان
كله عطف وحنان ثم التفت الى دولة البرنس قائلاً له : انى أشكرك من
صميم فؤادى لا بصفتك رئيساً للشورى والجمعية العمومية فقط بل بصفتك
كبير البيت الخديوى — فلم يتمالك دولة الأمير نفسه تلقاء هذه الكرامة
الكبرى والعاطفة الشريفة ان ذرفت عيناه بالدموع وقال مجيباً على هذه
العبارة السامية الرحيمة : لست يامولاي مهما بلغ من أمرى غير عبد من
عبيدكم الخاضعين المخلصين لعرشكم قد امتزت بشرف القربى من سموكم فأخنى
الجناح العالى رأسه لهذا الجواب الذى كان له أجمل وقع فى نفوس الحاضرين
لأنه جمع الى محض الاخلاص جليل المحبة والولاء .

وهناك صعد الجناح العالى الى وابور المحروسة وبعد أن استراح قليلاً
ابتدأت التشرّيفات بحالة كنت تتخيل معها انك ترى عياناً عاطفة هذا الامير
الجليل المحبوب تتعاقب مع عواطف رعيته الصادقة المخلصة وكنت كأنك تشاهد

الدعاء الذي كان يخرج من أعماق القلوب صاعداً الى السماء وجاء الى الله تعالى أن يحفظ هذه الذات السامية وأن يعيدها الى ملكها بعد اداء هذه الفريضة المقدسة في صحة تامة ومسرة عامة

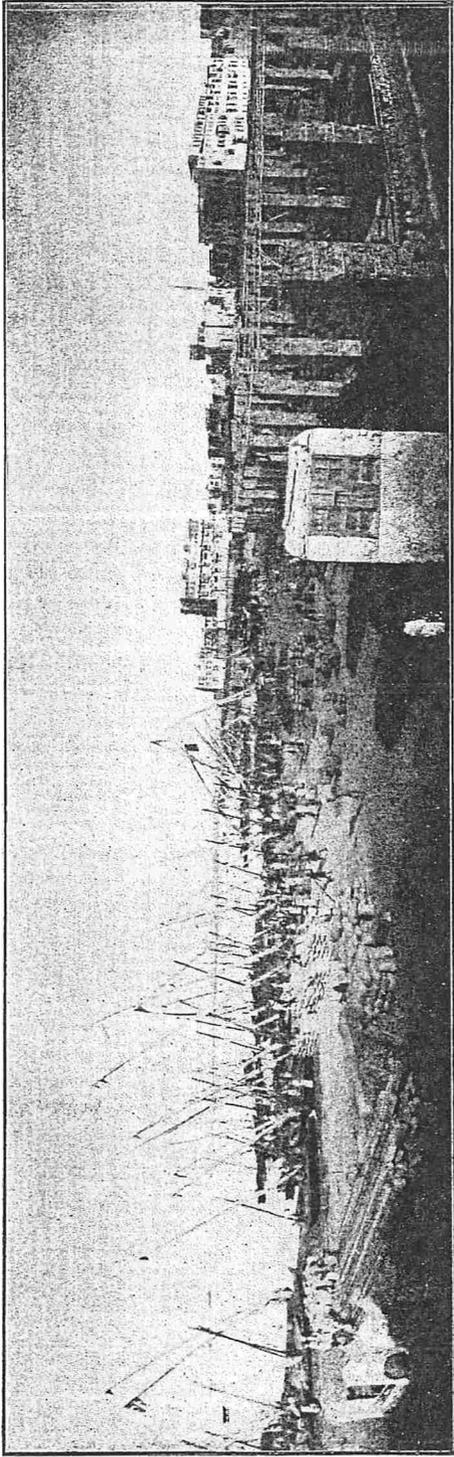
وفي الساعة الثالثة بعد الظهر تحرك اليخت قاصداً جدة وكان مقلماً للجناب العالي وصاحبة الفخامة والدة سموه الرفيع وصاحبات الدولة الاميرات السنيات عطية هانم أفندي وفحيه هانم أفندي كريمتي الحضرة الخديوية الفخيمة والبرنيس فاطمة هانم أفندي عمه جنابه السامى وكن قد حضرن مع دولة الوالدة على قطار خاص وصل الى السويس قبل تشریف الجناب العالي اليها وما زال اليخت سائراً حتى حاذى ثغر رابع من الشاطئ الشرقي وهو على عرض ٢٢ درجة و ٢٨ دقيقة وطول ٢٨ درجة و ٥٨ دقيقة وبينه وبين جدة مائة ميل وتسعة فأحرم الجناب العالي احراما كاملا هو ومن كان معه من الحجاج واستمرت الباخرة في سيرها حتى اذا صارت على بعد ساعتين من جدة اخذت مبانها تظهر شيئاً فشيئاً حتى تجلت للعيان بيضاء ناصعة وظهرت في جنوبها ضيعة صغيرة يسمونها بالنزلة وكلها أكواخ يسكنها الأعراب وبعض الاهالى وغالبهم من صيادى الاسماك وفي قبالة هذه الضيعة من جهة البحر جزيرتان صغيرتان احدهما وهي الشمالية تسمى جزيرة سعد والثانية تسمى جزيرة سعيد وفيها الحجر الصحي لثغر الحجاز وفي الاولى محل للتبخير وآلة لتكرير المياه الملحة وبعض أحذية (١) مبنية لاقامة المحجور عليهم فيها.

(١) مفردة حذاء وهو قسم من اقسام القورتنينة يوضع فيه اناس على حدتهم يقضوا به أيام الحجر المقررة عليهم ولا يمكن أحد منهم ان يغادر حدود هذا القسم باى حال قبل انتهاء المدة

فاذا كانت جوازات المراكب القادمة الى هذا الثغر غير نظيفة أخذ الحجاج اليها في سفن شراعية يسمونها سنابك (مفردها سنوك) فتصل الى الجزيرة الاولى في ثلاث ساعات أو أكثر والى الثانية في ضعف هذا الزمن فيقضون في هذه أو تلك مدة الحجر التي يقدرها حكيم القرنينيات بمجدة وفي الساعة الثانية بعد ظهر يوم الثلاثاء غمرة الحجة (١٤ ديسمبر) القت المحروسة مراسيها على نحو ثلاثة أميال من ميناء الثغر لان المراكب الكبيرة لاتستطيع الدخول الى مياها لقلّة عمقها في هذه المسافة وبقى بها الجنب العالي الى صباح اليوم التالي . وكان يوجد خارج الميناء كثير من المراكب التي أتت الى هذا الثغر بالحجاج من الهند والروسيا وتركيا وبلاد المغرب ومصر وبور سودان وغيرها وكلها رافعة أعلامها ترحيباً بمتقدم سموه كما كانت السنابك التي كانت تغدو وتروح في ميناها رافعة على سواربها العلم العثماني اكراماً لتشريف جنابه العالی .

مدينة جدة

قال البركري في معجمه «جدة بضم أوله ساحل مكة سميت بذلك لانها حاضرة البحر والجمدة من البحر والنهر ما يلي البر وأصل الجمدة الطريق الممتد » واهل البلاد يسمونها الآن جدة بكسر الجيم ويسميها المصريون جدة بفتحها وكلها على ما ارى تسمية صحيحة لان الجمدة بالكسر اليمن والسعادة وهذا الثغر بلاشك منه المادة التي تقوم بحياة هذه البلاد كلها وای شيء أسعد مما يقوم بحياة الانسان ووجوده كما ان



تیساجڑہ

الجددة بالفتح الطريق الواسعة وليس من طريق في بلاد الحجاز أوسع من هذه . وهي على ٣٩ درجة وعشرة دقائق من الطول الشرقى وعلى ٢١ درجة و ٢٨ دقيقة من العرض الشمالى - وقد كانت قرية صغيرة في بادىء أمرها يسكنها وما حولها قضاة قبل الاسلام فلما كانت سنة ٢٦ للهجرة فى خلافة سيدنا عثمان رضى الله عنه أمر فجعلت ثغرا للمكة وكان ثغرها قبل ذلك قرية تسمى الشعبية وهي على مسافة نحو عشرين كيلو مترامن جنوب جده وكان السير يصعب على السفن فى مياهها لكثرة شعوبها حتى ضرب بذلك المثل . قال كثير يصف ابلا تسير فى ملا تريم (مكان بحضرموت)

سأنتك وقد أجد بها البكور غداة الين من أسماء غير
كان حمولها بملا تريم سفين بالشعبية ما تسير

ومن ثم أخذت جدة تزيد فى عمرانها وتعظم فى أهميتها حتى أصبحت اكبر ثغر فى بلاد العرب .

وساحل جدة كله شعوب صخرية يتخللها شعب مرجانية حمراء أو سوداء (اليسر) وترى على سطح مياهه فى كثير من جهاته أوراق ذلك النبات المائى الأحمر الذى يسمونه دم الاخوة (العندم) وله دخل كبير فى تلوين المنسوجات بهذا اللون وشكله أشبه شئ بالبنشين فى بحيرات مصر . وذلك النبات يوجد بكثرة على شاطئ الخليج العربى وربما كان له تأثير على ما يعيش فى جوه من الاصداف الحمراء والاسماك المرجانية التى توجد فيه بكثرة لتغذيتها منه وربما أتت من ذلك تسميته بالبحر الاحمر . ويساعد على هذه التسمية ذلك اللون السنجابى الذى يشاهد قبل شروق الشمس فيما يلي الشاطئ من مياه البحر عند انحسار كتلة المياه عنه وقت الجزر الذى يحصل فيه يومياً حيث يتراءى لك الشعب على طول الشاطئ ضاربا فى البحر بلونه الاحمر الذى يتشرب بالزرقة شيئاً فشيئاً حتى يتصل بكتلة الماء الكبرى .

ومما يذكر بهذه المناسبة انا رأينا أهل جدة يميلون الى اللباس الاحمر لا فرق فى ذلك بين كبيرهم وصغيرهم وربما كان ذلك من تأثير الوسط الذى يعيشون فيه : فتراهم يشدون على وسطهم حزاما أحمر ويضعون على رأسهم شالا لونه كذلك وكثيرا ما ترى

صيانهم يلبسون جلابيب بيضاء وعليها صديرية حمراء وحتي الطبقة العالية منهم يكثر في لباسهم اللون الوردي أو ما يقرب منه .

ويحيط بجدة سور له خمسة أضلع فالغربي منها على البحر وطوله ٥٧٦ مترا والبحري ٦٧٥ مترا والشرقي ٥٠٤ مترا والشرقي الجنوبي ٣١٥ مترا والجنوبي ٨١٠ مترا وهذا السور بناه السلطان الغوزي ملك مصر في سنة ٩١٥ لمنع الافرنج الذين كانوا ابتداءً وانى استعمار الشرق من طلوعهم الى جدة وقد افاد فائدة تذكر في منع البرتغاليين من الدخول اليها في سنة ٩٤٨ وأصلهم قلعها هذه الصغيرة نارا حامية فروا منها الى مراكزهم تاركين ما كان معهم من الذخائر . وهذه القلعة نالت أيضاً من الوهابيين حين حصارهم لجدة في سنة ١٢١٨ الا أنها لم تكن تؤدي وظيفتها في ضرب المراكب الانجليزية لها في سنة ١٢٧٤ وسبب ذلك ان أحد الرعايا الانجيز كان يملك مراكبا شرعيا بجدة وكان يرفع عليها العلم الانجيزي فبدله بالعلم العثماني فحقق لذلك قتل الانجيز ونزل الى المركب وأزل العلم العثماني بالقوة وأهانها فلما بلغ الناس هذا الامر كبر عليهم وهاج له الرعايا فقتلوه . منزله وقتلوه مع القنصل الفرنسي وبعض الافرنج ونهبوا دورهم فأنت مراكب الانجيز وضربت جدة وبعدها حضر الى مكة واتفق مع الاميرال على عمل تحقيق كانت نتيجته شق نحو ١٥ نفرا من الاهالي في سوق جدة ونفي كثيرين من كبرائها وغرامة الدولة نظير الاموال التي ادعت رعايا الدول الاجنبية أنها فقدتها في هذه الفترة وفي سنة ١٣١١ ساق الانجيز مراكبهم أيضاً الى مياه جدة عند ما قتل الأعراب وكيل القنصل الانجيزي وجرحوا وكيل القنصل الفرنسي والروسي وكانوا تجاوزوا الحد المضروب لهم خارج البلد وكلهم مسلمون من الأهالي الذين لم يحسنوا سيرتهم مع اخوانهم من مواطنيهم ارتكبا على الحماية الاجنبية فحضر الشريف عون من مكة لهذا الامر الذي انتهى بالصلح وسفر المراكب من غير ضرب . وشوارع جدة لا نظام فيها وهي تحتوى على نحو ٣٥٠٠ مترا مبنية بالحجر الجبلي الذي يأتون به من الجبال القريبة أو الحجر المسائي الذي يقطعونه من شعوب البحر وهو خفيف جدا وفي غاية المتانة الا أن خطره جسيم وضرره عظيم لانه قابل للالتهاب

بسرعة لما يحتويه من المادة الفسفورية التي توجد فيه بكثرة ومساكنها كساكن مدن الحجاز (مكة والمدينة) وهي أشبه بمساكن مصر في عهد المماليك (وفي سوق السلاح كثير منها) أعني ان بها غرفا كبيرة وألونة واسعة ذات سقف عالية ولها شبايك طويلة عريضة على شكل المشربيات يسمونها الرواشن (مفردة روشن وهو كلمة فارسية معناها المنور) وشغلها الخشبي يشبه ما يسمونه بالمنقور أو المنجور وأكثرها النوع المسمى بالشيش وقد رأيت في بعض بيوت هذه المدينة منزلا وجهته نحو ١٥ مترا وفيها تسعة رواشن كبيرة وأظن أن هذه المنافذ الواسعة موافقة جدا للبلاد الحارة ولذلك ترى النظام الجديد في المهارات المصرية يرجع الى هذا النمط كما تراه في أغلب المباني الحديثة لا سيما في الأحياء الأفرنجية وعلى الأخص في مصر الجديدة التي هي شكل مجمل مكل من الأشكال المصرية القديمة التي سيكون منها لمصر حياة جديدة طيبة قوية متينة ان شاء الله ان لم تزد عن حالتها الأولى فانها لا تكون أقل منها .

ولمحمد علي باشا في هذه المدينة مبان كثيرة منها دار الولاية ودار البلدية وثكنات (قشلاقات) العساكر وغيرها .

وماء الشرب في جدة من الصهاريج القديمة التي تملأ بماء المطر ومن العيون التي هي خارج المدينة وكما قربت تلك العيون من البحر كانت مياهها ملحة غير صالحة للشرب وفيها مواسير كان قد وضعها عثمان باشا توري في سنة ١٣٠٢ وسير الماء فيها من عين الرغامى التي تبعد عن المدينة بجزء عشرة كيلومترات وهي الآن مهتمة وقد اهتمت بلدية المدينة باصلاحها ولكن يظهر أن الحكومة لا يمكنها عمارتها الا بمعونة الأهالي وهم لا يساعدون على ذلك لان لهم مصلحة في بيع مياه صهاريجهم على الحجاج بأثمان باهظة على ان سواد الحجاج لا يشربون اثناء وجودهم في هذه المدينة الا من المياه التي يأتيون بها اليهم من الحفر والآبار وفضلا عن وساختها فان طعمها يميل دائما الى الملوحة ولولا فضل الله عليهم هللكوا منها جميعا !!!

وفي هذه المدينة كندانه لبعض الفرنجة لتكرير مياه البحر وبيعها للناس ولكنها تخرت نهائيا وبلغنا ونحن بجده أنهم أرسلوا بعض عددها الى السويس لاصلاحها فيها .

وجدة مركز تجارى كبير ويمكنك ان تقول انها الثغر العمومي للحجاز فيها صادراته واليها وارداته وتجارها تكاد تنحصر في اصناف اللؤلؤ والمرجان واليسر والسبح والاقمشة الحريرية والعطر والعطارة والبقالة الجافة والترب والجلود والسجاجيد وجميع ما يهتم الحاج وتجارتها الرئيسية في الحبوب خصوصاً القمح والدقيق اللذين عليهما مدار حياة اهل البلاد العربية من اقصاها الى اقصاها وهي تأتى اليها من الهند ومصر والشام وسوق المدينة تمتد على طولها من الجهة الجنوبية الى الجهة الشمالية التي تنتهي بمساكن قناصل الدول وهي أحسن ما في المدينة من الابنية واخص منها بالذكر منزل الوكالة الروسية الذى هو على أحسن مثال واجمل هندام لما فيه من المشريات والظف (البلكونات) التي تمثل ابهة الشكل العربى القديم بما يخيل للرائى أنه امام قصر الرصافة فى بغداد . وتجاه هذا المنزل تقطة بوليس وبجوارها مكان البوسته وهي عبارة عن غرفة صغيرة يقطعها حاجز خشبى بسيط يفصل بين العمال وأرباب الاعمال .

وتجار جدة من أهلين وحضارم وهنود وأعجم وبخارين وأروام تراهم يعملون فى هذا الوسط ولا تروج تجارتهم الا فى موسم الحج . ولاحد الاروام وابور (ماكينه) يدار بالترول فى جنوب المدينة لطحن الغلال واجرة الكيلة الجداوية (مقدارها ثلاث اوقات) ثلاثة قروش مجيدية ومع هذا فان صاحبه على الدوام تراه يصرخ مستغنياً من قلة المكسب وكثرة ما يصرفه فى سبيل ادارته .

وتعداد اهل هذه المدينة لم يحصل بصفة رسمية وهم يبلغون خمسين الفا على أضبط تقدير منهم عشرة آلاف من الاجانب المسلمين بين فرس وحضارم وهنود وبخارين . أما الفرنجة فيبلغ عددهم مائة أو يزيدون قليلا وأغلبهم من الاروام . وثروة البلاد تقريباً فى ايدي هؤلاء الاجانب وتقدر ثروة بعضهم بنحو مليون من الجنيهات لانهم يجدون ويكدون ولهم نشاط غريب فى بابة حتى الشياطين والفلايكية فى هذه المدينة تجدهم فى الغالب من الحضارم أو العبيد .

وفى جدة مدرستان مدرسة الاصلاح وفيها نحو ثمانين تلميذاً ويصرف عليها من تبرعات الأهالي والمدرسة الرشدية وهي للحكومة وفيها نحو مائة وعشرين تلميذاً

وهما لا يدرس فيهما الا شئ بسيط من الحساب والكتابة والقراءة العربية والتركية وعلى كل حال فانهما أقل في التعليم من مكاتب الاوقاف بمصر . وقد رأيت في سوق المدينة لوحة مكتوب عليها (جريدة الاصلاح ومطبعها) فسألت عنها فعلمت انها ابتدأت عملها بعد اعلان الدستور العثماني ولكنها لم تجد رواجاً فاضطر صاحبها الى اغلاقها وقفل محررها (التركي) راجعاً الى الاستانة أما المطبعة الآن فليس لها من عمل يذكر . وسكان جدة خليط كما أسلفنا وقد اثرت فيهم طبيعة هذا الاقليم فغلبت عليهم حال البداوة فيما يختص بالتعليم الذي ليس لهم فيه شئ يذكر اللهم الا ما كان يوصل الى كتابة خطاب أو مزاولة قليل من الحساب . وفي المدينة أربعة مساجد وهي لمسجد الحنفي والشافعي والمالكي ومسجد سيدي عكاشة وهو اكبرها وفيها اجزاخانة صغيرة ويقال أن بها (لوكاندة) ولكني لم أرها .

وحكومة المدينة محصورة في القانمقام ووكيل الشريف والاول مختص بأعمال الحكومة المالىة المنحصرة في ايراد الجمارك غالباً وتقدر هذه الابرادات بنحو خمسين الف جنيه عثمانى في السنة على الاكثر والثانى بجميع الاشغال المختصة بالمرتب كما أن أمر القوة العسكرية . موكل الى قومندانها .

وفي موسم الحج ترى في جدة حركة مستديمة لا تنقطع ليلاً ولا نهاراً من الحاجاج الذين اذا وصلوا اليها وجدوا على ابواب جركها . طوفيهيم او وكلاءهم في انتظارهم وهم ينادون يا حاج فلان او يا حاج فلان فيعرف الحاج اسم . طوفوه فينادى عليه وهو في هذه الشدة فيادر الى مساعدته ويأخذ منه ورقة جوازه (باسا بورت) ليعلم عليها من قلم الجوازات ثم يسير معه الى منزل يقيم به يوماً أو يومين يصلح فيها من شأنه ويؤجر جماله أو حميره ثم يسافر الى مكة بعد أن يشتري شقاده ان كان لها ضرورة عنده ومتوسط من الشدقف جنبه انجليزى واحرة الهجين او الحمار جنبه الى مكة وكذلك جعل الحمل اما جعل الشدقف فتصل اجرتة في الغالب الي ضعف ذلك .

جبانة جدة وقبر امنا حواء

ويوجد خارج المدينة من جهة الجنوب مدفن للنصارى محاط بسور عال وعليه خفير من الاعراب لا يدع احدا يدخل فيه من غير ذويه . أما مدافن المسلمين فانها في جهتها الشرقيه على مسافة نحو كيلو متر من بابها الشرقي الذي يسمونه باب مكة وعليها سور يفتح بابه للقرب ترى في مدخله زمن الحج كثيرا من الشحاذين صفارا وكبارا من الاعراب والاعراب فاذا دخلت من هذا الباب وجدت امامك رأس قبر طويل ضاربا الى الشمال بمسافة مائة وخمسين مترا على ارتفاع متروفي عرض نحو ثلاثة أمتار وهو ما يسمونه قبر امنا حواء وهو أشبه شئ بقناة مسدودة من طرفها الجنوبي بثلاث حوائط من مربع ينقصه الحائط الشمالي الذي هو من جهة القبر وطول كل حائط أربعة أمتار في ارتفاع مثلها وفي كل منها شبك تخرج منه فروع عوسجة كبيرة تكاد تسد فراغ هذا المربع الذي هو مكان الرأس عندهم . وفي نهاية هذا المستطيل من جهة الشمال حائط يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار في وسطه من اعلاه شرفة تحتها شبك يطل على القبر من جهة القدمين . وعند نهايتي القبر ترى اناسا متطوعين لارشادك عن مكان الرأس او القدم وايديهم ممدودة للسؤال وفي نحو ثلثي طوله من جهة الرأس قبة يفتح بابها الى الغرب وفيها شبك كان يشرفان على جهتي القبر وفي وسطها مقصورة من الخشب عليها ستر من الجوخ وفيها باب مقابل لباب القبة فتحه لنا خادم المقصورة قائلا « هذا مكان السرة الشريفه » فنظرت فوجدت فيه حجرا من الصوان يبلغ طوله نحو متر ونصف في عرض متر محفورا من وسطه وهو أشبه شئ بناووس صغير ان لم نقل مذبحا كان مستعملا من قديم الزمان لتقديم القران وهنالك مرّ بخاطري ان هذا المكان ربما كان لقضاة فيه قبل الاسلام هيكل لحواء ام البشر يعبدونها فيه كما كانت هذيل تعبد سواع بن شيث بن آدم وهذيل كالا يخفي في جنوب وشمال مكة وهم للآن يتولون هذيل الشام وهذيل اليمن وكانت مساكن قضاة فيما بينهم وكما كانت

قبائل كلب ومراد وهمدان وحمر يعبدون وداً ويفوث ويعوق ونسرا (وهم على ما يزعمون أولاد سواع بن شيث) « قال الله تعالى وقالوا لا تدرن اهتكم ولا تدرن ودا ولا سواعا ولا يفوث ويعوق ونسرا » . أما طول القبر بهذا المقدار فربما أخذه العرب في ضمن ما أخذوه من ديانة اليونانيين فقد كانوا يقيسون الهياكل للنجوم ومنها هيكل الزهرة الذى بناه الضحاك في صنعاء وقد كان اليونانيون يبنون للمريخ هيكلًا مستطيلاً . ومن القبور الطويلة التي توجد في بلاد الدولة العلية وهي طبعاً من آثار الدولة اليونانية قبر يوجد للآن في الاستانة العلية قرب اسكلة أناضولى قواق ويبلغ طوله نحو عشرين متراً ويقولون أنه قبر النبي يوشع وهو محترم من المسلمين والنصارى واليهود على السواء . ومن يعلم أن يوشع لم يصل الى هذه البلاد بالمرّة يحكم بان هذا القبر من آثار الوثنية التي كانت في هذه الانحاء قبل دخول النصرانية اليها وكذلك يوجد في كرك نوح (وهي قرية بالشام بجوار معلقة زحلة) قبر يبلغ طوله ثلاثين متراً تقريباً يزعمون أنه قبر سيدنا نوح عليه السلام .

وعليه فلا يبعد أن قبر حواء كان من الهياكل المقدسة في الجاهلية فلما جاء الاسلام ومحا أثر الشرك من هذه البلاد ودالت به دولة الوثنية وهدمت هياكلها التي كان من ضمنها بالطبع هذا الهيكل بقي أثره في نفوس القوم برا بحق الامومة وأقاموا له قبة (لا ندرى متى كان تشييدها) لتكون مزاراً للناس كما كانوا يقيمون المزارات لآل بيت النبوة عليهم وعلى جدتهم الصلاة والسلام .

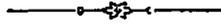
ولقد ذكر هذه القبة ابن بطوطة في رحلته المشهورة في القرن السابع للهجرة ولم يذكر شيئاً عن القبر ومن اكبر الادلة على أن هذا القبر حادث لا محالة ما ذكره ابن جبير في رحلته التي عملها سنة ٥٨٧ للهجرة قال رحمه الله « وبها (بجدة) موضع فيه قبة مشيدة عتيقة يذكر أنه كان منزلاً لحواء أم البشر عند توجهها الى مكة فبني ذلك المبنى عليه تشهيراً لبركته وفضله والله أعلم » وعلى كل حال فاننا لو صرفنا النظر عما غيره الطوفان من معالم الارض وقلب اغلب معالمها بطنا لظهر خصوصاً في الجهات البركانية التي منها هذه

البلاد وجارينا مؤرخي العرب في ان حواء هبطت (١) مع آدم الى جزيرة سرنديب (سيلان) وقطعنا النظر عن الوسطة التي انتقلا بها من الجزيرة الى القارة وعن كيفية وصول حواء الى جدة وموتها بها (على ما يدعون) فلا تهولنا دعوى القوم بان هذا قبر حواء على ما هو عليه من الطول الهائل لانه لا يلزم من طول القبر طول الجثة بهذا المقدار وليس ادعائهم بان هذا موضع الرأس وذلك موضع القدم برهاناً على أن طرفي جسم حواء متناسبان مع طرفي قبرها اذ يصح أن يكون هذا لتعيين جهة الرأس وذلك لجهة القدمين من غير تحديد نقطة بداية أو نهاية ولا عبرة بقولهم أن القبة على مكان السرة لانا بقطع النظر عن أنه كان الاولى بها أن توضع على اشرف مكان في الجسم وهو الرأس فان المسافة بين الرأس والسرة في طول القبر ضعف المسافة بين السرة والقدمين وهذا مخالف لطبيعة الانسان مخالف لشكل بني آدم او بعبارة اخرى لشكل بني حواء في جميع ادوار حياتهم . وغاية ما ذكره مؤرخو الاسلام أن طول سيدنا آدم كان ستين ذراعاً يعني تسعة وثلاثين متراً تقريباً (على حساب ان الذراع يساوي ٦٥ سنتيمتراً وهو متوسط ما قدره به العرب) وكان طول حواء متناسباً معه طبعاً ويقرب من قولهم هذا ما ذهب اليه علماء الفرنجة الذين بحثوا في عالم الانسان قبل وبعد الطوفان وقارنوا بينه الآن وبين ما عثروا عليه من هياكله في طبقات الصخور على مسافات بعيدة من سطح الارض وهي مما لا يشك احد في انها كانت موجودة قبل حياة نوح الاولى ولقد ذهب المسيو هانريون Henrion العضو في المجتمع العلمي الفرنسي والعالم المستشرق الكبير مؤيداً مباحثه بالارقام والحجج القوية الى ان طول آدم كان يبلغ ١٢٣ قدماً وتسع بوصات وان طول حواء كان يبلغ ١١٨ قدماً وتسع بوصات وثلاث ارباع البوصة وهو ما يقرب من اربعين متراً (انظر مادة حواء في دائرة المعارف الفرنسية الكبرى) والرأي رأيه والعهدة عليه .

وعلى كل حال فاننا نحترم قول العرب في امهم كما نحترم قول الفرنجة فيها فهي

(١) وهذا خلاف ان يقول أن حواء هبطت علي ساحل جدة .

أم الكل وبمكانها من احترام الكل لذلك لما قصد الشريف عون الرفيق هدم قبتها فيما هدم من قباب الصالحين بمكة وغيرها قام بنى وجهه قنصل الدول وحالوا بينه وبينها بدعوى انها ليست أم المسلمين وحدهم وهذا أظنه حسبك في احترامها من الناس أجمعين



وصول الجناب العالي الى جدة

وسفراً منها الى بحرة

ومما يذكر في تاريخ جدة تشريف الجناب العالي الخديوى اليها يوم الثلاثاء غرة ذي الحجة سنة ١٣٢٧ الموافق ١٤ ديسمبر سنة ١٩٠٩ قاصداً تأدية فريضة الحج الشريف وما اشرفت شمس هذا النهار حتى أخذ الناس يردون الى الميناء زمراً زمراً وفي مقدمتهم عليّة القوم وأعناقهم متطاوله الى عرض البحر لرؤية وابور المحروسة المقل لهذه الذات العباسية المحبوبة وفي نحو الساعة الثالثة العربية نهراً حضر أصحاب السيادة والسعادة علي بك وفيصل بك والشريف زيد أنجال سيادة شريف مكة (وكانوا قد أتوا الى جدة قبل تشريف الجناب العالي بيومين استعداداً لمقدمه السعيد) ومعهم حضرات القائم مقام وقومندان القوة العثمانية الموجودة بمجده وحضرة عزتو مكتوبجى الولاية الذى وفد للسلام على الحضرة الخديوية بالنيابة عن الدولة العلية والتشرف بمرافقة الجناب السامى بصفته مهندراً له مدة وجوده حفظه الله في الاقطار الحجازية يتلوهم حضرات مدير البوسته والتفرافات ووكيل شركة البواخر

الخدوية وغيرهم من مستخدمي الحكومة العثمانية وقبل أن تظهر أى اشارة تنبئ بقرب الركاب العالي ركبوا جميعاً الزوارق ونزلوا الى عرض البحر انتظاراً لمقدمه الشريف وكانوا قبل شروق الشمس قد أرسلوا الواوور الحربي العثماني المقيم في مياه جدة لاستقبال المركب الخديوية المحروسة على بعد سبع ساعات أو أكثر من مياهها .

وفي نحو الساعة السابعة العربية نهراً ظهر دخان المركب في الافق وما زالت تقرب شيئاً فشيئاً حتى القت مراسيها في الساعة الثامنة وهناك قربت منها الزوارق وصعد الاشراف ورجال الحكومة للسلام على مولانا الخديوى وتبليغه سلام مولانا أمير المؤمنين وتنهاني الدولة العلية مع تحية سيادة الشريف فقابلهم حفظه الله بما جبل عليه من البشر والايناس والحفاوة والاكرام وبعد ساعة رجعوا والسنتهم كلها شكر وثناء على مكارم أخلاقه وكمال آدابه .

وما غربت شمس هذا اليوم حتى بدت دار البلدية تحتال في حلل زينتها من جهة البر وتألقت أنوار المراكب البخارية على اختلاف جنسياتها من جهة البحر وذهبت ساريات السنايك في السماء بمصاييحها التي كانت كأنها النجوم الزواهر وبالجملة فقد كان يوماً مشهوداً وليلة فذة في بابها لم ير أهل جدة مثلهما بالمرّة كما أنهم لم يشاهدوا عناية الدولة العلية بمثل احتفائها بهذه الذات الكريمة واهتمام دولة الشريف بما فيه راحة جنباه الرفيع : وأى رجل اصطفاه مولاه الى حج بيته الكريم كالعباس حفظه الله دعاه ربه فاجاب دعوته وقد كشف عن رأسه تاج ملكه ونزل الى صفوف بقية الخلق في تقشفهم في ملابسهم وغذاهم ينام على الغبراء ويلتحف السماء ويركب الصعب ويسير بين حرارة

الشمس وبرودة الليل في طريق تفزر وعناؤه وتكثر حصابؤه ولا ينقطع اعصاره كما لا تنتهى أخطاره . فلا غرابة اذا كانت عين الله تكاؤه وعنايته تحرسه وقلوب الخلق ترمقه بكل تجلّة واحترام .

وقبل فجر يوم الاربعاء ثابى الحجّة أخذت العساكر تغدو وتروح في ميادين البلدية التي اكتظت بالجموع من عساكر الحرس من جهة وعساكر الدولة وجند البيشة (١) من جهة اخرى

وقبل الشروق ظهر من اليمّ الزورق البخارى المقل لمولانا الخديوى حفظه الله فضرب النفير واطلقت المدافع من طاية المدينة وهناك انتظمت العساكر على شبه دائرة مستطيلة نصفها الشرقي من رجال الحرس الخديوى والنصف الثانى نصفه من عساكر الدولة العلية ونصفه الآخر من عساكر البيشة وطرفا هذين القوسين من باب القورنينة الى باب البلدية . وبعد نصف ساعة شرف الركاب العالى على سلم القورنينة وكانت ساحتها مفروشة بالسجاجيد العجمية وقد اصطف على جانبيها رجال الدولة العلية من جهة ومن الاخرى أصحاب السعادة أنجال دولة الشريف ومن حضر معهم من الاشراف لاداء واجب التحية . فطلع حفظه الله على الاسكلة وهو في لباس احرامه كالبدرفى تمامه وسار وهو يحيى هذه الجموع بيده الشريفة يتلوه صاحب الدولة البرنس كمال الدين باشا وفضيلة الشيخ بكرى الصدى مفتى الديار المصرية وحضرة عزتو على بك لبيب طيب سموه في هذه الرحلة المباركة وغيرهم من الياوران

(١) يشة قبيلة موجودة في شرق بلاد العرب وجنودها يركبون المهجن بلباسهم العربى وهم فى نظامهم أشبه بالباشبوزوق وكل عساكر الشريف منهم .

الكرام وبعض رجال حاشيته وكان جواده على سلم القورنينة فركب حفظه الله بين عزف الموسيقى المصرية والتركية ودعاء الجنود وهتاف الجمهور وركب من خلقه سعادة حسين محرم باشا مهمنداره الخصوصي ودولة البرنس ثم الياوران يتقدمهم ثلثة من الحرس بهيئة باشدار (حرس أمامي) يحيط بهم جميعاً فرقة من الجند وتبهم أنجال الشريف ومعهم مندوب حكومة الحجاز وجم غفير من الاشراف تلوهم جنود الييشة ثم قومندان نقطة جدة ومعه فرقة من عساكر الدولة وساروا بهذا الموكب الحافل الى باب الثغاربة ومنه الى الباب الشامي وهناك كان في انتظاره مشايخ العربان من اشراف وغير اشراف على هجهم وساروا جميعاً في ركابه العالي الى بحرة .

والطريق من جدة الى مكة تدخل من واد بين جبلين أعلاهما يسمى القائم ثم تمر في طريق على جبل الرغامة وبه قهوة جرادة ثم على جبل ام السام وبه قهوة العبد ثم يأخذ الوادى فى الميل الى الجنوب الشرقى حتى يصل الى بحرة وهناك يتسع الوادى ويقطعه واد آخر من الشمال الشرقى الى الجنوب حتى يتصل بالبحر اسمه وادى مر (وادى فاطمة) وهو واد عظيم من أشهر أرض الحجاز خصوبة ويسكنه كثير من قبائل الاشراف الذين يملكون أغلب أراضيه ويزرع فيه جميع أنواع الخضروات التي تأتي الى مكة وفيه عيون ماء كثيرة ويقطعه الطريق السلطانى بين مكة والمدينة فى نقطة يوجد فيها بساتين من نخيل وأعناب يتخللها مجرى ماء يأتي من جهة الشرق (يسمونه نهراً) وكتلة الماء فيه أقل من متر مكعب وأكثر فواكه تلك البساتين من البرتقال والليمون وانى أرى أنه لو عملت هذه الجهات

آبار ارتوازية لكانت تأتي بفوائد جمة .

وبجرة نزلة بها جملة أكواخ يسكنها بعض الأعراب وفيها عيش
عمومية واسعة يسمونها قهاوى يترجح فيها من أراد من الحجاج وخصوصاً
راكبي الحمير والمهجن لوجود ما يلزمهم بها من خبز وجبن وبلح وبعض
الفاكهة والقهوة والتبناك وفي جوارها أفنية واسعة محاطة بأسوار من الجريد
تربط فيها جمال الحجاج ودوابهم وأغلب القوافل تبيت فيها ويأخذ الطريق
من بجرة نحو الشرق بميل الى الشمال فيمر على حدّه ويبيت فيها بعض القوافل
ثم على قهوة سالم ثم على جبل الشميسي ثم على المقتلة ثم الهجالية ثم البستان ثم
قهوة المعلم ثم الشيخ محمود وهو باب مكة وفيه قبر جار الله الزمخشري صاحب
التفسير الشهير المسمى بالكشاف (وكان قد أتى إليها حاجاً سنة ٥٣٨ فمات بها
يوم الترويه ودفن بهذا المكان) . وكل هذه القهاوي شبه أكواخ يجد الحجاج
فيها بعض الراحة أما الجبال على طول الطريق فتراها حمراء أو مائلة الى
الخضرة أو الصفرة وهذا مما يدل على أنها غنية بالمعادن المختلفة كالحديد والنحاس
وغيرهما وعلى طول الطريق أربع عشرة قلعة يوجد فيها الجند العثماني على الدوام
وبعضها قديم من عمل الشريف غالب أو محمد علي والبعض بنته الدولة العلية
من عهد ليس بعيد خصوصاً بعد ما أكثر مجيء الحاج بحراً

أما صاحبة الدولة والمعصمة والدة الجناب العالي فقد نزلت من المحروسة
الى البر في منتصف الساعة الثالثة العربية صباحاً وكان في انتظار دولتها
على الاسكلة بعض رجال الحاشية وكان رجال الحكومة العثمانية على بعد من
الباب العمومي فركبت حفظها الله مع صاحبتى الدولة الاميرتين كريمةتي الخضرة

الفخيمة الخديوية عربية من طراز لاندو يجرها أربع بغل وركبت دولة الاميرة فاطمة هانم أفندي مع بعض القلغوات عربية اخرى من عربات دولة الشريف وبقى القلغوات ركبن في هوادج يتلوها هو دج سعادة ألماس أغا باش أغاى السراي الخديوية وعنايتلو كاظم أغا باش أغاى دولة الوالدة ويتلو ذلك شقائف بعض رجال الامية السنية ثم جمال الحملة وسارت عربية دولة الوالدة يحيط بها فوارس الحرس الخديوي وفي مقدمتهم عسكر الشريف ومن خلفها حرس الدولة والناس على جانبي الطريق بحال لم يسبق لها مثيل ولسان الجميع يلجج بالثناء والدعاء وما زال هذا الموكب على نظامه الجميل حتى خرج من باب جدة الشرقي المسمى باب مكة وبمد ذلك سارت دولة الوالدة مع رجال الحرس الى بحرة حيث استقبلت أحسن استقبال ونزلات في الدائرة المخصوصة لاقامتها مع حاشيتها وهناك كنت ترى معسكر الجناب العالي في نظام لم يسبق له نظير بالمرّة والى شرفه سرادق حضرات انجال الشريف التي مدت فيه ظهر ذلك اليوم مائدة على النظام الافرنكي تسع نحو مائة مدعوٍ لضيافة سمو الامير ومن في معيته وعلى الخصوص في العشاء الذي حضره مولانا الخديوي وكان قد أناب عنه في الغداء دولة البرنس احمد كمال الدين باشا أما النظام والزينة في هذه المائدة فقد كانا مدهشين جداً لانهما لا ينطبقان بالمرّة على حال البداوة فانك كنت تتصور أنك بين جدران البهو الكبير في نزل الكونتنتال بالقاهرة اثناء مأدبة من المآدب الكبرى نيم كنت تجد الطعام على كثرة صنوفه جمع الى نظافته لذة طعمه وكانت تريات النور الابيض تتلألأً منتشرة في ارجاء الصيوان مما كان يبرجو بحرة باجمها حتى لكأننا في رابعة النهار . وكان يزيد

في رواء هذه الحفلة تلك الآداب العالية التي كنت تراها في أنجال سيادة الشريف وبعد العشاء بارح الجناب العالي صيوان الاشراف بين صنوف التبجيل والتكريم فاصطفت مشايخ العربان من اشراف وغيرهم فسلم حفظه الله عليهم شاكرًا لهم ضيافتهم وهم شاكرون له تفضله بقبولها.

دخول الجناب العالي الى مكة وايامها قبل عرفت

وبعد تناول العشاء في صيوان أنجال الشريف في بحرة استراح الجناب العالي قليلا في سرادقه وفي نحو الساعة الحادية عشرة افرنكي مساء امتطى حفظه الله جوادا كريما قاصداً مكة يتبعه دولة البرنس كمال الدين باشا وحضرة السرياور وبعض الحاشية وسار الكل في ركابه حتى اذا وافى جبل الشميسي وجد في انتظار سموه سعادة خيرى باشا مدير الاوقاف الخصوصية وقدم لحضرته العلية عطفة أمين بك القائم بأعمال ولاية الحجاز ثم سعادة قومندان القوة الشاهانية بها وبعد تبادل التحية ساروا مع سموه حتى وصلوا الى قهوة البستان وهي على بعد ساعتين من مكة وهناك كان دولة الشريف حسين باشا أمير مكة المكرمة في جمع من عليه بيته واكابر قومه استقبالا لجنابه الفخيم. فاراد الشريف ان يترجل عن جواده احتراماً لجنابه العالي فاقسم عليه سموه بان لا يفعل وبعد تبادل التحيات وعبارات التهاني ساروا جميعاً حتى وصلوا الى

الصواوين التي أعدتها الحكومة خارج مكة احتفالاً بمقدمه الشريف وكان العلماء والوجهاء والاعيان والتجار في انتظار قدومه السنيد بها فنزل حفظه الله في سرادق مخصص لتشريفه وبعد شرب القهوة قدم له دولة الشريف حضرات أعضاء بلدية البلد الحرام وفي مقدمتهم الشيخ الشيبى ثم حضرات قاضى مكة ومفتيها ونائب الحرم والسيد عبد الله الزواوى رئيس قومسيون عين زبيدة وقومسيون المعارف وغيرهم من العلماء والاشراف والاعيان فابدى سموه لهم شكرانه وعظيم امتنانه ثم امتطى جواده قاصداً مكة وسار بمن كان معه من وسط جنود القوة الشاهانية المقيمة بها وكانت قد اصطفت على جانبي الطريق الى (تسكنة) قشلاق الحميدية لاداء واجب التعظيم وأمامها حضرات قومندانها وضباطها بالتشريفة الكبرى فصدحت الموسيقى بالسلام الخديوى .

ودخل مكة حفظه الله من باب جرول حيث كان حرس المحمل واقفا لاداء واجب السلام وسار في طريق الشبيكة والناس على جانبيه كأنهم البنيان المرصوص والكل يتهل الى الله بحفظ هذه الذات السنية ثم مر امام التكية المصرية ودار الحكومة الحجازية ودار البلدية وكانت كلها مزينة بأحسن زينة ووصل الى باب الحرم الشريف فجر يوم الخميس ثالث ذى الحجة وصل الى الصبح مع الامام المالكى ثم طاف طواف القدوم وخرج الى السعي حيث اصطفت الحجاج على اختلاف اجناسهم وفي مقدمتهم الحجاج المصريون على طول المسعى وكان كلما مر عليهم ساعياً لله ارتفعت اصواتهم مكبرين مبتلين واقثدتهم ترفع الدعاء الى رب الارض والسماء بحفظ هذه الذات العباسية المحروسة واعينهم تذرف دموع الفرح لمشاهدة أنوار مليكهم المحبوب الذى

استولى بعدله وفضله ورحمته ونعمته على القلوب. فيالها من ساعة كنت ترى فيها هذا المليك الفخيم ولاعرش يقفه. ولا تاج يظله. قد تجرد عن نخامة الملك بل عن مظاهر الدنيا باجمها وسعى بين يدي الله سبعة اشواط كانت قلوب الناس في اناسها تسعى بين يديه الكريمتين . يالها من ساعة ما كنت تسمع فيها الا زغردة النساء وآي الدعاء ومظاهرة الرعية الصادقة بالاخلاص والولاء حتى كأنما الكل أهل بيت واحد خرجوا لاستقبال والدم وسيدهم وعائلهم وولي نعمتهم بعد غياب طويل . واحسن ما يذكر في هذا المقام أنه قدّم الى سموه جواد ليسعى عليه وكان سيادة الشريف قد أشار عليه بالسعي راكباً لعدم المحذور شرعا خصوصا وهو في تعب شديد بعد هذا السفر الطويل فامتنع سموه قائلا « ما عليّ لو غبرت قديمي ساعة في سبيل الله »

وبعد السعي قصد حفظه الله دار الإمارة في سوق الليل وكانت قد أعدت لاقامته مدة وجوده بمكة. وكان دولة الشريف قد استأذن جنابه العالي عند دخوله الحرم الشريف وسبق اليها استعداداً لمقدمه السعيد ولما وصل الركاب العالي كان دولته في انتظاره على باب السراي العاصمة فرحب به ترحيباً يليق بمقام الزائر وكرم المזור . وصعد مع سموه الي قاعة الاستقبال الكبرى وبعد تكرار آيات التهاني انصرف دولته مودعا بكل شكر واحترام. وهذه السراي كان قد بناها الحاج محمد علي باشا والى مصر في سنة ١٢٢٨ لتكون داراً لحكومة الحجاز ولما ترك ولايتها جعلت مقراً لإمارة مكة الى الآن لذلك لم ير دولة الشريف اجمل مناسبة يجدد بها الذكرى الطيبة لجلده هذه العائلة الكريمة الفخيمة الا تقديم اثر من آثار نابغة القرن الثالث عشر الهجري

الى حفيده الجليل ليقراً في عظمة اروقته بعض آيات آباءه الاكرمين . وفي هذا
اشارة لطيفة الى عدم نسيان دولة الشريف ما كان لمحمد علي باشا على عائلته
الكريمة من اليد البيضاء لانه هو الذي عين في اماره مكة جدم محمد بن عون
سنة ١٢٢٩ ومن ثم وهي في أيدي بنيه الى اليوم .

وما طلعت شمس هذا النهار المبارك حتى اطلقت المدافع من قلاع مكة
ترحيباً بمقدم الجناب الخديوى وبعد الظهر تبادل سموه الزيارة مع سيادة
الشريف ثم تشرف عطوفة القائم بأعمال الولاية بزيارة جنازه العالي وفي
الساعة الرابعة بعد الغروب نزل حفظه الله للطواف ببيت الله المعظم .

أما دولة الوالدة فانها حفظها الله ركبت من بحرة بمعيتهما في فجر اليوم
المذكور ووصلت الى مكة قبيل الغروب ودخلتها في موكب من أنقر ما رأى
الراءون وسمع السامعون بين اطلاق المدافع وعزف الموسيقىات وهتاف
الجموع المحتشدة على الطريق وما زال موكبها الجليل سائراً حتى وقف أمام
باب الصفا حيث نزلت دولتها الى دار باناجا باشا التي كانت اعدت لاقامتها
فيها مدة وجودها بهذا البلد الأمين (١)

وبعد هزيع من الليل طافت دولتها طواف القدوم ثم سعت في عمرتها
مع صاحبات الدولة والعصمة الاميرات الفخيمات .

وما بزغت شمس يوم الجمعة رابع عشر ذي الحجة حتى أخذت الآلاف من
الناس يقدون على باب الدار الخديوية: هذا رافع يده للدعاء وذلك باسط كفه

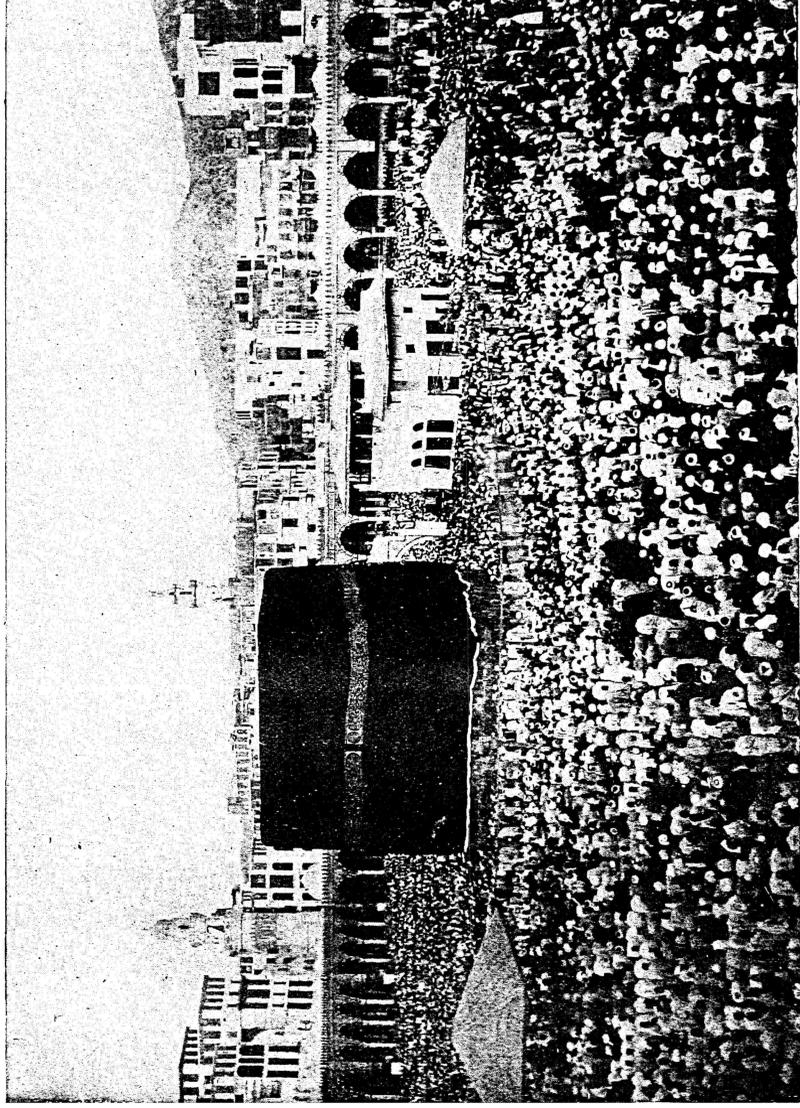
(١) وهذه الدار أيضاً من آثار محمد علي باشا كان قد ابتناها واليه على الحجاز

للعطاء . وتسابق كبار المصريين لكتابة أسمائهم في سجل التشريفات قيما
بواجب تحية القدوم . وفي ضحوة النهار ركب سموه قاصداً دار الولاية لرد
الزيارة الى عطوفة القائم بأمورها فاستقبل سموه بكل ما يمكن من مظاهر الاجلال
والاحترام وكانت فرقة من الجنود الشاهانية مصطفة على جانبي الطريق الى
بابها فلما وصل ركابه العالي عزفت الموسيقى بالسلام الخديوى فأسرع عطوفة
القائم مقام الذى كان ينتظر على بابها مرحباً بمقدم سموه ثم استصحب جنابه
العالي الى قاعة الاستقبال شاكراً له تفضله بهذه الزيارة وبعد شرب القهوة
قدم لسموه حضرات العلماء والمأمورين المكين والمسكرين وحضرات
أعضاء المجلس البلدى والاعيان والتجار الذين حضروا استعداداً للتشرف
باستقبال جنابه العالي وكانت الموسيقى الشاهانية طول هذه المدة تطرب
الحاضرين بنغماتها الشجية ثم انصرف برعاية الله مودعا بكل حفاوة واعظام
لزيارة التكية المصرية فاستقبل بما يليق بمقامه العالي وتفقد محالها ومخازنها
ومطبخها وتنازل حفظه الله فاكل من خبزها وبعد أن أعطى التنبهات اللازمة بزيادة
العناية بأمر الفقراء وشدة الاهتمام بهم رجع الى دار الامارة وزار دولة الشريف .
ولما قرب وقت الظهر قصد حفظه الله الحرم الشريف لصلاة الجمعة
وقد اعدت له القبة التي في أعلى بئر زمزم فقرشت باصناف السجاجيد
العجمية والبسط الفاخرة وكنت فيمن سبق اليها لشرف القيام بخدمة استقباله
بها فدخل سموه من باب الصفا يحف به عدد عظيم من الاشراف وبعض
ضباط الحرس الخديوى فزغردت النساء اللاتي كن في محلن من المسجد
على يمين الباب فرحا بمقدمه السعيد وهنالك علت الأصوات من ارجاء

المسجد بالتكبير والتهليل بما لم يسبق له مثيل : نمت الاصوات الى رب السموات الذي عظم شأنه وتجلي سلطانه وظهرت ربوبيته هنا بكل مظاهرها ، فاذا قلت أن العالم كله ملكة قلنا ولكن مكة عاصمته ومظهر سلطانه وجبروته والكعبة بيته ومكان عظومته ورحمته . وأى مكان في أطراف المسكونة لا يبلغ مسطحة ثمانية عشر الف متر مربع مع أنه يحشد اليه زمن الحج في وقت واحد نحو نصف مليون من النفوس والكل يدعو الله بقلب واحد ولسان واحد وهم وان اختلفت جنسياتهم وتباينت لغاتهم يتوجهون الى قبة واحدة ويحرمون في صلاتهم بمحرمة واحدة وهم لا يرجون غير رحمة الله الواحد الاحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

فلما صعد الخطيب المنبر صعد معه أحد الأغوات وجلس على الدرجة التي تلي قدميه وهذا بلا شك عادة قديمة كانت للمحافظة على الخطيب أثناء اشتغاله بالقاء الخطبة حتى لا تسرب اليه يد أئمة (واظن أنهم استغنوا عن ذلك فيما بعد بعمل ابواب المنابر خصوصاً وقد صارت الخطبة لغير الامراء والرؤساء) وعقب هذه الخطبة التي لم تخرج عن مثيلاتها في دواوين الخطب البسيطة انم الجناح العالي على الخطيب بخلة سنية البسه اياها سعادة حسين محرم باشا ثم صلى الخطيب بالناس تحت جدار الكعبة المكرمة بين المعجن وبابها الشريف وكانت السماء في أثناء الخطبة قد تلبدت بالغيوم ثم فاضت بغيثها المدرار أثناء الصلاة فلم يتزحزح الناس عن مراكزهم واستبشر جميع الخلق بهذه الرحمة التي كانت قد انقطعت عن بلاد الحجاز من ست سنوات طوال . وكان هذا أحسن . قال لحج الجناح العالي الخديوي وبهية

صلاة الجمعة بالحرم المكي في الحجة ١٣٢٥



حقوق الطبع والنشر محفوظة باسم دار الأبرار في بيروت
١٣٢٥

الصلاة خرج حفظه الله من باب الصفا بين صفوف الحرس الخديوى الذى حال بين سموه وبين أولئك الألوفا المتزاحمة لمشاهدة محياه الشريف وألسنتهم تلهج بالدعاء له وخصوصاً أهل جزيرة العرب الذين فرحوا بهذا الغيث الذى اكرم الله به وفادة ضيفه الكبير .

وفى صباح يوم السبت خامس ذى الحجة قصد حفظه الله زيارة الاماكن المباركة فى ركب من حاشيته ملكيين وعسكريين فذهب الى المعلاة (المعلي) وهى مقبرة مكة خارج بابها الشرقى فابتدأ بزيارة ضريح السيدة خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وهو داخل قبة تجددت فى سنة ١٢٩٨ وفى القبة مقصورة من خشب الجوز أقيمت على قبرها الشريف والى جانبها مقصورة صغيرة مدفون فيها ستة عشر شخصاً من الاشراف . وخارج هذه القبة الى الغرب قبر السيدة الكبيرة حرم ساكن الجنان محمد على باشا وكانت قد أتت الى الحج سنة ١٢٦٦ فماتت ودفنت بهذا المكان . وقبالة قبة السيدة خديجة الى الجنوب قبة السيدة آمنة^(١) بنت وهب والدة الرسول عليه الصلاة والسلام وبجوارها مقصورة دفن فيها الشريف محمد بن عون وفى شمالها قبة أبى طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم وبجوارها قبة جده عبدالمطلب وكتاتهما

(١) ذكر ياقوت فى معجمه ان آمنة بنت وهب أم النبي صلى الله عليه وسلم دفنت بالابواء وهى قرية من اعمال الفرع من المدينة بينها وبين الجحفة مما يلى المدينة ثلاثة وعشرون ميلا والسبب فى دفنها هناك أن عبد الله والد الرسول كان خرج الى المدينة فمات ودفن بها وكانت فى كل عام تخرج الى المدينة لزيارة قبره ولما أتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ست سنين خرجت زائرة له ومعها عبد المطلب وأم أيمن حاضنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صارت بالابواء منصرفته الى مكة ماتت ودفنت بها .

تجددتا في سنة ١٣٢٥ وفي هذه القرافة قبر سيدنا عبد الله بن الزبير رضي الله عنه وكانت له قبة هدمها الشريف عون الرفيق فيما هدم ولم تشيد بعد وفيها قبر أبي جعفر المنصور أمير المؤمنين وكان قد حضر الى مكة حاجا في سنة ١٥٨ فكبابه فرسه في الحجون فوقع واندقت عنقه فمات لوقته ودفن بالعلي ولا يعرف مكانه. وفيها غير ذلك كثير من قبور الصحابة والتابعين والصالحين . وعند انصراف الجناب العالي حفظه الله من المعلاة أمر فوزعت الصدقات على من كان هناك من جيوش الفقراء والمعوزين ثم امتلأ جواده وصعد بحاشيته الى طريق الحجون ثم على السلخانة وقصد جردول لزيارة المحمل المصري فاستقبل استقبالاً نفياً وقدم لسموه أمير الحاج جميع ضباط ومستخدمي المحمل فتشرفوا بلثم راحته الكريمة وبعد ان أوصاهم حفظه الله بزيادة العناية بواجباتهم في هذه البلاد المقدسة اعتلى صهوة جواده وسار تحيطه المهابة وتلازمه الكرامة الى مولد سيدنا على كرم الله وجهه ثم الى مولد النبي صلى الله عليه وسلم: وهو عبارة عن مكان قد ارتفع الطريق عنه نحو متر ونصف وينزل اليه بواسطة سلم من الحجر يوصل الى باب يفتح الى الشمال يدخل منه الى فناء يبلغ طوله نحو اثنى عشر متراً في عرض ستة وفي جداره الايمن (الغربي) باب يدخل منه الى قبة في وسطها (يميل الى الحائط الغربي) مقصورة من الخشب داخلها رخامة قد تقعر جوفها لتعيين مولد السيد الرسول عليه الصلاة والسلام وهذه القبة والفناء الذي خارجها لا يزيد مسطحهما عن ثمانين متراً مربعاً وهما يُكويبان الدار التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وهب هذه الدار لعقيل بن أبي طالب فباعها ولده لمحمد

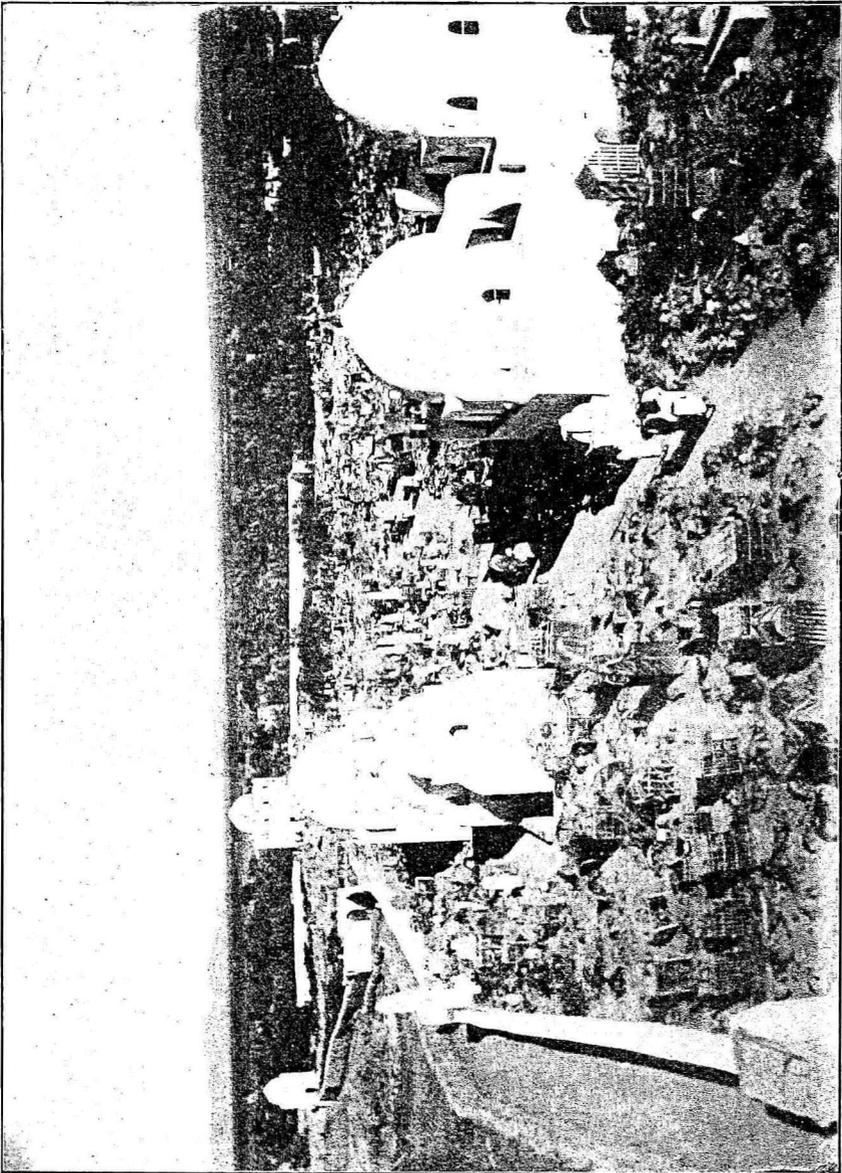
ابن يوسف الثقفي (أخي الحجاج) فلما بنى داره المشهورة بدار ابن يوسف وكانت بجوارها ادخلها فيها حتى اشترتها الخيزران أم الرشيد وفصلتها وبنتها على ما كانت عليه وجعلتها مسجداً وهي باقية كذلك الى يومنا هذا . ثم قصد حفظه الله زيارة مولد السيدة فاطمة في درب الحجر وهو دار خديجة بنت خويلد زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها ولدت جميع أولادها منه وقبل بعثته صلى الله عليه وسلم كان يعمل في تجارتها الى الشام ثم اختارته لنفسها لما كان عليه صلى الله عليه وسلم من كمال الصفات وصفات الكمال فتزوجها في سنة ٢٨ قبل الهجرة أعنى قبل بعثته بخمس عشرة سنة وماتت بمكة رضى الله عنها قبل الهجرة بأربع سنين وهي في الرابعة والستين من عمرها .

وهذه الدار قد ارتفع عنها الطريق أيضاً فيزل اليها بجملة درجات توصل الى طرقة على يسارها شبه مصطبة مرتفعة عن الارض بنحو ثلاثين سنمتراً وهي عبارة عن عشرة أمتار طولاً في أربعة عرضاً وفيها كتاب يقرأ فيه الصبيان القرآن الشريف وعلى يمينها باب صغير يصعد اليه بدرجتين يدخل منه الى طرقة ضيقة عرضها نحو مترين وفيها ثلاثة أبواب : الذى على اليسار لغرفة صغيرة يبلغ مسطحها ثلاثة أمتار طولاً في أقل منها عرضاً وهذا المكان كان معداً لعبادته صلى الله عليه وسلم وفيه كان ينزل الوحي عليه وعلى يمين الداخل اليه مكان منخفض عن الأرض يقولون أنه كان محل وضوئه عليه الصلاة والسلام . والباب الذى في قبالة الداخل الى الطرقة فيه مكان واسع يبلغ طوله نحو ستة أمتار في عرض أربعة وهو المكان الذى كان يسكنه صلى الله عليه وسلم مع زوجته خديجة رضى الله عنها أما الباب الذى على اليمين فيوصل الى

غرفة مستطيلة عرضها نحو أربعة أمتار في طول نحو سبعة أمتار ونصف وفي وسطها مقصورة صغيرة أقيمت على المكان الذي ولدت فيه السيدة فاطمة رضى الله عنها وفي جدار هذه الغرفة الشرقي رف موضوع عليه قطعة من رحي قديمة يدعون أنها من رحي السيدة فاطمة. وعلى طول هذا المسكن والطرف الخارجة والمصطبة من جهة الشمال فضاء مرتفع بنحو متر ونصف يبلغ طوله نحو ستة عشر متراً وعرضه نحو سبعة أمتار وأظن أنه المكان الذى كانت السيدة خديجة تحزن فيه تجارتها.

وهذه الدار التى كانت مقرآله صلى الله عليه وسلم ومحل اقامته في مكة ومبعثه الى الخلق كافة اذا انعمت بها نظرك وامعنت فيها فكرك لا تراها الا البساطة بنفسها : دار تحوى على أربع غرف ثلاث داخلية منها واحدة لبناته والثانية له ولزوجته والثالثة له ولربه والرابعة بمزل عنها له ولعموم الناس. يا لله ما هذا الترتيب الجميل وما هذا النظام البديع ؟ بل ما هذه الآداب الكبرى والكمالات الحيوية العظمى التى صيغت في شكل هذه البساطة المتناهية ؟ تأمل قليلاً تر أن هذا النظام هو بذاته ما قضت به المدينة العصرية لولا أنه يعمل فيها بشكل تعددت صفاته وكثرت حاجياته . هذه هي دار السيد الرسول الذي ارسل للناس كافة. نعم هذا هو منزل هذا النبي الامي وذلك هو نظامه في بيته : ذلك النظام الذي وان كان مجرداً من مظاهر العظمة والفخامة قد اكتسى بحلي الجلال والكمال. اللهم انى آمنت بك وبرسولك هذا الذي لم يتخذ دينك وسيلة الى عيش الأغنياء وحياة العطاء بل كان حسبه من عيشه ما كان يقوم بحياته التي انما كانت كلها خيراً وبركة ويمنا وسعادة للناس أجمعين.

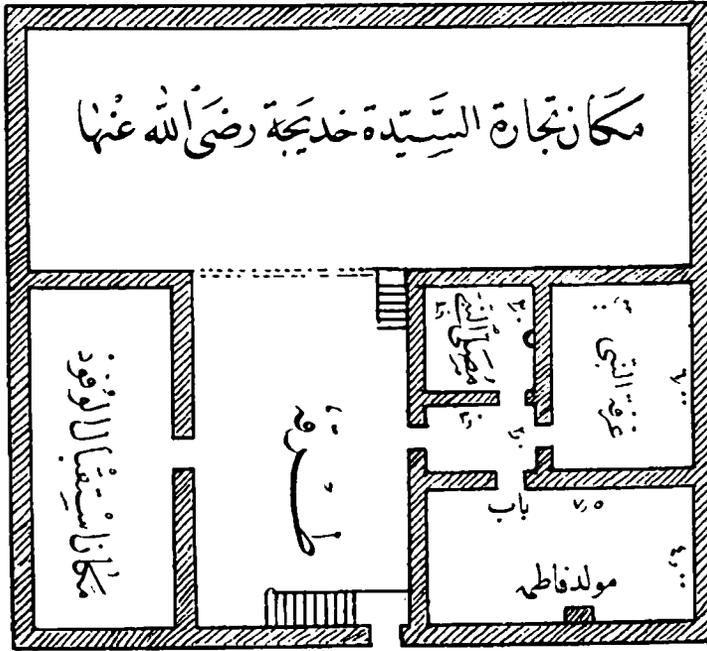
جائت المعراج مكة المكرمة فيها قنات السقي من ذوات
وعلى اعمقها قبر عبد المطلب ولديه طاهر وعمرهما من ذوات



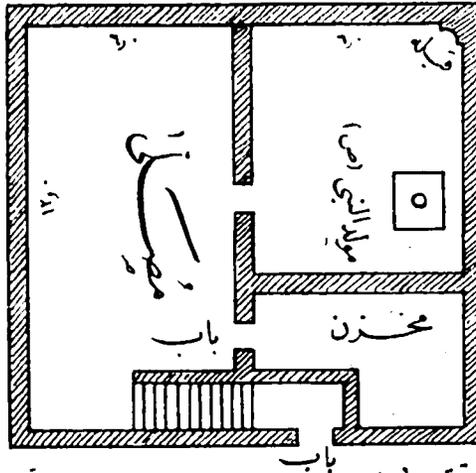
فلما هاجر صلى الله عليه وسلم الى المدينة استولى على هذه الدار عقيل بن أبي طالب ثم اشتراها منه معاوية بن أبي سفيان فجعلها مسجداً وعمرت في زمن الناصر العباسي : وقد وضع في حائط الطريقة على يسار الداخل لوح من الرخام مكتوب عليه بالحروف البارزة (بسم الله الرحمن الرحيم) أمر بعمارة مرشد مولد الزهراء البتول فاطمة سيدة نساء العالمين بنت الرسول محمد المصطفى المختار صلى الله عليه وعلى آله وسلم سيدنا ومولانا الامام المنترض للطاعة على الخلق أجمعين الناصر لدين الله أمير المؤمنين أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره وجعل منافعه ومشتغلته وأجره عائداً على مصالحه ثم على مصالح هذا المقام الشريف المقدس الطاهر النبوي على ما يرى الناظر المتولي له في ذلك من الحظ الوافر والمصلحة لهذا المرشد والمولد المقدس المذكور بعد ذلك ابتغاء وجه الله تعالى وطلباً لثواب الدار الآخرة تقبل الله ذلك منه وجزاه عليه أجر المحسنين وذلك على يد العبد الفقير الى الله رحمه الله تعالى على بن أبي البركات الدوراني الانباري في سنة أربع وستائة ومن غير ذلك أو بدله عليه لعنة الله ولعنة اللاعنين الى يوم الدين أمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطاهرين . ثم عمرها بعد ذلك الأشرف شعبان ملك مصر ثم الملك المظفر صاحب اليمن ثم السلطان سليمان في سنة ٩٣٥ وبعده ذلك قصداً لجناب الخديوي زيارة دار الأرقم المخزومي المشهورة بدار الخيزران وهي في زقاق على يسار الصاعد الى الصفا وهي الدار التي كان يختبئ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر بعثته هو ومن آمن معه وكانوا يصلون بها سرّاً حتى أسلم عمر رضى الله عنه فقويت به عصبيتهم وجبروا

بالإسلام والصلاة. وباب هذه الدار يفتح الى الشرق ويدخل منه الى فسحة
سماوية طولها نحو ثمانية أمتار في عرض أربعة وعلى يسارها ليوان مسقوف
على عرض نحو ثلاثة أمتار وفي وسط الحائط التي على يمينها باب يدخل منه
الى غرفة طولها ثمانية أمتار في عرض نحو نصف ذلك مفروشة بالحصير وفي
زاويتها الشرقية الجنوبية حجران من الصوان موضوعان فوق بعضهما مكتوب
في أعلاهما بالحرف البارز (بسم الله الرحمن الرحيم في بيوت أذن الله أن ترفع
ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال هذا مختبأ رسول الله ودار
الخيزران وفيها مبتدأ الاسلام أمر بتجديده الفقير الى مولاه أمين الملك
مصلح ابتغاء ثواب الله ورسوله ولا يضيع أجر المحسنين) ومكتوب في الثاني
(بسم الله الرحمن الرحيم هذا مختبأ رسول الله صلى عليه وسلم المعروف بدار
الخيزران أمر بعمله وانشائه العبد الفقير لرحمة الله تعالى جمال الدين شرف
الاسلام أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور الاصفهاني وزير الشام والموصل
الطالب الوصول الى الله تعالى الراجي لرحمته أطل الله في الطاعة بقاءه وأبناؤه
في الدارين مناهي سنة خمس وخمسين وخمسةائة .

وبعد ظهر هذا اليوم استقبل الجناح العالي كثيراً من الزائرين من
علماء وأعيان مكة ومن بينهم أعضاء قومسيون عين زبيدة وفي مقدمتهم حضرة
رئيسه السيد عبد الله الزواوي وفي الساعة الخامسة العربية بعد الغروب من
اليوم المذكور قصد زيارة بيت الله الحرام ففتح بابه ووضع اليه المدرج المنبري
وأوقد ما فيه من الشموع حتى صار كأنه قطعة من نور على نور . فصعد
حفظه الله على المدرج يتبعه دولة الأمير كمال الدين باشا فرجال حاشيته



رسم نظري تقريبي لبيت السيدة خديجة المشهور بمولد السيدة فاطمة (بمكة)



رسم نظري تقريبي لمولد النبي (ص) اودار عبد الله بن عبد المطلب (بمكة)

عسكريين وملكيين وهنالك صلى ركعتين لله تعالى في القبلة التي في مقابلة الباب (وكانت مصلى النبي صلى الله عليه وسلم) ثم اتجه الى الجدار الشمالي فصلى ركعتين أيضاً ثم الى الجدار الشرقي فصلى مثلها وكان الجميع يصلي كذلك والكل في غاية ما يمكن من الخشوع تلقاء هذا المكوت الاعظم والزهوت الانغم الذين تصغر امامها النفوس الكبيرة حتى يكاد يتصل وجودها بالعدم. ولولا ما كنا نشاهده من تحرك الجسوم في هيئة الصلاة ورفع الايدي بالدعوات واضطراب الشفاه بالترسعات وما كنا نسمعه من دقات القلوب أمام هذه العظمة الكبرى لحسبنا انفسنا في حياة غير هذه الحياة. وفي الحقيقة فقد كنا في هذه الساعة في عالم آخر. كنا في بيت الله وفي حضرة الله من غير ما واسطة وليس فينا الا رأس يخضع ولسان يضرع ودعوات ترفع وعيون تدمع وقلب يهلع واخلاص يشتمع. وبعد أن أقمنا على هذه الحال ساعة خرجنا وقلوبنا تقبض أقدامنا عن السعي لحظات تزيد في تمتع النفس بهذه التجليات العظمى وعاطفة الأدب تدفمها بموجبات الاحترام والاحتشام. وبعد نزولنا من الكعبة المشرفة طاف حفظه الله حول البيت ثم زار مقام الخليل ابراهيم ثم عاد الى مقامه شاكرًا لله على توفيقه لزيارة بيته الكريم.

وقضى جنباه العالى يوم الاحد في استقبال كثير من الناس على اختلاف اجناسهم وفي المساء أولم وليمة فاخرة لسيادة الشريف واصحاب السعادة انجاله الكرام ووكيل الولاية ونحو عشرين من علية القوم والاشراف وكبار المأمورين وحضرات القاضى والمفتى وشيخ الحرم ومديره وقومندان المسامر الشاهانية ورجال المعية السنية وبعد العشاء أتقلوا الى البهر الكبير وكان حفظه الله

يؤانسهم بطقه ومكارم اخلاقه وبعد شرب القهوة قام عطوفة امين بك افندى وكيل الولاية والقائم باعمالها وارتجل خطابة غاية في البلاغة جمعت الي جزالة اللفظ رقة المعنى. ومما جاء فيها بعد ترحيبه بمقدم الجناب العالى الى هذه الديار المقدسة : انه منذ وجوده في مركز الولاية وهو يدرس بكل اعجاب وافتخار اعمال المرحوم محمد على باشا في ولاية الحجاز وما عمله فيها من ترتيب ونظام وما حبس على أهلها من الاوقاف الواسعة وما ربط لهم من المرتبات الجسيمة التي لا تزال ترسل اليهم من حكومة مصر سنويا فينال منها الكبير والصغير وتساعد على حياة كل بائس فقير . وبعد ما انتهى ذلك الخطيب من خطابه البليغ شكر له الجناب العالى فصاحته وطقه وأدبه ثم أخذوا في السمر الى منتصف الليل وانفض عقد الجمع وكلهم ألسنة شكر للجناب العالى على عظيم كرمه وحسن لقائه وجميل ملاظفته وواسع معرفته وكبير آدابه وقضى حفظه الله يوم الاثنين سابع الحجة في استقبال كثير من الزوار وقد تزارر سموه مع دولة الشريف وفي المساء طاف بالكعبة المعظمة ثم رجع الي دار الامارة وأمر بحفظه الله بالاستعداد الي الخروج لعرفه.



الطريق القديم والحديث من مصر الى الحرمين

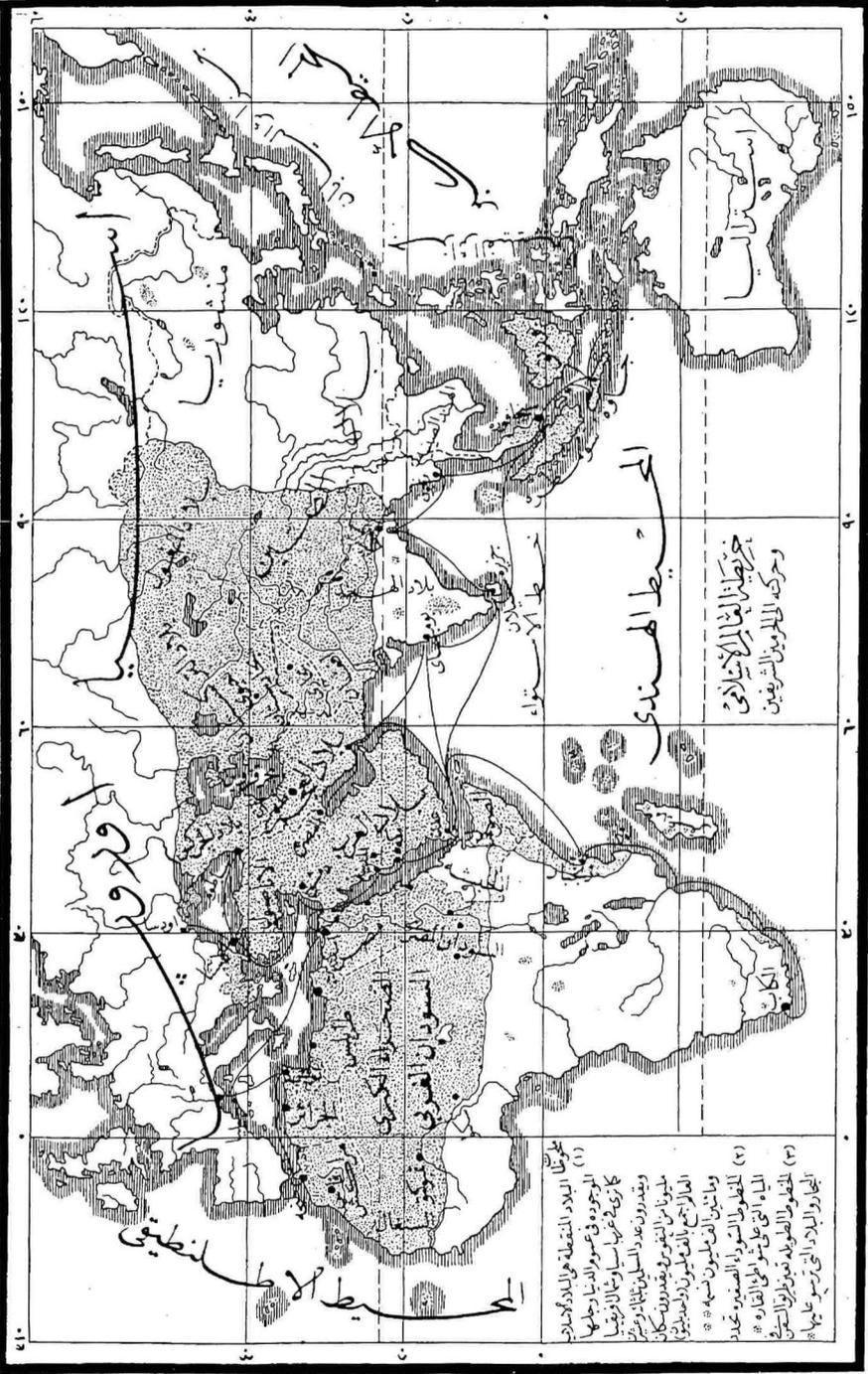
كانت مصر ولا تزال طريق المسلمين الى حج بيت الله الحرام وزيارة نبيه عليه الصلاة والسلام في نصف الكرة الارضية الغربية باعتبار أن مكة المكرمة هي قلب العالم أو النقطة المركزية التي تنبعث منها أنصاف أقطار الى محيط جميع دائرة الاقطار: فالاندلسي الذي كان يسكن في غرب أوروبا والمغربي الذي في غرب أفريقيا وما دونه من مسلمي البربر فالسنغال فبلاد التكرور والسودان الغربي والشرقي كانوا اذا قصدوا الحج الى بيت الله الحرام سافروا من بلادهم الى مصر بحرا او برا وكذلك كان يقصدها كثير من أهالي الشام والترك والقوقاز وجزائر البحر الابيض المتوسط ويجتمع الكل بالتاهرة قبل شهر رمضان ثم يسرون منها الى قوص برا أو في النيل (٦٤٠ كيلومتر) في نحو عشرين يوماً ثم تسافر قوافلهم منها في صحراء عذاب مدة ١٥ يوماً يقطعون فيها نحو ١٢٠ كيلو مترا الى التصير على البحر الاحمر وكانت من قديم مينا مصر الشرقية أى انها كانت من مصر بالامس مكان مينا السويس الآن . وكانت هذه القرية في أيدي عرب البجاه^(١) الذين كانوا يتولون نقل الحجاج على ابلهم في صحراء عذاب وكانت

(١) قبائل البجاه أو البجه يقال أنهم من البربر وكانوا يسكنون في صحراء مصر الشرقية من سواكن الى قرية يقال لها الحزبه في صحراء قوص وهذه الصحراء عامرة بمادن الزمرد والذهب والنضة والحديد وفيها مغائر وآبار قديمة لاستخراجها وهي طبعاً من عهد قدماء المصريين وبعضها من عمل محمد علي باشا والى مصر وكانت العرب تستخرج منها المعادن وخصوصاً التبر في القرن الاول والثاني للهجرة وذلك باتفاق مع ملك البجه الذي كان مقره اسوان وكان ينال المسلمين منه ومن قومه اذى كبير فأرسل الامون اليه عبد الله بن الجهم فكانت له معهم وقائع ثم وادعهم وكتب بينه وبين كونون رئيسهم كتاباً تذكر لك طرفانه لتعرف مقدار التسامح الاسلامي مع أهل الذمة وكيف أنه كان لا يفرق بينهم

أخلاقهم على غاية من الفظاعة لا شفقة فيهم ولا رحمة وربما بلغ بهم الامر الى تغيير طريق الماء على القافلة لغرض شنيع وهو أن ركبها يموتون عطشاً فيستولون على ما معهم من متاع. وفي هذه الصحراء قبر العارف بالله أبي الحسن الشاذلي قرب مكان يقال له أمان توفي فيه سنة ٦٥٦ في طريقه الى الحجاز ودفن به. وكان الحجاج يقيمون في عذاب نحو شهر من الزمان في انتظار الفلايك التي تحملهم الى جدة ويسمونها جلابا (واحدتها جلبه). وهي سفن صغيرة غير محكمة الصنع وشراعها في الغالب من الحصير وكان أصحابها يتعسفون بالحجاج فيشحنون المركب باكثر من حمولتها وكثيرا ما كانت تفرق في وسط البحر بمن عليها من الحجيج الذين يذهبون ضحية مطامع اولئك الاشرار ومن وصل به طول عمره الى جدة وصلها في نحو اسبوعين يتقاب في أثنائها بين تحكم الملاح وتبرم

وبين المسلمين في المعاملة :

هذا كتاب كتبه عبد الله بن الجهم مولي أمير المؤمنين صاحب جيش الغزاة عامل الامير أبي اسحاق ابن أمير المؤمنين الرشيد أبقاه الله في شهر ربيع الاول سنة ست عشرة ومائتين لكنون بن عبد العزيز عظيم البجة باسوان. أنك سألتني وطلبت اليّ أن أوّمنك وأهل بلدك من البجة وأعقد لك ولهم أمانا علىّ وعلى جميع المسلمين فأجبتك الى أن عقدت لك وعلى جميع المسلمين أمانا ما استقمت واستقاموا على ما أعطيتني وشرطت لي في كتابي هذا وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد اسوان من أرض مصر الي حد ما بين دهلك وباضع ملكا للمأمون عبد الله بن هارون أمير المؤمنين اعزه الله تعالى وأنت وجميع أهل بلدك عبيد لامير المؤمنين الا أنك تكون في بلدك ملكا على ما أوت عليه في البجة، وعلى ان تؤدى اليه الخراج في كل عام على ما كان عليه سلف البجة وذلك مائة من الابل أو ثلثمائة دينار وازنه داخلة في بيت المال والخيار في ذلك لامير المؤمنين ولولائه وليس لك أن تحرم شيئاً عليك من الخراج، وعلى أن كل أحد منكم ان ذكر محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتاب الله أو دينه بما لا ينبغي أن يذكره به أو قتل أحداً من المسلمين حراً أو عبداً فقد برئت منه الذمة ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة أمير المؤمنين أعزه الله وحل دمه كما يحل دم أهل الحرب وذرايرهم، وعلى أن أحداً منكم ان أعان المحاربين على اهل الاسلام بما لا يدل على عورة من



خريطة الهند والمحيط الهندي
وحركة اللومين الشرفيين

المحيط الهندي

فلاو

خريطة الهند والمحيط الهندي

- (١) خطوط البلاد المتصلة من البلاد المحاذية
- (٢) الوجوه في صورة الماء واليابس
- (٣) كازيمير في غرب آسيا وشمال أفريقيا
- (٤) مقدرون عدد المسلمين في الهند وشمال
- (٥) ملوينا من التيمور في مقدرون كان
- (٦) الماراجم في المليون والمليون
- (٧) وماشدين المليون منهم
- (٨) خطوط الصورة الصغيرة
- (٩) المياه التي على سطح الأرض
- (١٠) خطوط الطول في الهند والمحيط الهندي
- (١١) البحار والبلاد التي ترسو عليها

الرياح. وانزعاج الماء واضطراب الهواء. ولقد حج من هذا الطريق في سنة ٥٧٩ ابن جبير الاندلسي قطع المسافة بين القاهرة وجدة في نحو شهرين ونصف قضاها في أسوأ حال بين مشقات وأهوال مما هو مبین في رحلته وفي سنة ٧٢٥ سافر ابن بطوطة من مصر الى القصير ولكنه لم يجد فيها مركباً تحمله الى جدة مع من قصدوا من الحجاج لان السفن التي كانت يمينها احرقت في واقعة حصلت هناك بين الترك وعرب البجاه فعاد منها الى مصر ومنها الى بلاد الشام ثم الى بغداد وسافر منها مع المحمل العراقي في السنة التالية. وطريق القصير قديم جدا فتحه بين قفط والقصير رئيس الثالث في القرن الثاني عشر قبل الميلاد لتداول التجارة بين مصر وبلاد اليمن والهند والعرب الذين كانوا كثيرا ما يهاجرون منها الى مصر طلباً للتجارة أو للعيش فيها. وفي زمن بطليموس فيلادفوس أى في سنة ٣٢٠ قبل المسيح أخذت هذه الطريق أهمية عظيمة وصارت المينا الوحيدة التي تصل تجارة البحر الابيض المتوسط بالمحيط الهندي

عورات المسلمين او أثر لغرتهم فقد نقض ذمة عهده وحل دمه، وعلى أن أحداً منكم ان قتل أحداً من المسلمين عمداً أو سهواً أو خطأ حراً أو عبداً أو أحداً من أهل ذمة المسلمين أو اصاب لاحد من المسلمين أو اهل ذمتهم ما لا يبلى البجة أو يبلاد الاسلام أو بلاد التوبة أو في شئ من البلدان برأ أو مجراً فعليه في قتل المسلم عشر ديات وفي قتل العبد المسلم عشر قيم وفي قتل الذمي عشر ديات من دياتهم وفي كل مال اصتموه للمسلمين واهل الذمة عشرة أضعافه وان دخل أحد من المسلمين بلاد البجة تاجراً أو مقبياً أو محتاراً أو حاجاً فهو آمن فيكم كما حدكم حتى يخرج من بلادكم، ولا تؤووا أحداً من آبقى المسلمين فان اناكم آت فعليكم ان تردوه الى المسلمين، وعلى ان تردوا اموال المسلمين إذا صارت في بلادكم بلا مؤنة تلزمهم في ذلك، وعلى انكم ان تزلتم ريف صعيد مصر لتجارة او محتارين لا تظهرون سلاحاً ولا تدخلون المدائن والقرى بحال ولا تمنعوا أحداً من المسلمين الدخول في بلادكم والتجارة فيها برأ ولا مجراً ولا تخيفوا السبيل ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ولا اهل الذمة ولا تسرقتوا المسلم ولا ذمي مالا وعلى أن لا تهدموا شيئاً من المساجد التي ابتناها المسلمون بصيحة وهجر وسائر بلادكم طولاً وعرضاً فان فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة الخو باني الكتاب لا يخرج عن هذا المعنى.

وبالعكس وهو الذي حفر أغلب الآبار التي في هذا الطريق وبنى على طولها مخازن للتجارة ورتب لها الخفر اللازم لحراستها وهو الذى بنى مدينة بيريس (عذاب) على اسم والدته وكانت توجد في جنوب القصير وما زالت هذه الطريق هي الطريق الوحيدة للحاج المصرى من القرن الاول الى سنة ٦٤٥ التي سافرت فيها شجرة الدر مع قافلة الحاج الى مكة لأول مرة عن طريق البر على العقبة. وفي سنة ٦٦٠ أخذ هذا الطريق الاخير اهميته حيث سير الظاهر بيرس البندقدارى قافلة الحاج منها وارسل معها الكسوة التي عملها للكعبة والمفتاح الذى أمر بصنعه لبابها الشريف ومن ثم اخذ يقل ذهاب الحجاج عن طريق القصير ولكنها استمرت طريقاً للتجارة بين الشرق والغرب وكان يسكن في المدينة (عذاب) حاكم بن بدرى من طرف شيخ قبائل الباجه وآخر تابع لحاكم مصر وكانا يأخذان عوائد مرور عشرة جنيهاً عن كل حاج مغربى وسبعة على الحجاج الآخرين وكانا يقتسمان كل ما يحصل منها مناصفة ! واستمرت هذه المكوس حتى أبطلها صلاح الدين الايوبى في سنة ٥٩٠ زمن الشريف مكث ابن عيسى ورتب له شيئاً عوضاً عنها ثم اعادها الاشراف من بعده على الداخلين من الحجاج الى مكة حتى الزم الملك الناصر الشريف عطيفة ابن أبى نى سنة ٧٢١ بإبطالها في نظير ما رتبته اليه من التمتع الذى كان يحمل اليه في مكة كل سنة. وقد اهتم محمد علي باشا بهذا الطريق وسهله للتجارة وعمر آباره وبنى فيه البئر المشهورة الى الآن بئر الانكابر (ماؤها ملح) وينزل اليها بثلاثة سلم وكانت محطاتها فقط — بئر عنبر اللقيطة — الوكاله — العنبجه (وماؤها مر) — القصير.

ويظهر أن طريق القصير ما زالت مستعملة للتجارة حتى عملت السكة الحديدية من القاهرة الى السويس زمن سعيد باشا عوضاً عن العربات التي كان سيرها محمد علي باشا سنة ١٨٤٥ بواسطة الخيل في طريق الصحراء لحمل السياح من القاهرة اليها. وكان لها ديوان مخصوص يسمى ديوان المرور على يسار الداخل الى الموسكى وهو معروف الآن بسوق الخضار القديم ومع كل فقد استمرت القصير ميناء بين مصر العليا والحجاز تنقل منها الحبوب الى جده وينقلون من هذه اليها السجاد والفلفل والبن

والسنا المكي وكانت لها سوق كبيرة في قنا الي ان حفر قنال السويس وكثر سير
المراكب البخارية في البحر الاحمر . وكان يسافر بعض الحاج من السويس الي
جدة بواسطة المراكب الشراعية فيقطعون مسافتها في نحو عشرين يوما ولكن غالبهم
كان يسير مع قافلة المحمل عن طريق العقبة أو مع غيرها من القوافل التي كانت تقوم بها
عربان مصر من أولاد علي وغيرهم فيصل الي مكة في نحو خمسين يوماً . وأول من رتب
ركب الحاج على هذا الطريق وعقبه عند رحيلهم من البركة الامير جمال الدين الاستادار
عندما سافر ولده شهاب الدين أميراً للمحمل سنة ١٨٠٩ فاذا وصل الركب الي عجرود (وهي
محطة قبيل السويس) يأمر الامير بكتابة اكابر الحاج ويرتبهم كلا في مكان معين
من القافلة بجماله وذويه وخدمه ثم يجمع الركب من الطليعة الي الساقة ويضبط اطرافه
ونواحيه بجماعة من العسكر وكان يسير اصحاب الحمول والاموال في وسط الركب .
وطريق البرشاقي جدا وخصوصاً في المنطقة التي بين السويس والعقبة وهي
لا تقل عن ثلثة كيلومتر كلها أرض رملية ناعمة تسوخ فيها اخفاف الجمال قبل اقدام
الرجال ولا يهتدون فيها الي الطريق الا بواسطة نواطير اقيمت لهذه الغاية وهي اشبه
شيء بطواحين الهواء . وماء هذا الطريق قليل وعناؤه كثير وقد كان في بعض القرى
التي عليه مخازن للميرة والذخيرة ومؤن الجمال وامتعة الحاج الذين كانوا يرسلونها اليها
قبل سفرهم على سبيل الامانة في نظير اجرة مخصوصة حتى تتوفر عليهم مشقة حملها في الطريق
وكان في هذه القرى فرق من الجند لحراستها . وبالجملة فانا نورد لك اسماء المحطات التي
كان يقطعها الحاج في طريق البر من القاهرة الي مكة ومسافة الركوب اليها بقافلة
المحمل وهي اسرع من القوافل الأخرى وذلك لانتظام سيرها واحكام امرها
وجودة جمالها :

ساعة من القاهرة

٦ » بركة الحاج

١٤ » الدار البيضاء وبها قصر عباس باشا الاول ويلها الدار الخضراء

١٢ عجرود توجد في الجنوب الغربي من السويس علي مسافة عشرين كيلو متر منها

- ومن هناك يرجع المريض والمنقطع والمشيعون
- ٨ الباطور الاول والثاني والثالث والارض في هذه المسافة رملية ناعمة متقلية
من جهة الي أخرى (والناطور هو بناء علي شكل طاحونة عمل لارشاد السفار)
- ٦ » العلوه
- ١١ » جنادل حسن (ارضها رملية)
- ١٢ » قرية نخل وفيها نخل وشجر وقلمة وخان من عمل الغورى وساقية من
عمل الملك الناصر حسن الي جانبها ثلاثة احواض تسع ٣٠٠٠ قرية
تملاً في زمن الحج وكان يرسل اليها اربعة من الثيران من طرف الحكومة
فلا تزال تدور في المساقية لملء الحيضان حتى ترجع مع قوافل
الحاج الي مصر
- ١٢ بئر قريص وسميت أخيرا بئر أم عباس لان والده عباس باشا الاول
اصلحتها (وماؤها عطن)
- ٧ » العقبة وتصد اليها بمنحدر من مسافة طويلة من الغرب حتى تصل
الي قمتها فاذا اردت ان تنزل الي الجهة الشرقية صرت نازلا صاعدا
وصاعدا نازلا في أرض حجرية تارة وأخرى رملية ناعمة وأخرى خشنة
أوزلطية الي ان تمر في مضيق لا يسع الا جملا جملا ويسمى قطع لاظ
وطريق هذا القطع حلزوني تقريبا اصلحه ابن طولون ثم محمد بن قلاوون
ثم عباس باشا الاول ومع ذلك فان المسافر فيه لا بد ان ينزل عن دابته
ويسير على قدمه حتى يقطع العقبة في ست ساعات نزولا وضعفها صعودا
ومن دون هذه العقبة قرية العقبة ويسمونها ايله (١) وفيها يفصل أمير
الحاج جميع المقطوعين الذين لا يمكنهم الاستمرار على السفر لمريضهم

(١) وهي بلدة قديمة جداً وكانت عامرة من زمن مديد وكانت في مدة سليمان بن داوود عليهما الصلاة والسلام مينا كبيرة للمراكب التي كانت تقدر الي الشام من اليمن والهند

أو لفقرهم ويعطيهم المؤنة اللازمة من القسماط ويستأجر لهم سنبوكا
ويسيره بهم اما الى مصر أو الى جده وكثيرا ما كانوا يصلونها بعد
نزول الناس من عرفه . ومن العقبة يتجه الحاج الى جهة الجنوب حتي
يصل الى محطة

ظهر حماروفى طريقه مضيق بين جبلين على البحر لا يسع الا جملاً جلا ٩

وفارس وانقطع بها طريق البر من اليمن الى بطره ولما مات سليمان رجعت الطريق الاولي
الى ما كانت عليه في نقل التجارة برأ . وكان فيها اسواق كبيرة بل كانت مركزا للتجارة
بين مصر وبلاد العرب وفارس والعراق . ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم الى غزوة تبوك
في السنة التاسعة للهجرة أتاه ابن رؤبة صاحبها وصالحه واعطاه الجزية فكتب له عليه
الصلاة والسلام عهداً هذه صورته (بسم الله الرحمن الرحيم هذا أمانة من الله ومحمد النبي
رسوله لتحية ابن رؤبه وأهل أبيه اساقفتهم وسأرهم في البر والبحر لهم ذمة الله وذمة
النبي ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر فمن أحدث منهم حداً فإنه
لا يحول ماله دون نفسه وأنه طيب لمن أخذه من الناس وأنه لا يحل ان يمنعوا ما يريدونه
ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر . هذا كتاب جهنم بن الصلت وشر حبيبل بن حسنة باذن
رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي سنة ٥٦٦ كان الافرنج قد استولوا عليها في الحروب
الصليبية فسار اليها من مصر صلاح الدين الايوبي وأخذ معه مراكب مفصلة على الجمال
حتي اذا وافي مياها اصليح مراكبها وانزلها في البحر وحاصر المدينة برأ وبحراً حتي
أخذها عنوة وطرده الافرنج منها وهي الآن قرية صغيرة في أيدي عرب الحويطات وفيه
قلعة بناها السلطان مراد الرابع فيها بمض الجنود لحراسها وعدد سكانها لا يزيد عن مائة
نفس وفي هذه القرية نخيل واشجار وماؤها حلو ويزرع في أرضها الخضراوات . وبين
العقبة ومعان نحو مائتي كيلو مترا شرقا والطريق فيها صعبة وتخترق جبال السراة التي
يكسوها الجليد طول الشتاء . وبينها وبين ريت المقدس شمالا بنرب نحو ٣٠٠ كيلومتراً
في صحراء قليلة المياه طريقها وعمر . وبينها وبين السويس نحو ٣٠٠ كيلو متراً .

- ١٤ الى الشرفا (ويسمونها أم العظام)
- » ١٢ مغاير شعيب (وبها نخل و بساتين ومياه عذبة)
- » ١٤ عيون القصب (وبها ماء ونخل وشجر سنط وعبل)
- » ١٢ المويلح وفيها قلعة انشاها السلطان سليم يحرسها بعض الجند ومناخها رطب غير جيد للصحة وسكانها تجرون في الفحم الذي يصنعونه من شجر الطرفا وينبت بكثرة في الوديان المجاورة لها ومنها الى تبوك طريق على مسافة مائة كيلو مترا
- » ١٢ سلمى (كفافه) وفي طريقها مضيق شق العجوز تسير فيه الجمال جملا جملا وبهذا الوادي شجر الدوم والسنط والطرفا
- » ١٢ اصطلب عثر مكان متسع محاط بالجبال وفيه ثلاثة آبار
- » ١٢ الوجه (سيأتي الكلام عليه في طريق المدينة) ومنه يتشعب الطريق الى العلا شرقا والى ينبع جنوبا والى المدينة المنورة جنوبا بشرق
- » ١٦ عكره (لاماء فيها)
- » ١٢ الحنك (لاماء فيها)
- » ١٤ الحوراء فيها مضيق تسير فيه الجمال جملا ورمل ارضها ناعم
- » ١٥ الخضيرة وفيها معادن نحاسية وأرضها صلبة
- » ١٠ ينبع ويدخلها المحمل واكبًا باحتفال عظيم وهي ثغر المدينة المنورة على البحر الاحمر (سنتكلم عليها في طريق المدينة)
- » ١٨ السقيفة (ماؤها ملح)
- » ١٠ مستوره (ماؤها حلو)
- » ١٤ رابع وهي قرية بينها وبين البحر نصف ساعة وفيها قلعة بها بعض الجند لحراستها وفيها مخازن تحفظ بها مؤن ركب المحمل وذخائره وفيها صهاريج عذبة وهي الميقات لمكة.

ساعة

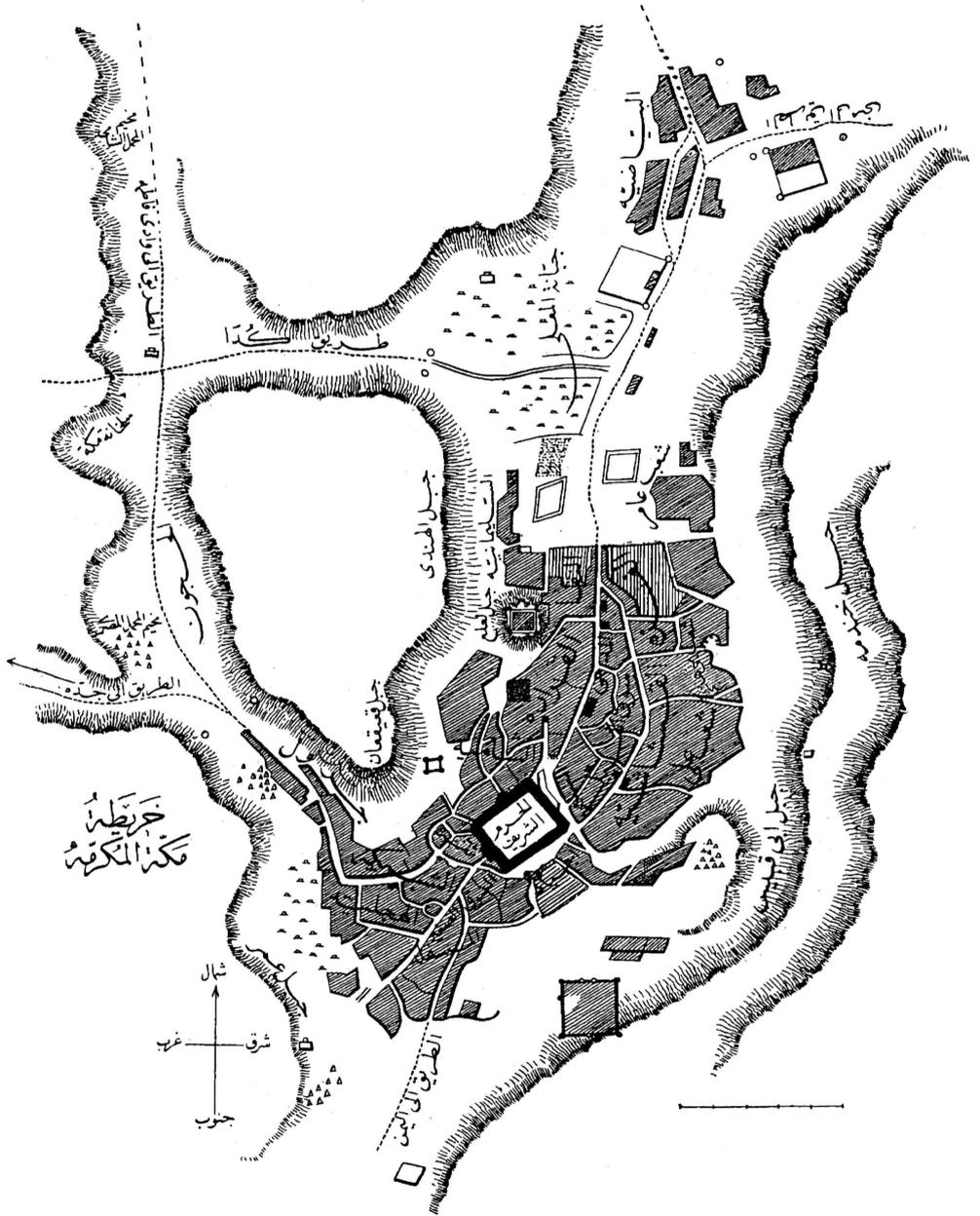
- ومنها تفرع الطريق الى المدينة ثلاثة افرع : الطريق السلطاني
والطريق الفرعي وطريق الغاير .
- ١٢ » بيرالهندي او القضيمة (وبعضهم يكتبها القديمة) وهي قرية على البحر
ماؤها ملح ومنها يتجه الى الجنوب الشرقى .
- ٦ » خليص .
- ٨ » عسفان (فيها بئر التفلة ، ماؤها حلو) وفيها عمران على طول نحو كيلو
مترا يسعان الا جملا جملا .
- ١٥ » وادى فاطمة (وادى مر) أو مر الظهران ومنه الى قبر السيدة
ميمونه زوج النبي صلى الله عليه وسلم ثم الى العمرة الجديدة وهي حد
الحرم من هذه الجهة واقرب حدوده اليه ولذلك يقصدونها للاعمار
منها وفيها مصلى على يمين الطريق .
- ٤ مكة المكرمة .
- ٣٤٧ وعلى حساب ان الجمل يقطع في الساعة الواحدة اربعة كيلو مترات
تكون المسافة من مصر الى مكة من طريق البر ألف وربعها كيلو مترا تقريبا كانوا
يقطعونها في نحو اربعين يوما . أما الآن فالحاج المصرى يركب السكة الحديدية الى
السويس ويبحر منها الى جده بغاية الراحة ومنها الى مكة فيصل اليها في اقل من اسبوع .
ومن الناس من يسافر الى المدينة أولا بطريق السكة الحديد الحجازية وبعد الزيارة
يسافر مع القافلة الى مكة أو يرجع الى مصر ومنها الى جده .

مكة المكرمة

مكة وتسمى بكة وام القرى مدينة ترتفع عن سطح البحر بنحو ٣٣٠ مترا وهي على
عرض ٢١ درجة و٣٨ دقيقة وفي طول ٤٠ درجة و٩ دقائق وتبعد عمارتها الى عهد

ابراهيم وابنه اسماعيل . وكان يعيش بنوه في الخيام والمضارب حتى عاد قصى بن كلاب من الشام في القرن الثاني قبل الهجرة فبنى فيها المساكن والبيوت حول الكعبة ومن ثم أخذت تزيد في عمرانها الى الآن وهي عاصمة (قصبه) بلاد الحجاز وفيها محل حكومته التي تنقسم الى قسمين الادارى وهو في يد الشريف ويسمونه سيد الجميع ، والمالى والعسكرى وهو في يد الوالى الذى يكون تركيا فى الغالب وعليه فالشريف ينظر فى القضايا الجسيمة ويحكم فيها علي حسب نظامات اربابها ان كانوا من الاهالى أو من الاعراب أما القضايا الصغيرة فيحكم فيها القاضى الذى يعين من قبل السلطان .

وهذه المدينة تمتد من الغرب الى الشرق على مسافة نحو ثلاثة كيلو مترات طولاً وما يقرب من نصف ذلك عرضاً في واد مائل من الشمال الى الجنوب منحصر بين سلسلتى جبال تكادان متصلان ببعضهما من جهة الشرق والغرب والجنوب أعني على أبواب مكة الثلاثة ، ولذا لا تشاهد ابنيها للقادم عليها الا وهو علي أبوابها . والسلسلة الشمالية منها تتركب من جبل الفلج غرباً ثم جبل قيعقان ثم جبل الهندى ثم جبل لعلع ثم جبل كداء بفتح أوله ومد في آخره وهو في اعلى مكة ومن جهته دخل رسول الله البلد حين الفتح . أما الجنوبية فانها تتركب من جبل ابى حديدة غرباً يتلوه جبال كدى (بضم أوله والفاء لينه في آخره) وكدي (بالتصغير) بأخراف الى الجنوب ثم جبل أبى قيس الى شرقيهما ثم جبل خندمة . وكل سفوح هذه الجبال من جهة الحرم تراها عامرة بالبيوت والمساكن التي تتدرج عليها الى قلب الوادى ويبلغ عددها نحو سبعة آلاف بيت منها الكبير والصغير يمتد فيها زمن الحج ٢٠٠٠٠٠ الف نفس على الاقل ومساكنها على شبه مساكن جده لاحوش لها الاماكن لعظائنها وكبرائها وأعظم مساكنها فيما يسمونه بالقرارة . ومع ذلك فليس فيها على قدم عهدها وعظم مكائنها من آثار العمارة القديمة شئ يذكر كما هو موجود بكثرة بمصر والشام اللهم الا بيت الشريف ناصر باشا الذى هو في فخامة المنظر وجمال الصناعة العربية بمكان عظيم ويصح أن يكون احسن بيت في مكة . وضمن هذه المساكن بعض الدور القديمة فترى دار ابن عباس في انسمى على يمين البالك الى المروة وفي الشرق الشمالى للحرم آثار دار أبى سفيان المشهورة



خرطبة
مكة المكرمة

شمال
شرق
جنوب

الطريق إلى بني

حصن الحدي

الطريق إلى حدة

جنازة العسا

الطريق إلى حدة

حصن الحدي

الطريق إلى حدة

في الجاهلية والاسلام وهي مهدمة لا عناية للقوم بها ولو لاحظوا أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل لها يوم الفتح شأنًا كبيرًا حيث جعلها حرماً محترماً كل من دخلها من المشركين كان أمناً لكان المجلس البلدى بمكة اعارها شيئاً من عناية .

والحرم الشريف بين هذه البيوت مائلاً الى الجهة الجنوبية مما يلي جبل أبى قيس وفي هذه الجهة دار الخيزران يتلوها شرقاً شعب بنى هاشم ويسمونه شعب على ثم شعب المولد ثم شعب بنى عامر وفي هذه الجهة كانت مساكن بنى عبد المطلب وفيها الآن كثير من الاشراف أما باقى قرىش فكانوا فى الجهة الاخرى من الحرم خصوصاً جهة الشمال ومن دونهم باقى اهالى مكة .

ويتوسط مكة طريق يقطعها من الغرب الى الشرق وهو اكبر شوارعها ويختلف اسمه باختلاف الجهات التى يمر عليها فاذا ابتداءً غرباً من جرول يسمى حارة الباب ثم الشبيكة حتى اذا وصل الى الحرم من جهة الشمال سمي الشامية فاذا انطف الى الجنوب على يمين الحرم سمي السوق الصغير ثم جياذ وفيه البوستة والتلغراف والتكية المصرية ودار الحكومة العثمانية ويسمونها بالحيدية فاذا وصل الى الصفاسى المسمى ثم القشيشية ثم سوق الليل وهو يوصل الى باب مكة الشرقى أو باب المعلى . أما الشوارع التى فى شمال الحرم فهي الشامية وفيها سوق المدينة والقرارة والنقا والسليمانية والجدرية والبراضية . وهذه الطرق تختلف سمعتها من مترين الى خمسة عشر متراً وترها فى زمن الحج غاية فى الوساخة والقذارة مما يوجب على المجلس البلدى فى مكة ان يعنى بنظافتها خصوصاً فى مدة الموسم مع عدم اهماله أمر النور لىلا خدمة للدين والانسانية . وفى مدة الموسم ترى أهل البلاد لا سيما الاعراب يضعون دائماً سدادتين من القطن فى فتحتى مناخرهم ويربطونها بمخيط يعلقونه فى رقبتهم حتى اذا آسوا عدم وجود قذارة رفعوها وهم لو علموا ان هذه السدادة ضررها اكبر من نفعها لا بطولوا استعمالها لان وظيفة الخياشيم انما هي تقيع الهواء من الادران فتسوقه الى الرئتين تقياً أما اذا دخل الهواء الفاسد الى الرئتين من طريق الفم فانه يدخل اليهما بما فيه من المادة الغريبة فيتصل معهما بالدم وهناك يكون تأثيره الضار والعياذ بالله .

أما الطبقة الراقية وخصوصاً من الأعراب فاتهم يضعون طرف طاقتهم (كوفيتهم) على فهم وانفهم ويثبتونها في عمامتهم أو عقالمهم اتقاء البرد أو الروائح الكريهة .
ويتصد مكة زمن الحج أنواع العالم الإسلامي من جميع أطراف المسكونة فترى بها الأزياء المتباينة والسحن المختلفة حتى ليجدر بها أن تسمى بالمعرض الإسلامي، ولقد رأيت فيها رجلاً يابانياً من كبار قواد اليابان قد أسلم وتدم إليها لتأدية فريضة الحج . وليس بمكة ميادين عمومية اللهم إلا صحن المسجد الحرام الذي بسعته يؤدي وظيفة الميادين الكبرى وقد اعتاد الشوام والمغاربة سكنى الجهة الشمالية من مكة زمن الموسم والافغان والسليمانية (أهالي قوندهار) في الجهة الشمالية الشرقية والهنود والجاوه في الجهة الشمالية الغربية واليمن والتركستان والضاغستان في المسفلة وما سوى ذلك في وسط المدينة وأهالي مكة يبلغ (١) عددهم نحو ١٥٠ ألف شخص منهم خمسون ألفاً من الأهالي والباقيون من الأعراب كما تراه في الجدول الآتي

الف	
٥٠	أهالي
٢٥	أعراب
٢٠	بجاريون
١٢	هنود
١٥	جاوه
١٠	سليمانية وافغان
٥	شوام
٥	مغاربة
٨	أجناس مختلفة
١٥٠	مجموع

(١) التعداد في بلاد العرب لم يحصل لحد الآن بصفة رسمية وكل ما يعلم عنه إنما هو على وجه التقريب وما وضعناه هنا أخذناه من مأموري الدولة وغيرهم ممن يوثق بأقوالهم

وانا نذكر لك بعض البيوت القديمة التي توطنت في مكة من زمن بعيد وفيها كثير ممن اشتهر بالوجاهة والثروة:

فمن الهنود — بيت خوقير . فتا . الدهلوى . الساب . حكيم . الرذه . الناقرو .
ميره . المفتى . عبد الشكور . عبد الحق . بشاره . المرزا . احمدوه . كمال . جان . شلهوب .
نور . الطيب . دستانية . خوج . الوشكلى . ولى . سنبل . خوجه بكر . المسكى . الياس . الزرعه .
القرع . الحجيمى .

ومن الجاه — بيت البتاوى . المنكابو . زينى . أرشد . الفتيتانا . الفلمباب .
قدس . دوم . الخ

ومن البخاريين — بيت كشك . الفاشقلى . الانديجان الخ
ومن الحضارم — بيت باحارس . باجنيد . باناجا . باحكيم . باذرعه . باعيسى .
وباعش . الخ

ومن الشوام — بيت هاشم . الجبرى . والحشيفانى الخ .
ومن الترك — بيت الدرايزنلى . والقرملى الخ
ومن المصريين — بيت القطان . الزقزوق . الرشيدى . الرواس . القزاز .
والاباصى . الخ

وقد اختلف بعضهم في أصل هذه البيوت ولكننا ذكرناها على ما هو مشهور من نسبتها على ان الغرض من ذكرها هنا انما هي لكونها غير عربية ليس الا .
ومن اختلاط هذه الاجناس بعضهم ببعض بالمصاهرة أو المعاشرة صار سواد اهل مكة خليطا في خلقهم خليطا في خلقهم: فتراهم قد جمعوا الى طبائعهم وداعة الاناضولى وعظمة التركي واستكانة الجاوى وكبرياء الفارسي وابن المصرى وصلابة الشركسي وسكون الصينى وحدة المغربى وبساطة الهندى ومكر النينى وحركة السورى وكسل الزنجى بل تراهم جمعوا بين رفة الحضارة وقشف البداوه : فينا تراك قد آنسك الرجل برقة حديثه معك وضعته بين يديك تراه قد استوحش منك واغلظ في كلامه حتى كأن طبيعة البداوة تغلبت فيه على طبيعة الحضارة فلم يطق ما تكلفه في حضرتك .

وقد وصل هذا الخلط الى ازياهمم التي تراها مجموعة مختلطة من ازياء البلاد الاسلامية : عمامة هندية وقفطانا مصرياً ووجه شامية ومنطقة تركية فيها خنجر تراه على الخصوص في حزام الاشراف مفضضاً أو مذهبا بشكل جميل جدا ومع هذا فقد ترى الرجل الصانع الفقير يلبس القميص وعلى ياقته الظرافة المشغولة بالحريز وعلى رجله سراويله شيء يشبه الركامة وهو حافي الرجل (مثلا) . الا أنك لا تلاحظ ذلك في طبقة الاشراف التي ترفعت عن هذا الخليط فلم يدخل في مادتهم غريب ولم يتغلب عليهم خلق جديد بل خلقهم هو هو بعينه العربي البحت الذي ورثه عن أجدادهم وألفوه بما فطروا عليه من كريم العنصر وذكاء المحتد . وبالجملة فأخلاق أهل مكة غاية في الكمال وخصوصاً في الطبقة العالية فيهم رضي الله عنهم ولا يؤخذ على مجموعهم خسة بعض السوقة منهم .

والذي يؤسف له ان هذا الخلط وصل الى لغتهم فتراهم يتكلمون في الغالب بلغة يكثر فيها الحشو من كلمات عربية مشوهة أو فارسية أو تركية أو غيرها وهم يننون المضاف فيقولون في هذا حق فلان مثلا « هذا حق فلان » مع ابدال الف جيماً مصرية ومنهم من يمد الحرف المنون فيقول « هذا حتمون فلان » أو يؤنث لفظه فيقول « حتمة فلان » ولا يحذفون النون من الفعل في صيغة الامر للجمع فيقولون « هيا صلون المغرب واركبون » بدل صلوا واركبوا ويستعملون الترخيم في غير المنادي فيقولون « قم لعنا » أي قم لعندنا ويقولون في الابل بل ويقولون « كمننا » أي كمننا (خلصنا) ويقولون « وصابني » في وامصيتي « واللمن » في اليمن . ومما يكثر سماعه منهم قولهم « دحين » في هذا الحين و « ازهم فلان » في ادع فلانا ويمبرون عن الرجل بلفظ (زلمه) ويجمعون الرجل على اوادم (١) ويقولون « زكنه » أي اضربه « وقل كذا » أي اعمل كذا ويقولون « أبيض » للاستحسان « وسنع » في صنع أو اتقن و « اتجمعص » يعني اجلس و « فصخ حدك » أي اخلع نعالك ويقولون « مشلح » للعبانة و « شاية » للقطان و « امرح » اجر و « الودن » للقدان من الارض و « الصاده » للطاقيّة

و « زكن عليه » أى أكد عليه و « ذل » بمعنى مر أو اخرج و « الات » بمعنى نعم و « اندر » فى ابد و « اغد » فى رح و يسمون الأ ولاد بالزورة فيقولون « بزورة فلان » أى اولاده و يستعملون لفظ « هرج » فى معنى كلم فيقولون « ماهرجه » أعنى ما كلمته و يستعملون لفظ « صاقن » التركية للاحتراس والتنيه و « قريوز » للبطيخ و يستعملون غير ذلك كثيرا من الكلمات التركية و الفارسية مثل « روشن » للشباك و يقولون عن حياض مجرى عين زيده « بازان » وهو لفظ فرنساوى (Bassin) وأظن أنه من وضع بعض المهندسين الأتراك الذين كانوا يعملون فى اصلاح هذه العين كما استعملوا بعد ذلك من هذه اللغة الفاظا كثيرة فى المدينة المنورة بعد وصول السكة الحديدية اليها فيقولون « البيليت » لتذكرة السكة الحديد (Billette) و « استاسيون » للمحطة (station) و « شماندوفير » للسكة الحديد (chemin de fer) و « الفاجون » للعربة (Wagon) و « البرسونيل » للمستخدمين (personèl) وهكذا من الألفاظ التى لم يسمح الوقت لاستقصائها، وهذا كله مع كثرة أغلاطهم النحوية وعدم مراعاة القواعد الصحيحة التى لا يهتمون بها فى تقويم السنهم أو أقلامهم. وأنى بينما كنت محزونا لتأخر اللغة العربية فى مشرق أنوارها ومظهر اعجازها اذ عثرت على ترجمة فرنساوية لكتاب (١) عمرو بن العاص الذى أرسله الى عمر بن الخطاب لما استولى على مصر يصفها له فيه و يشرح له السياسة التى سيتخذها فيها. وقد نشر هذه الترجمة الكاتب الفرنساوى الشهير الكبير المسيو اوكتاف اوزان (Octave Osane) ني جريدة الفيجارو الفرنساوية الشهيرة ونقلته عنها برمه جريدة البروجيه الفرنساوية المصرية مع التعليقات التى علقها عليه المسيو اوزان التى وصف فيها هذا الكتاب بانه من أكبر آيات البلاغة فى كل لغات العالم وقال عنه انه من الفرائد فى اعجازه واقترح وجوب تدريسه فى جميع مدارس المسكونة حتى يتعلموا منه مع قوة الوصف ومثانة التعبير صحة الحكم على الأشياء وكيفية تنظيم الممالك وسياسة الاستعمار.

(١) وتنبأ للفائدة نذكر لك نص هذا الكتاب البليغ : « اعلم يا أمير المؤمنين ان مصر تربة غبراء وشجرة خضراء طولها شهر وعرضها عشر يكتنفها جبل أغبر ورمل اغفر يخط وسطها الذبل المبارك الغدوات يميمون الروحات يجري بالزيادة والنقصان كجرى

وانا اذا اسفنا شديد الاسف على ضياع هذه اللغة من الوسط الذى لانزال فيه هذه العترة الشريفة القرشية التى نزل بلفتها القرآن وصار معجزة الاسلام بفصاحته وبلاغته وكتب بها ابن العاص هذا الكتاب وهو في بداوته ، وعلى نشأته الاولى ، هذا الكتاب الذى بعثه من ادراجه مدينة العصر الواحد والعشرين من دفاتر الغابرين واعطته ما يليق به من التجارة والاحترام: فقد يجب علينا ان نفتخر بان كتاب ابن العاص بقى في مصر ملازماً لذلك الوصف الطيبى الذى وصفها به عمرو من ثلاثة عشر قرناً ولا يزال قائماً بها الى الآن بل والى آخر الزمان، وقد اثرت بلاغته في المصريين الذين هم والحمد لله الآن في مقدمة الناطقين بالضاد حتى لكأنى بمصرهم في أيامنا هذه وقد انتقلت اليها فصاحة الخطباء ومثانة الكتاب وبلاغة الشعراء في ابان الدولة العباسية الكبرى في العصر الثانى الاسلامى وعسى ان يكون هذا خير فال أو قال خير لبنها يكون لهم من ورائه ان شاء الله شأن كبير ومقام خطير. وغالب أهل مكة يتكلمون بالتركية ومن المطوفين من يتكلم بلغات مختلفة كالهندية والاردية والجاوية والفارسية والصينية . أما أهل البادية فلغتهم عربية صرفة وتختلف في لفظها باختلاف القبائل فمنهم من يقلب القاف زايا فيقول « ذربة » في قرية وعتية تقلب الكاف سيناً فيقولون

الشمس والقمر له أو ان تظهر به عيون الارض وينابيعها فيدر حلاله ويكثر عجاजे وتعظم أمواجه فتفيض على الجانبين فلا يمكن التخلص من القرى بعضها الى بعض الا في صغار المراكب وخفاف القوارب وزوارق كأنهن الخمايل (قطع السحاب) ورق الاصيل فاذا تكامل في زيادته نكص على عقبه كأول ما بدا في جريته وطمى في درته فعند ذلك تخرج ملة محقورة وذمة محقورة يحرثون بطون الارض ويبذرون بها الحب ويرجون الماء من الرب ليقهم ما سعوا من كدهم فثاله منهم بغير جد هم فاذا احدق الزرع واشرق سقاء من فوق الندى وغذاء من تحت الثرى فينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء اذ هي عنبرة سوداء فاذا هي زمردة خضراء فاذا هي ديباجة زرقاء فتبارك الله الخالق لما يشاء . الذى يصلح هذه البلاد وينبئها ويقر قاطنها فيها ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها والا يستأدى خراج الثمرة الا في أوتاهم وان بصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها فاذا تقرر الحال مع العمال في هذه الاحوال تضاعف ارتفاع المال والله تعالى موفقى الملك والمال .

و «سواسب» في كواكب و «سليب» في كليب و «سبد» في كبد . أما بنو شيان فينطقون بالكاف جيما فارسية (معطشة) فيقولون «جواجب وجليب» وهم كذلك يلقبون القاف جيما فارسية فيقولون في قربه «جربه» وهكذا . والعرب لا ينطقون بالقاف بل يلفظونها جيما مصرية . ومنهم من يقلب الميم باء كقولهم «بكة» في مكة و «لازب» في لازم و «راتب» في راتم و «نبيط» في نيمط ومنهم من يقلب الفاء ناء فيقولون «التخت» في التحف أو يقلب الاء فاء فيقولون «فم» في ثم و «أجداف» في أجداث ومنهم من يغير الحركات في الكلمة كقول المجازين حج وقول نجد حج وهكذا . وأهل مكة كلهم مسلمون ولا يدخلها غير مسلم من السنة التاسعة للهجرة التي نزلت فيها الآية الشريفة «يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا» وكان علي ينادى في الموسم الذي أعقب نزول هذه الآية الشريفة «الا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك» . وكان المراد بذلك منعهم من الحج وعدم دخولهم البلد الحرام التي بها تم مناسكهم لأنهم مع ما كانوا عليه من وساخة الضمير وخبث الطوية كانوا يلقون الشقاق بين قبائل العرب المسلمين ويوغرون صدورهم ويلقون الغل الى بطونهم بقصد التفرقة التي يكون من ورائها الضعف .

فلما مات رسول الله صلى الله عليه ارتدت العرب في أطراف الجزيرة بعد عشرة أيام من يعة أبي بكر وذلك بتأثير المشركين منهم حتى بلغ من أمر هؤلاء أن ادعى منهم طليحة النوبة في الشمال وهيصة في اليمن ومسلمة الكذاب مع سجاح في اليمامة (غرب بلاد العرب) وغيرهم في وسط البلاد ، فاستنفر أبو بكر المسلمين الى قتال أهل الردة وبعث اليهم بأحد عشر لواء وأمرهم ان يحاربوهم ولا يقبلوا منهم غير الاسلام فساروا وأبوا في قتالهم بلاء حسناً وخصوصاً جيش خالد بن الوليد الذي كان له الفضل الأكبر في رجوع الناس الى الاسلام .

وبعد وفاة أبي بكر سار عمر على طريقته في تطهير بلاد العرب ممن كان على غير دين الاسلام لانهم أهل البلاد الذين بهم عزها وبهم يكون خيرها أو شرها وبهم تكون سعادتها أو شقاوتها . ثم سار على سنته من أتى بعده من الخلفاء الى الآن .

وأهل الحرمين أنفسهم يبالغون في مراقبة الاجانب الذين يفدون الى بلادهم فلا يتعدى جدة وينبع وضنما جنوبا ومحطة العلا شمالا أحد من الاجانب بالمرّة وان فعل فما هو الا مورط بنفسه الى حتفه من أهل البلاد ! لذلك ما كانت عمال السكّة الحديدية الحجازية الاجانب يغادرون هذه المحطة ولم يكن في قدرة الحكومة أن تسمح لهم بذلك مطلقاً مع الضرورة اليه .

أما أفراد الفرنجة الذين قصدوا مكة أو المدينة في أزمنة مختلفة وكتبوا عنها ما كتبوا على حسب نزعاتهم سياسية أو دينية أو عمرانية أو جغرافية انما كانوا يتزبون بزى المسلمين بعد ان يعرفوا اللغة الغربية ويدعون أنهم على الدين (١) . الاسلامي نخس بالذكر من هؤلاء بوركرت السويسرى و بورتون الانكليزى وهورجرونج الهولاندى وكورتلون الفرنساوى وأولهم هو أسبقهم الى التورط بنفسه فى بلاد العرب وبوركرت سويسرى الجنس لوزانى المولد « Lausanne » وفد الى مصر ودخل الأزهر بعد ان ادعى الاسلامية وسعى نفسه ابراهيم المهدي وتعلم فيه العربية ثم سافر الى بلاد العرب وأقام بها نحو سبع سنين وكتب عنها وكتابه فيها أحسن ما كتبه الفرنجة وخصوصاً فى صفة بلاد العرب وقبائلها ومات فى مصر على زيه الاسلامى ودفن فى قراقة باب الفتوح بجوار قبة الشيخ يونس ولا يزال قبره موجودا بها ومكتوب على شاهد ترته هذه العبارة :

هو الباقي

هذا قبر المرحوم الى رحمة الله تعالى الشيخ حاج ابراهيم المهدي بن عبد الله بوركرت اللوزانى تاريخ ولادته ١٠ محرم سنة ١١٩٩ وتاريخ وفاته الى رحمة الله بمصر المحروسة فى ٢٦ ذى الحجة سنة ١٢٣٢ هـ .

ومن عوائد أهل مكة أنهم يأكلون مرتين فى اليوم واحدة فى نحو الساعة التاسعة

(١) ولا أرى أثباتاً لهذا الامر غير ان اذكر لك صورة الاعلام الشرعى الذى استخرجه برتلون لنفسه من مكة (وكان اسمه عبد الله بن بالسير) أوهم فيه محرره انه على دين الاسلام وقد أخذت صورة هذا الاعلام بالقطوطوغرافيا ووضعت فى الصحيفة ١٥٢ من كتابه الذى عنوانه (سياحتي الى مكة) وهالك هي بنصها :

صباحا والاخرى بعد صلاة العصر وهم يميلون الى الابهة والفخفة كثيرا ويقلد صغيرهم كبيرهم في التظاهر بالكرم والشجاعة خصوصا في شهر رمضان وقد كانوا يفترون في الحرم بعد صلاة المغرب فيمدون فيه الموائد هنا وهناك لا سيما في زمن الحر ولكن الشريف عون الرفيق أبطل هذه العادة (وخيرا فعل) لان فضلات الاكل كانت توسخ المسجد وتكثر فيه الحشرات والقطط وغيرها. ومن عوائدهم أنهم يشترطون وجبات صيانتهم ثلاث شرط في كل جبة. وازار يفشوا في نساءهم كثيرا. وبعضهم يخرجون الى الاسواق بملاء واسعة سوداء في الغالب وبرقع كفيف فيه ثقبان صغيران فيما يقابل العينين وفي أرجلهم أخفاف ضخمة لونها اصفر غالبا.

ومن عوائدهم احتفالهم في منتصف شهر صفر بمولد السيدة ميمونة عند مدفها بالزاهر على طريق المدينة فينصبون خيامهم في تلك الصحراء ويتفاخرون بكثرة الطعام والشراب. واحتفالهم بمولد النبي صلى الله عليه وسلم في ربيع الاول ويعبرون عن المولد بالحول فيقولون حول ميمونة وحول النبي. وفي شهر رجب يحتفلون بزيارتهم

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على النبي النبيل القائل علماء

أمتي كانبيا بني اسرائيل عليه وعلى آله أجمعين

قدوة العلماء الاعلام وعمدة الفضلاء الفخام حلال المشكلات ومزيل المعضلات سيدنا

وأخينا في الله الشيخ ابن ذاكور حفظه الله آمين

وبعد اهداء مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقد ورد اليانا من اراد الله له بالسعادة الدنيوية والاخروية عبد الله بن البشير بدخوله في الاسلام فامعنا النظر في حاله فوجدناه مؤمنا حقا رابغا غاية الرغبة في الاسلام هذا ممن يلزمه الاعتناء بشأه من عرض احكام الاسلام عليه وتعليمها له ولو كانت مدة جلوسه عندنا مع ذلك لفعلنا معه ما يكون سببا لكل خير ولكنه اسرع بالمسير فيلزم كل من له رغبة في الاسلام ان يقوم بشأه من تعليم ما يحتاج اليه وقد أشار لي بان الرغبة اليكم اكثر فارجي على سيادتكم ان تقوموا بشأه لاحرماننا الله واياكم من الاجر ودمم في خير وسرورم

الداعي لكم بالخير

١٣١٢

٧ ربيع الثاني محمد عابد ابن المرحوم الشيخ حسن مفتي المالكية بمكة المحمية

للمدينة المنورة . ويخرج سراًتهم في الصيف الى الطائف ولها طريقان طريق القافلة (١) ويعد عن مكة بنحو ٣٦ ساعة وطريق (٢) البغال على جبل كرا وهو على نحو نصف هذه المسافة . ومدينة الطائف مشهورة بطيب هوائها (لأنها ترتفع عن سطح البحر بمسافة ١٥٥٠ متراً) وبكثرة بساتينها وجودة ثمارها (وليس أحسن من هوائها الا هواء الهدى وهو جبل يبعد عنها بنحو ثلاث ساعات الى مكة ويرتفع عن سطح البحر بنحو ١٧٦٠ متراً وأهله مشهورون بجمال خلقتهم وذنومة بشرتهم) وفيها قبر السيدين الطاهر والطيب ولدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبر سيدنا عبد الله بن العباس ويقصده الياينيون لزيارته قبل الموسم وله على الخصوص عندهم احترام كبير . وكان بهازمن الجاهلية معبد اللات والعزى وكانت تدين بهما ثقيف وغيرها من القبائل المجاورة للطائف وقد كان رسول الله صلّم ذهب اليهم في أول نبوته وطلب منهم نصرته فأبوا عليه ذلك . ويتخلف عن الحج كثير من اهل مكة ويسيرون فيها للمحافظة على ديارهم من اللصوص الذين يكثرون في هذه الآونة فيقطعون ليلهم سهرا بين اطلاق بنادقهم من كل الجهات اعلانا بأنهم يقظون لكل من قصدهم بسوء .

ويوجد بمكة وخارجها مزارات كثيرة منها مولد النبي صلى الله عليه وسلم ومولد علي ومولد فاطمة ودار الخيزران ومسجد الجن ومسجد الزاوية ومسجد الاجابة ومسجد البيعة ومسجد أبي بكر ومسجد عمر ومن الاماكن المباركة غار حراء وهو الغار الذي كان يتعبد فيه النبي صلى الله عليه وسلم ومساحته تقرب من ثلاثة أمتار مربعة وهو في قمة جبل النور الذي علي يسار السالك الى عرفة وفيه نزل الوحي عليه صلى الله عليه وسلم لأول مرة وجبل نور وهو الى الجنوب من جهة المسفلة وعلى ساعتين منها وفيه الغار الذي اختفى فيه رسول الله مع صاحبه أبي بكر حين قصد الهجرة الى المدينة

(١) مكة . بئر البارود (شمال منى) وادى اليمامة . السولة . النبيه . الجديره . أم

حمض . الجيم . الطائف

(٢) مكة . منى . عرفه . وادى سمار . وادى النعمان . قهوة شداد . وادى

خريف . الرأس . ابو حراجل . الكركم . مجمع الدروب . عين المعسل . الهدى . بئر السكر . الطائف .

ومساحته نحو مترين ونصف مربعين وكان باب هذا الغار لا تبلغ فتحته الا نحو نصف متر عرضاً في مثلها ارتفاعاً وكان الزائرون يصادفون مشتة في الدخول اليه فكسره الشريف عون الرفيق رقفا بهم على ما يزعم ولو علم انه اثر من آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم لابقاه يقرأ الناس فيه آية معجزة نسج العنكبوت عليه بعد دخول الرسول اليه وتمشيش الحمام علي بابه مما حكم معه اعداؤه الذين كانوا يقتفون اثره بعدم وجوده فيه . ومن المزارات أيضاً جبل أبي قبيس وفيه مسجد بلال ومسجد انشقاق القمر وزاوية السنوسي الذي له في الحجاز شأن كبير ومقام خطير ومعظم الاعراب على شيعته .

وفي مكة لتغراف وبوسته بناهما المرحوم عثمان باشا نوري عند بناءه لدار الحكومة (الحيدية) وغيرها منذ كان والياً عليها لأول مرة سنة ١٨٨٢ ميلادية . والتغراف في هذه المدينة لا نظام فيه بالمرّة لعدم وصول غالب الاشارات التي ترسل من والي اربابها ولعل ذلك ناشيء من كثرة الاعمال في زمن الحج . أما البوستة فشيء لا نظير له بالمرّة في بوسطات العالم فان المكاتب تحضر في زمن الموسم الى مكة في عدة زكايب فتلتي في طرقة مكتب البوستة الضيقة ويأتي المطرفون أو صبيانهم أو الحجاج انفسهم فيفروزونها ويأخذ كل ما يمر عليه صدقة باسمه أو باسم معارفه وعليه فاعلج الخطابات لا تصل الى اربابها واطن ان هذا النظام أو اللانظام لا مبرر له بالمرّة فان الحكومة العثمانية في استطاعتها ان تكثر من عمال البوستة في موسم الحج فاذا فرضنا انها عينت بصفة ظهورات عشرين عاملاً لفرز هذه المكاتب مدة الموسم فلا يكلفها ذلك شيئاً كثيراً ولو قلنا ان الزمن الماضي كان زمن فوضى لا نظام له فانا لا يمكننا ان نقول هذه الكلمة في الحكومة الحاضرة وان أمكنا فلا نحج ان تقولها . وليست هذه الحال خاصة بمكة بل تراها بالمدينة وينبع وجده وعليه فترجو من حكومة الحجاز العناية بتنظيم البوستة قيماً بواجب رد الامانات الي أهلها حتى لا تضعي الفائدة المقصودة منها .

وفي شوارع مكة كثير من القهاوي البلدية التي ترى في دوائرها دككا وكراسي من الخشب مقاعدها مصنوعة من شبكة من الليف أو الخوص المجدول فيجلس عليها الحجاج وخصوصاً في التي خارج البلد لا سيما في بمدة الصيف ويشربون بها الشاي

(ويسمونه الشاهي) (١) والقهوة (٢) والترجييلة التي يجبرزونها بالتبناك الحمى عادة لكثرة استعماله هناك. وفي مكة ثلاث تكايا واكبرها واخرها وانظما واكثرها موردا التكية المصرية وهي بناء فخيم بناه المرحوم محمد علي باشا جد العائلة الكريمة الخديوية في مكان دار السعادة الذي كان محل حكومة بني زيد من الاشراف كما كانت دار الهناء محل حكومة بني بركات وكانت توجد مكان دار الشريف أبي نبي تجاه باب الوداع وفي هذه التكية مخازن وطاحونة ومخبز ومطبخ ومكان نظيف منظم لحضرة مديرها وامكنة لمستخدميها ويطحخ بها يومياً الشوربة للفقراء والمعوزين الذين يقدون الى بابها صباحا لاخذها مع ماهو مرتب لهم من الخبز الذي تقوم به حياتهم و يبلغ عددهم نحو خمسمائة شخص أو يزيدون .

وفيها قلعان تحكان على المدينة ويسكن بهما عساكر الدولة وهما قلعة جياذ التي بناها الشريف سرور سنة ١١٩٦ هجرية في الجهة الجنوبية وقلعة الهندي التي بناها الشريف غالب سنة ١٢٢١ في الجهة الشمالية .

وفيها حمامان علي مثال الحمامات الرومية بمصر واحد بالعمرة قد بناه محمد باشا وزير السلطان سليمان سنة ٩٨٠ والثاني بالقشاشية ويسمونه حمام النبي .
وهي مطبعة للولاية وتسمى باسمها .

ويصدر فيها جريدة بالتركية والعربية اسمها حجاز وهي شبيهة بالرسمية وكل ما فيها تقريبا يتعلق باخبار الحكومة واعلاناتها .

وليس في مكة كتبانات تذكر اللهم الا كتبخانه بسيطة في باب النبي وأخرى في باب السلام تسمى بالكتبخانه السايانية ولا نظام لها في فتحها خصوصاً في أيام

(١) واظن ان هذه الكلمة نسبة الى شاه الفرس لاستعماله هذا الشراب كقولهم شراب ملوكي مثلاً وربما أتى من هذه النسبة اسم ذلك القماش الحريري المشهور « شاهي »
(٢) والقهوة عندهم من البن اليمني وكبرائهم يضيفون عليها كثيراً من المنبهات مثل الجهان والقرنفل وبعض العطريات بما يجعل لها نكهة لطيفة جداً ويسمونها روش ومن أغاني البدو : ياروش ما اسمك روش اسمك دواء لكل كبد عليه .

الموسم لذلك لم يتيسر لي زيارتهما وعلى كل حال فالكتب التي بهما لا تخرج عن الكتب الدينية والنحوية . وقد كان بمكة كتب كثيرة مهمة وكانت موضوعة في دوايب في دائر حائط الحرم سرق بعضها والسيول التي اغرقت المسجد وخصوصاً في سنة ٤١٧ صعدت الي هذه الخزائن واتلفت منها شيئاً كثيراً وكان في ذلك اكبر مصيبة علي العلم والعلماء لانهم فقدوا بها ما لا يصلحه الزمان ولا يعوضه الانسان .

وفيها مدرستان المدرسة الصولية بناها المرحوم الشيخ رحمة الله الهندي الشهير (صاحب كتاب اظهار الحق) ويدرس فيها القرآن الشريف وعلم التجريد وشيء من اللغة العربية والاعمال الحسائية والهندسية ويصرف عليها من تبرعات أهل الهند وهو أمر لا ثبات له ولا تدوم معه حياة مدرسة نافعة مثلها ولذلك أخذت في الانحطاط والامل في حكومة الحجاز النهوض بها وبامثالها . ثم المدرسة التي يقوم بها حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ يوسف محمد الخياط وهو من علماء مكة الامائل ويدرس فيها ما يدرس في الاولى بتوسعة وعناية مولانا الامير بها كبيرة ولذلك فالامل في نجاحها عظيم . ولقد قرأت أخيراً بعدد ٣ جمادى الاخيرة سنة ١٣٢٨ من جريدة المفيد الفراء نقلا عن جريدة صباح ان الحكومة العثمانية افتتحت مدرسة بمكة المكرمة بحضور الوالي والشريف وجمهور من الوجباء والاعيان فمسي أن يكون فيها الخير المرجو لأمر القرى بل لام العواصم الاسلاميه .

ولو كان مولانا الامير يقضى بان يخرج المطوفون من مدرسة مخصصة يدرسون فيها ما هو خاص بوظيفتهم لكان في ذلك اكبر خدمة دينية لأن جل الموجود منهم الآن يجمل مأموريته الكبرى وليت بعضهم يقف عند هذا الحد بل يلقي في ذهن الحاج ما ليس من الدين في شيء كسألة الكنفاني والزلباني مثلاً وهما حجران في طريق جدة الي بحرة ويزعمون ان واحدا منهما كان كنفانيا والآخر كان زلبانيا وكانا يغشان الحجاج فسخما الله حجريين !! وسألة الناقة والحجام والحجامه يجبل عمر وذلك ان هناك صخرة تشبه ناقة باركة والي جوارها حجران يزعمون ان النبي كان بهذا المكان بناقته فأتى رجل حجاً مع امرأته وامسكا بالناقة التي لم تنهض برسول الله صلى الله عليه

وسلم فسخها الله معهما علي هذه الصورة ! ! ومسألة سارق الصندوق وهو صخرة الى جبة جبل النور تقرب من صورة رجل يحمل صندوقا يزعمون انه كان سارقاً له فسخه الله عليها ! ! وأمثال هذا كثير مما تجب العناية بازالته خدمة للدين المتين . والادهي من ذلك أنهم يحرفون الفاظ القرآن الكريم عمداً أثناء الطواف بتفخيمهم مالا يجوز تفخيمه أو ترقيقهم مالا يصح ترقيقه ومنهم من يتلب الحرف بأخر لتقريبه الى نطق السامع ان كان تركياً أو هندياً أو فارسياً مثلاً فيقولون القاف كافاً فيقولون مثلاً « وكنا عذاب النار » في قوله تعالى « وقنا عذاب النار » والحاء هاء فيقولون « مهمد رسول الله » في محمد رسول الله وقولهم « يا أرحم الراحمين » في يا أرحم الراحمين « والوهم » في اللهم ونحو ذلك مما لا يجوز شرعاً ولا اجتماعاً .

ويدرس في الحرم الشريف بعض العلوم العربية والتفسير علي الطريقة القديمة العقيمة ويقدر عدد الطلبة بضع مئات جلهم من الجاوه الذين يفرون الي هذه البلاد من المظالم التي تساقط على رؤوسهم من حكومة بلادهم .

ويبلغ عدد المدرسين العاملين نحو الثلاثين وعنايتهم بالتعليم قليلة جداً وذلك لقلة موارد الارزاق ولان مرتباتهم التي تصرف لهم من طرف الدولة لا تقوم بأودهم لانها تختلف من مائة الى خمسمائة قرش عثمانى سنوياً . ولنا في الحكومة الجديدة حكومة الدستور حكومة العلم حكومة العمل وفي كبرهمة دولة الشريف عظيم الامل في انتقال حال العلم بهذه البلاد في زمن قريب الى حال تفيد القوم في دينهم ودنياهم .

وتجارة هذا البلد في يد الاجانب كلها أو جلها خصوصاً الهنود وغالبها من صف السبح والسجاجيد والاقمشة الحريرية الهندية والشامية . والصناعة فيها غير مهمة وهي لا تخرج عن صياغة بعض قطع ذهبية أو فضية وخصوصاً في عمل الدبل التي يدعون منفعتها للبواسير شفاهم الله ! ! والحدادة عندهم بسيطه جداً ولكنها دقيقة في عمل الاسلحة وفيها من المصانع فاخورة لعمل الدوارق والقلل وكل ذلك في يد الاغراب أيضاً . أما الأهالي فأغلبهم يعيش من مهنة التطويق أو التظاهر بالشعار الديني ولا تروج تجارتهم الا زمن الحج وما يأتيهم فيه من رزق يعيشون منه طول عامهم غير أن

كثيرا منهم يرحون مكة بعد الموسم الى الجهات التي بها اناس ممن سبقت معرفتهم بهم في الحج فيفدون عليهم ببعض الهدايا ويعودون وقد أخذوا أضعاف ثمنها منهم . والنقود التي تستعمل في مكة هي النقود التركية والمصرية فضية أو ذهبية والريال الشينكو وأبو طيره والريال البرم (الجاوى) وهو على اشكال مختلفة والرية والجنيه الانجائزى والفرنساوي وليس لهذه النقود قيمة ثابتة هناك بل تراهم يستعملونها على الدوام في مصلحتهم فيأخذونها منك بأقل من قيمتها ويعطونها لك بأكثر مما تساوي وهذا عيب كبير من عيوب المعاملات !! وهل لأرباب الامر والنهي زيلونه قريبا ?? والريال ابو طيره هو اكثرها استعمالا عند الاعراب وقيمتهم عندهم كالريال الشينكو والمصرى ومما يناسب ذكره هنا انى أعطيت مرة قطعة من النقود ممسوحة قليلا الى طفل صغير اعرابى فردها الي قائلها هذه زلطاء ، فما كان الذ من سماع هذه الكلمة منه ! والاعراب لا يعرفون قيمة كل هذه النقود فاذا وجد معهم شيء منها يتوجهون به الى التاجر ويقولون له «سو بهذه من الصنف الفلانى على امانتك» ولاتهمهم جودة الصنف بل تهمهم الكثرة منه . واسواق مكة كثيرة منها سوق الشامية فى شمال الحرم وهو اشبه شيء بالاسواق التركية له سقف من الخشب على مثال الخان الحليلى بمصر الا ان شوارعه أضيق فيضيق بالمارين خصوصا عند مرور الجمال . والسوق الصغير وهو تجاه باب ابراهيم واغلب ما فيه للغذاء كالخبز واللحوم والبقول الجافة والخضر التي يؤتى بها من الاودية المحيطة بمكة كوادى فاطمة شمالا ووادى الليمون شرقا ووادى العبيدية والحسينية جنوبا ومنها ما يؤتى به مع الفاكة من جبة الطائف وجبال كرا . وترى فى هذا السوق دكاكين كثيرة يبيعون فيها الاسماك المقلية التي يؤتى بها من جدة وهي فى الغالب مضرة جدا بالصحة لتعقتها من الحرارة وطول زمن النقل . وفى شرق المسجد سوق الليل وهو سوق كبير مختلط فيه جميع احتياجات الحاج . وفى جميع هذه الاسواق ترى مدة الموسم حركة لا تنقطع يأتى من ورائها ربح عظيم . ومدار حركة الاشغال الشاقة فى مكة على العبيد فمنهم الحمالون والحطابون والحماريون والجمالون والسقاة ون والخدامون ولقد كان للريق بمكة سوق كبيرة أخذ امرها ينمحي شيئا فشيئا حتى كاد لا يكون له أثر بالمرة

وبهذه المناسبة اقول ان ما يصرفه الحجاج بمكة ليس بالشيء الذي يستهان به لانا اذا فرضنا ان متوسط عددهم يبلغ سنوياً مائتي الف نفس وان متوسط ما يصرفه الواحد منهم مدة اقامته بمكة خمس جنيهات فيكون مجموع ما يصرفه الحجاج في مكة على أقل تقدير مليوناً من الجنيهات في نحو شهر من الزمان في أجرة مسكن وبعض المأكل وأجرة مطوف وزمزمي وبعض هدايا يشتريها لذويه واهليه . ومع هذا كله فان بعض اهالى مكة فى الغالب لا ينظرون الى الحاج (بقطع النظر عن كونه ضيف الله وفي بلده الحرام) بالعين التى يجب عليهم ان ينظروه بها وعلى الاقل من الجهة الاقتصادية التى هى مصدر حياتهم وهم مع احتقارهم له يسيئون معاملته وبرون فى ماله كلاً مباحاً لهم ويقولون فى ذلك الاحاديث التى لا يخرج معناها عن قولهم « الحاج رزق لأهل الحرمين ورزق الحاج على الله » ولعل هذه المعاملة السيئة كانت فى ذلك الزمن السيئ زمن الاستبداد الذى كان المطوفون فيه يوقفون اغنياء الحجاج فى سوق المزايده حتى يرسو أمرهم على أيهم يتولى شؤونهم كما حصل لبعض سراة المصريين فى سنة ١٩٠٧ فلا حول ولا قوة الا بالله !!

وجو مكة كثير الحرارة قليل الامطار ومع ذلك فقد تحصل فيه سيول كثيرة من الامطار التى تنزل بكثرة فى الجبال العالية المحيطة بالطائف . وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمل فى شمال مكة قناطر لحجز مياه هذه السيول عن المدينة وانصرفها الى الجهة الشرقية نحو المسفلة ومنها تسير الى خزان كبير فى الجهة الجنوبية يسمونه بركة ماجن وتستعمل هناك للاعمال الزراعية وكثيراً ما كانت لهذه السيول اضرار جسيمة بمكة ومبانيها .

واهاؤها تختلف فى هبوبها جملة مرات فى الساعة الواحدة ولذلك يقول أهل مكة « ان الله خلق سبعين هواء جعل منها فى مكة تسعا وستين وفى العالم كله هواء واحداً » وذلك لان الهواء يدور فى جو المدينة بين جبالها كما تدور الدوامة على سطح الماء فبينا تراه يدخل الى المساكن من المنافذ الغربية اذا به انقطع عنها ودخل من الشرقية أو الشمالية أو الجنوبية وهكذا ولذلك تجد مساكنهم كثيرة التوافد وغالبها

الى الجهات الاربع حتى لا نحرم من الهواء من أى جهة كان والهواء البحرى عنهم وهو الغربى احسنها وألطفها لانه يأتى من جهة البحر ثم هواء الشام ويسمونه الشمال والشمال أما الجنوبي والشرقى فهما حاران .

ويفسد هواء مكة في أيام الحج لكثرة الساكنين فيها وعدم العناية بنظافتها وتكثر فيها زمن الشتاء امراض الصدر ويندر فيها التدرن الرئوى وفي زمن الصيف تكثر الاحتقانات الدماغية وضربات الشمس وامراض العين والكبد والجهاز الهضمى والدوستاريا خصوصا بين الاطفال ويسببها عندهم أكل السمك العفن والفواكه غير الناضجة وفي زمن الحر تكثر فيهم الحيات لا سيما عند فساد مياه الشرب ويكثر فيهم مرض الجدري ويموت بسببه سنويا اكثر من اثنين في الالف ومما يجدر بنا ذكره ان الكوليرا لم تظهر في مكة الا سنة الف ومائتين وست واربعين هجرية أي في نحو سنة ١٨٢٥ ميلادية وفدت اليها مع حجاج الهند ولا تزال تفد اليها معهم . ولو كانت الحكومة تعتنى بشدة الحجاج على حجاج الهند والمجاوه في جزيرة قران قبل دخولهم الى جدة بزمن لا يمكنها الحيلولة بين حجاج بيت الله الحرام وبين هذا الداء الويل . والابوثة الكبيرة التي حصلت بمكة في زمن الحج وفنكت بالحجاج فتكا ذريما كانت في سنة ١٨٩٠ وسنة ١٨٩٢ وسنة ١٨٩٣ وسنة ١٨٩٥ . وعلى كل حال فالعناية بالمسائل الصحية بمكة قليلة جدا وليست فيها اسبتيالية ولا اجزخانة اللهم الا دكان عطارة بسيطة فيها من الادوية ما فسد غالبه واصبح ضرره اكبر من نفعه . وقد كان الجناب العالى الخديوى حفظه الله فكر في ايجاد اسبتياليه بها ورتب لها طبيا واجزاجيا فلم يتيسر لها القيام بمأموريتها واكتفى الحال مؤقتا بالخدم الصحية التي تقوم بها مأمورية الاوقاف الصحية زمن الحج ومقرها فيه يكون في التكية المصرية والحق يقال ان لها عملا يذكر فيشكر . ومصاريف هذه المأمورية يبلغ سنويا فوق السبعائة جنيه مصرى ومع هذا فاننا لا ننسى الخدم التي تقوم بها مأمورية المحمل المصرى الصحية لعامة الحجاج لا فرق بين مصرى وغيره .

وأهل مكة يشربون من ماء الآبار التي فيها مثل زمزم (وذلك قليل جدا) أو

التي في ضواحيها مثل الزاهر والعقلاني وغيرهما أو من الصهاريج التي تملأ من مياه المطر أو ماء الينابيع أو من عين زبيده التي يجرى ماؤها الى المدينة في قنوات تحت الارض لها خزانات في شوارعها تسمى البازان يملأ منها السقاءون قربهم وهذه العين لها أهمية عظيمة جدا وهي من أجل الآثار التي تنسب الى السيدة زبيده زوج هارون الرشيد رضي الله عنهما . وكان السبب في انشائها أن هذه السيدة البارة رأت في حجبها ما كان ينال اهل مكة وحجاج بيت الله الحرام من العناء الشديد والاهوال الكثيرة لقلة الماء في تلك الأنحاء فأمرت رحمة الله باجراء الماء الى ام القرى من عين حنين التي توجد فيما وراء عرفة الى جهة الشمال على مسافة نحو خمسة وثلاثين كيلومترا من مكة وهذه العين تخرج من جبال طاد وتسير في وادي حنين (الذي حصلت فيه في السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكة تلك الواقعة المشهورة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين من هوازن وثميف وثبت فيها رسول الله عليه الصلاة والسلام ثباتا عظيما كما ابتلى المسلمون فيها بلاء حسنا وفيها قتل دريد بن الصمة من أكبر رجال الجاهلية المشهورين قتله رجل من المسلمين يسمى ربيعة ابن رفيع السلمى) .

وقد اهتمت زبيدة بهذا العمل الجليل اهتماما كبيرا وأرسلت اليه العمال من جميع الاطراف فبنوا لهذا الماء مجرى عظيما وأوصلوا به مجرى آخر من وادي النعمان من الماء الذي ينزل اليه من جبال كرى التي تبعد عن عرفات شرقا الى الجنوب بنحو عشرة كيلو مترات وسيروا اليه سبع قنوات اخرى من الجهات التي تسقط اليها السيول حتى تساعد ماء المجرى الاصلى الذي وصل الى جنوب منى وتقر له هناك بئر كبير في الصخر يصب فيه يسمى بئر زبيده . ومن هذا المجرى امتد فرعان واحد الى عرفات والآخر الى مسجد نمره يسير الماء فيهما زمن الحج ولم يعرف الناس قيمة هذه العين المباركة الا فيما بين سنة ٩٣٠ وسنة ٩٧٠ فانها أهل أمرها في هذه الآونة فطم مجراها وتهدم بنائها وسدت منافذها وانقطع ماؤها ونال الناس من الاهوال شئ ما كان يخطر على البال وقد بلغ ثمن رزق الماء (قربة صغيرة تسع ٣ لترا تقريبا) في عرفة في غضون هذه المدة ليرة ذهبية . وسبب اهمال هذه العين في هذه المدة أن ملوك مصر هم الذين

كانوا يعتنون بها ويقومون بعمارتها في الغالب فلما تغيرت الاحوال ودخلت مصر مع أرض الحجاز سنة ٩٢٣ ضمن أملاك الدولة العلية التي كانت تشغل كل وقتها كثرة حروبها الخارجية أهملت الدولة ترتيبها لداخلية حكومتها خصوصاً ما كان بعيداً عنها ، ولكن أهل الحرمين الشريفين قاموا في سنة ٩٦٩ واثمتموا من السلطان سليمان اصلاح العين المذكورة وهناك رجعة كريمته صاحبة السمر الموكانى مرمره سلطان أن يشرفها باجراء هذا العمل المبرور من مالها الخاص وعينت مديراً للقيام بهذه المهمة وسلته الأموال اللازمة فسافر من وقته الى مكة وشكل مجلساً من أهل الرأى فيها وأمر بحفر القناة وتنظيف فروعها وبناء ماتهدم من مجراها ولما وصل الاصلاح الى بئر زيدة بنى أراد رحمه الله أن يسير به الى مكة فاضطر الى النزول في هذا الجبل الصخري على مسافة نحو خمسة وعشرين متراً من سطح الارض في مسافة طولها اكثر من كيلو متر ثم سيرها في حوض الجبل القبلى حتى أوصلها الى مكة سنة ٩٧٩ . وينقسم هذا المجرى من البياضية في باب المعلى الى أربع شعب تتخلل المدينة من جهة الى اخرى ومن ثم أخذت الدولة تقوم باصلاحها . ويبلغ عرض هذه القناة نحو متر وربع في ارتفاع نحو متر ونصف وتقرب وتبعد عن سطح الأرض على حسب ارتفاعها وانخفاضها ولها خزانات يملأ منها السقاءون ولكن يجدر بنا أن نلاحظ على بلدية مكة ان الفتحات التي في أعلى هذه العين من جهاتها المكشوفة يستعملها الناس في غسيل ملابسهم وخلافها مما لا ينطبق على القوانين الصحية ولا تسمح به الشريعة الفراء الاسلامية ! ! وهل يسمحون لي ان أقول لهم ان ذلك ولا شك العلة الوحيدة لكثير من الامراض التي تنتشى في مدينتهم وعليه فيجب أن تكون العناية بأمر هذه الفتحات كبيرة وأن يضرب على أيدي من يعيث بها أو سدها في وجوههم بالمره وهل فاتهم قول صاحب الشريعة الفراء (النظافة من الايمان)

وكان الشريف عون سير قناة من هذا الماء الى بستانه بجرول وأتى اليه بالاشجار ذات الثمار والازهار من اطراف المسكونة خصوصاً من الهند ومصر والاستانة وكان في مدة وجوده روضة من الجنان واصبح بعمده بلقماً ترزق فيه البوم والغربان سبحان

الواحد الاحد يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء !!
وفضل ماء زبيده يسير الي المسفله حتى يصب في بركة تسمى بركة ماجن وهناك
يستعمل في سقى بعض البساتين والمزروعات التي لبعض الاشراف .

هذا وأرجو قبل قفل باب الكلام على مكة ان يسمح لي حضرة القارئ بكلمة
أسوقها اليه . ذلك انى زرت القدس الشريف فرأيت به لكل جنس من اجناس
النصارى واليهود على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم من الاديرة والتكايا ومنازل الضيافة
شيئاً كثيراً جداً تمهدت فيها سبل الراحة والحياة للناس اجمعين . فالفقير يجد فيها مكاناً
مجاناً لمدة اسبوع على الاقل يرى نفسه فيها آكلاً شارباً نائماً ساكناً مخدوماً مشكوراً
من غير ما يتكلف لذلك قرشاً واحداً والغنى يجد فيها راحته في نظير اجر يدفعه يومياً
لا يزيد عن الاجر الذى يدفعه في لوكاندة بسيطة ، ومن الاغنياء من يتخذها له مسكناً
فقط ويتدارك أكله بنفسه . وهذه الاماكن (التي قامت بها شركات البر والاحسان
من الممالك المختلفة على اختلاف جنسياتها ومذاهبها) كثيرة جداً واكثرها لليهود ثم
للروس ثم للاروام ثم للارمن ثم للانكاير والفرنساويين والالمان وقد اقام الالمان هناك
اخيراً داراً للضيافة وللصحة على جبل الزيتون صرفوا عليها اكثر من سبعين الف جنيه
وهي دار رحيية فسيحة شامخة البنيان وطيدة الاركان وضع في مدخل سلها تمثال
امبراطور وامبراطورة الالمان ، وافتتحت هذه الدار رسمياً بحضور ولي عهد المملكة
الالمانية البرنس أيتل في شهر ابريل الماضي (سنة ١٩١٠) . وعدا هذه الدور والاديرة
والملاجئ ترى كل جنس من الاجناس له في بيت المقدس الاستباليات العظيمة
المشيدة والمدارس الفاخرة بحيث تكاد ترى بجوار كل بيت من بيوت المدينة مدرسة:
هذه للالمان وتلك للانجليز وغيرها للروس وخلافها للفرنساويين وسواها لليهود بل لكل
فرقة من هذه الامم مدارس مخصوصة للبنات والبنين على احسن طراز جديد ، والتعليم
فيها على احسن بروجرام كافل لحياة المتعلمين . اللهم ان هذه هي الحياة الصحيحة وهذا
هو الوجود بكامل معانيه : وهل لاخواننا المسلمين في جميع اقطار المسكونة ان يقدموا
بعمل مثل هذا بمكة ينتفع به حجاج المسلمين ولهم من مساعدة الحكومة العثمانية

ما يصلهم الى هذه الغاية الجليلة التي تكون من ورائها راحة حجاج بيت الله الكريم??
وياجزدا اذا كان المبلغ الذي جمع من السادة المصريين على ذمة اقامة تذكارات لحج
الجناب العالي الخديوي يقام به دار للضيافة بمكة لفقراء حجاج بيت الله الحرام عموماً
والمصريين منهم خصوصاً وتقوم مصلحة الاوقاف بما يقصر عنه هذا الاكتاب في
هذا السيل الخيري والله الموفق للصواب

تاريخ مكة

يصعد تاريخ مكة الى سيدنا ابراهيم الخليل صلوات الله عليه ففي سنة ١٨٩٢
قبل المسيح امره الله بالهجرة بولده اسماعيل وامه هاجر (كما ورد في التوراة) فذهب
بهما الى هذا الوادي الذي لم يسكنه أحد لعدم توفر الماء فيه اللهم الا أولئك العماليق
الذين كانوا يسكنون غالباً في الوادي الواقع شماله ويقال له الحجون ، وهم قوم نزحوا
الى هذا المكان من جهة البحرين وكان ملكهم فيها يمتد الى بحيث جزيرة سينا .
والباليون يسمونهم « ماليق » فأضاف عليها العبرانيون لفظ عم (يعني امه) فصارت
« عم ماليق » فحرفها العرب الى عماليق والمصريون يسمونهم الهكسوس أى الرعاة .
فلما عثرت هاجر على بئر زمزم التي أصبحت حياة جديدة لهذا الوادي نزلوا اليها
وسألوها الاقامة معها على ان يكون الامر لها ولولدها فقبلت ذلك وكانت قد ابنت لها
بيتاً تأوي اليه مع ولدها وكان ابراهيم يتردد لزيارتها من فلسطين فأمره الله تعالى بتطهير
هذا البيت وجعله مصلى للناس قال تعالى « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا
من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين
والركع السجود » ثم امرها الله برفع قواعد « واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت
واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا

أمة مسلمة لك وارثا منا سكننا وتب علينا اذك انت التواب الرحيم « هنالك هدم ابراهيم ذلك البيت الذي كانت بنته هاجر ورفع مع اسماعيل على قواعده الكعبة المكرمة ثم أمره الله بان يؤذن في الناس بالحج « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » ومن ثم ابتدأت شهرة ذلك البيت العظيم تزداد في القبائل المجاورة ومنه أتى لفظ مكة أو مكا وهي كلمة بابلية سمته بها العماليق ومعناها (البيت) ورجع ابراهيم الى قومه وبقي اسماعيل في خدمة البيت حتى مات فتولى خدمته من بعده بنوه الى ان داخلهم الضعف وتغلب العماليق عليهم فصار أمر البيت اليهم وما زالت السلطة في يدهم حتي وفدت جرهم على مكة من طريق اليمن بعد قطع سد مأرب في نحو منتصف القرن السادس قبل الميلاد فزاحوهم وغلبوهم على أمرهم وصارت لهم الكلمة والسلطان على مكة بل وفي الحجاز باكله وكان عليهم مضاض بن الحارث فلما كبر سلطانهم وعظمت شوكتهم عثوا في الارض فسادا فوقع فيهم وباء نال منهم فضعف أمرهم وتغلب عليهم بنو اسماعيل واستردوا أمر البيت منهم وطردهم من مكة فساروا الي ارض جيبنة (شمالى ينبع) وفي ذلك يقول شيخهم عمرو بن الحارث .

وكنا ولادة البيت من عهد ثابت نطوف بذلك البيت والامر ظاهر
كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا أهلها فابادنا صرفو اليبالى والجدود العواتر

وما كادت تفحصر السلطة في بنى اسماعيل حتى أتت خزاعة وتغلبت عليهم ووليت أمر البيت من سدانة وسقاية زمنا طويلا بما كان لها من العصية رغما عما كان في بنى اسماعيل من الرقى الادبى والسمو النفسانى فانه كثير ما كان ينبع فيهم رجال يرهنون بحسن معرفتهم وكمال فضلهم على ذكاء اصلهم وكريم محبتهم مثل كعب بن لؤي الذي اشتهر بيلاعته وفصاحته وهو أول من جمع الناس في يوم العروبة وهو يوم الجمعة وكان يخطبهم فيه بما يرشدهم به الى طريق الفضائل ويعددهم عن ارتكاب الرذائل وقد اشتهر أمره بين العرب وعظم قدره فيهم حتي كانوا يؤرخون بعام موته الي عام الفيل وهو زمن لا يقل عن اربعمائة سنة .

وما زال أمر البيت في يد خزاعة حتى رجع قصي بن كلاب من الشام وكان ذهب اليها مع أمه صغيراً، وهو من احفاد كعب والبطن الرابع والعشرون من اسماعيل فجمع قبائل قريش بما كان فيه من حسن السياسة والدكاء وقوة العارضة بعد أن تفرقت وأخذت الشحاء تدب فيما بينهم وسعى باصالة رأيه حتى اشترى من خزاعة حجابة البيت ثم أجلاهم عن مكة بما وجد له من العصبية الى بطن مر (وادى فاطمة) ومن ثم كبر شأنه ونبه أمره وعظم سلطانه واجتمعت له السقاية والحجابة والرفادة واللواء ولم تجتمع في رجل قبله وهو أول من اطعم الحاج وسقاه لانه ضيف الله وجاره وبذلك سارت الركبان بسيرته وتحدث الناس بنبأهته وكان له رأى سديد وفكر رشيد وهو الذى بنى دار الندوة قرب البيت وجعل بابها اليه ليجتمع فيها مع قومه للبحث في شؤونهم والاقرار على ما يتم من أمرهم فأصبح به ملك قريش عظيماً وشأنهم جسيماً حتى كان لهم بعد ذلك خراج على القبائل والعشائر يؤدونه اليهم ويتقربون به لهم . وكان لقصي ولدان عبد الدار وعبد مناف وقد شرف الاخير على صغره وزاد فضله عن أخيه الاكبر فأوصى أبوه لعبد الدار بما كان في يده من السقاية والحجابة والرفادة واللواء والندوة حتى يتكافأ مع عبد مناف في شرفه الذى وصل اليه بعقله وفضله .

ولما مات قصي استولى عبد الدار على ما أوصى له به أبوه وانتقل ذلك الى بنيه من بعده حتى ظهر بنو عبد مناف عليهم ونازعوهم ما في أيديهم وكادت تدور رحى الحرب بينهم وانتهى الأمر بتحكيم بعض القبائل فقسّموا بينهم شرف هذه الامتيازات فكان لبني عبد مناف السقاية والرفادة ولبنى عبد الدار الحجابة واللواء اللذان ما زالوا ينتقلان في بني عبد الدار الى فتح مكة فأخذ منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مفاتيح الكعبة وكانت مع عثمان بن طلحة ودخل البيت فانزل الله تعالى (ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها) فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه قائلاً « هاكم خذوها خالدة تالدة » وعند موت طلحة سلمها الى أخيه شيبة فبقيت في بنيه الى الآن .

أما بنو عبد مناف فقد علا أمرهم وعظم شأنهم خصوصاً في مدة عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف جد النبي صلى الله عليه وسلم فقد كبر سلطانه بعد واقعة الفيل

وذاعت شهرته وهابته القبائل وقصدته العرب من جميع جهات الجزيرة . ولما ظهرت نبوة سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب وتجلى الاسلام بمظهره المنيع وتقدم بتقديمه السريع لكل لبني عبد مناف فضلهم وتم بهذا الشرف سعودهم .
ومن أكبر الحوادث التاريخية بمكة هجرته صلى الله عليه وسلم منها الى المدينة وفتحها لها بعد ثمان سنين من الهجرة ومن ثم صارت مكة تابعة له ولخلفائه من بعده . وكانت حكومة الاسلام في مدته عليه الصلاة والسلام ديمقراطية شورية على حسب الشريعة الغراء . وكذلك في عهد خلفائه الراشدين حتى انتقضت الخلافة الى مظاهر الملك فشاها شيء من الاستبداد .

وكانت حكومة الحرمين تتبع في جميع أدوار حياتها مركز الخلافة الاسلامية . وأول من تولى امانة مكة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد رضي الله عنه وولاه عليها رسول الله صلوات الله عليه بعد الفتح عند خروجه لواقعة حنين في الثالث الاول من سنة ٨ للهجرة وانتقلت الخلافة بعد الخلفاء الراشدين الى الامويين وفي ابانها استولى عبد الله بن الزبير على مكة بضع سنين حتى استردها منه الحجاج بن يوسف الثقفي الى الأمويين ثم انتقلت للعباسيين وما زالت في أيديهم الى سنة ٣٥٨ وتولى أمرها في هذه المدة نحو مائة أمير من اشراف وغير اشراف . وفي هذه السنة انتقل حكمها الى الفاطميين وفيها دخل جوهر القائد مكة ثم دخلها مولاه المعز لدين الله العبيدي فكانت البلاد الاسلامية من بغداد الى حلب الى البصرة يخطب فيها للخليفة العباسي ومن حلب الى الحرمين وسائر بلاد العرب يخطب فيها للعبيديين : ذلك لأن جعفر ابن محمد بن الحسن بن الناصر بن موسى الثاني بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي أمير المؤمنين كرم الله وجهه تغلب على مكة وخاف من العباسيين فدعا للمعز لدين الله العبيدي صاحب مصر فكتب له المعز بولاية مكة وبه ابتدأت حكومة الأشراف الحسينيين عليها ، فلما ولي صلاح الدين الايوبي ودعا للعباسيين ولي امانة مكة الشريف مكث بن عيسى باسم الناصر العباسي . وفي سنة ٦١٩ زحف علي مكة صاحب اليمن الملك المسعود ابن الملك الكامل صاحب

مصر واستولى عليها باسم أبيه وجعل أمرها لثور الدين بن عمر . وفي سنة ٦٢٦ مات الملك المسعود فولى مملكة اليمن نور الدين المذكور مبايعة ولقب نفسه بالملك المنصور ومن ثم أخذت مكة تتداول بين حكومة مصر وحكومة اليمن الى اواخر سنة ٦٧٠ فاستولى عليها الملك الكامل وولى أمرها الشريف راجح ابن قتادة . وكان يدعى للملك الكامل ملك مصر في خطبة الحرمين هكذا « صاحب مكة وعبيدها واليمن وزبيدها ومصر وصعيدها والشام وصناديدها والجزيرة ووليدها سلطان القبلتين ورب العلامتين وخدام الحرمين الشريفين المحترمين الملك الكامل خليل أمير المؤمنين » .

ولما توفى الملك الكامل أخذ ملك اليمن يتطلع الى الاستيلاء على الحرمين وصار يلقي بذور الشقاق بين الاشراف وبعضهم فكبرت الفتنة نجا بينهم حتى بلغ من خوف الناس منها انه لم يجمع أحد في سنة ٦٥٢ وصار بعض الأشراف المنتهين لملك اليمن اذا استولوا على مكة يخطبون لصاحب اليمن واذا قامت قائمة الطرف الاخر يخطب لصاحب مصر حتى استولى الشريف أبو نعيم عليها سنة ٦٦٧ فخطب للسلطان يبرس ملك مصر الذى حجب في هذه السنة .

واستمرت حكومة الحرمين تابعة لملك مصر حتى دخل مصر السلطان سليم الثانى بعد انتصاره على ملكها السلطان الغورى الذى مات تحت سنابك الخيل في واقعة مرج دابق بالشام يوم الجمعة غرة محرم الحرام سنة ٩٢٣ ومن ثم دخلت حكومة الحجاز مع حكومة مصر تحت حكم الدولة العلية وهناك كتب السلطان سليم الى الشريف بركات الذى كان عاملا للغورى على الحرمين فرمانا بولايته عليهما نيابة عنه واستمرت ولاية الحجاز فى يد بني عثمان الى أن استولى عليها محمد علي باشا والي مصر من سنة ١٢٢٧ الى سنة ١٢٥٦ وفيها قررت الدول العظام اخراج أمرها من يده الى السلطان عبد المجيد خان وجعلت له فى نظير ذلك امتياز ولاية مصر فى أولاده من بعده . وكان محمد علي اصدر أمره بتعيين الشريف محمد بن عون جد هذه العائلة الحاكمة الآن على امارة مكة بدل الشريف يحيى الذى فر منها بعد قتله للشريف شبر فى ٢٢ شعبان سنة ١٢٤٢ على باب الصفا واستمر ابن عون فى الامارة بما عهد فيه

من حسن الادارة وكمال الدراية تابعا للحكومة مصر الى أن تحلى محمد علي عنها فأرسل السلطان عبد المجيد فرمانا باستمرار الشريف محمد بن عون على اماره مكة وهي باقية في بنيه الى يومنا هذا . والمتولى امارتها منهم الآن هو حضرة صاحب السيادة والدولة الوزير الخطير الشريف حسين جعل الله أيامه أيام خير وبركة على الحجاز بل وعلى جزيرة العرب بتمامها .

ولمحمد علي في هذه البلاد آثار جديرة بالذکر وخليقة بالشكر منها بناء التكية المصرية بمكة وترتيب ما يلزم لها من النفقات وبناء الدار التي يسكنها دولة الشريف وفيها مركز الامارة الجميلة وهي التي نزل بها سمو افندينا الخديوي عباس حلمي باشا الثاني الاخفم في حجه . وهو الذي محأ أثر الوهابيين الذين تقوت شوكتهم وعلت سطوتهم في هاتيك البلاد واستولوا على جزيرة العرب في زمن قصير وكاد سلطانهم يتجاوزها الى غيرها فقيمتهم الدولة العلية وخافت علي كيانها منهم فكتبت الى محمد علي باشا فسير اليهم جنوده واسترد منهم البلاد بعد ان حاربهم وواقع بهم . وانا تمجيا للفائدة نذكر لك ذلك مفصلا في كلمتين :

في سنة ١١٤٢ ظهر رجل من عرب بادية نجد اسمه محمد بن عبد الوهاب تلقى العلم في مكة على بعض شيوخها وأخذ يذيع عقيدة جديدة في الدين الاسلامي تجاوز فيها الحد الذي ذهب اليه الامام احمد بن حنبل بل تفالى في بعض الامور غلوا كبيرا وأخذ يمر على احياء العرب حيا بعد حي يذيع فيهم عقيدته حتى اتبعه كثير من الناس وما زال يزداد مريدوه ويكثر تابعوه حتى قوى أمره وخافته البادية . ولما قربت اشهر الحج ارسل الي الشريف مكة الشريف مسعود بن سعيد بن سعد بن زيد عشرين من رجاله ليعرضوا عليه مذهبه وليستأذنوا له في حج بيت الله الكريم فأمر بالقبض عليهم وسجنهم وحكم بكفرهم ففر منهم نفر الى الدرعية مقر الوهابي وأخبروه بما حصل فاستمر مع قومه ممنوعين عن الحج الى سنة ١٢٠٥ وكان الشريف مسعود توفي وتولى اماره مكة بدله الشريف غالب فاستأذنه في الحج فأبى فقامت لذلك الحرب بينهم ورغمما عن موت محمد بن عبيد الوهاب في سنة ١٢٠٧ فان الحرب ما زالت

رحاها دائرة الى سنة ١٢١٣ حصل في اثنا عشر سنة واقعة كانت الحرب فيها سجلا الا في الاخيرة التي تسمى غزوة الخزرة فقد كان فيها للوهايين النصر المبين وفيها تم الصلح بين الشريف غالب وعبد العزيز بن محمد بن سعود أمير الدرعية (الذي كان يقوم بنصرة الوهابي رغبة في اتساع ملكه حتي ضخم وكاد يستولى على اطراف جزيرة العرب بتمامها) وحدد كل منهما منطقة نفوذه وسمح الشريف للوهايين بالحج في سنة ١٢١٤ فحج سعود بن عبدالعزيز ومعه خلق كثير وحج أيضا في سنة ١٢١٥ في عدد عظيم من قومه غير أنه حدثت في هذه السنة منافرة بين عربان الشريف وقوم سعود ادت الي استئناف الحرب فحصل بينه وبين رجال الشريف ثلاث عشرة موقعة استولى في الاخيرة علي الطائف وذلك في سنة ١٢١٧ وبعد ان تفرق الحجيج في تلك السنة خافه الشريف غالب ففر الى جدة مع واليا شريف باشا وبقي الناس في مكة لا يقر لهم قرار من الخوف فمئذ ذلك قام الشريف عبد المعين بن مساعد وارسل كتابا الي سعود يطلب منه امانا لجيران بيت الله الحرام على ان يطيعوه ويكون هو عامله علي مكة وارسل رسلا من افاضل اشراف مكة وعلمائها واجتمعوا بسعود في وادي السيل (علي مرحلتين من مكة) وعاهدوه علي الطاعة فكتب امانا لهم في وريقة صغيرة هذه صورته « بسم الله الرحمن الرحيم من سعود بن عبد العزيز الي كافة أهل مكة والعلماء والاعوان وقاضي السلطان السلام علي من اتبع الهدى أما بعد فانتم جيران الله وسكان حرمة آمنون بأمنه انما ندعوكم لدين الله ورسوله . يا أهل الكتاب تعالوا الي كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون . فاتم في وجه الله ووجه أمير المسلمين سعود بن عبد العزيز وأميركم عبد المعين بن مساعد فاسمعوا له واطيعوا ما اطاع الله ورسوله والسلام » وارسل هذا الامان اليهم في يوم الجمعة سابع محرم سنة ١٢١٨ فصعد مفتي المالكية علي المنبر وتلاه علي رؤوس الاشهاد وقابله الناس بالطاعة . وفي اليوم الثاني دخل سعود مكة محرما فطاف وسعى ونحر نحو مائة من الابل ثم صعد الي بستان الشريف الذي في المحصب . وفي ثاني يوم نزل وصعد الي أعلى الصفا

وخطب في الناس وتجددت له البيعة . وفي اليوم التالي أمر بهدم القباب التي في المعلى بما فيها قبة السيدة خديجة ثم هدم قبة مولد النبي صلى الله عليه وسلم ومولد أبي بكر وعلى رضوان الله عليهما ثم أمر بمنع المؤذنين من الدعاء بعد الأذان وبعد تكرار صلاة الجماعة في المسجد الحرام فكان يصلى الصبح الشافعي والظهر المالكي والمصر الحنبلي والمغرب الحنفي وكانت العشاء لجميعهم . ثم ارتحل سعود عن مكة بعد ان اقام بها اربعة عشر يوما وسار بجنوده الى جدة طالبا الشريف غالبا وحاصرها اياما فلم يتيسر له أخذها لحصانة سورها وقوة مدافعها التي نالت من رجاله كثيرا ثم ارتحل الى الشرق فعاد الشريف غالب الى مكة في أواخر شهر ربيع الاول ودخلها ظافرا ولم يعارضه الشريف عبد المعين وأخذت تفد اليه رؤساء القبائل المحالفة واستمر في محاربة الوهابيين الى شهر القعدة سنة ١٢٢٠ وفيه انعقد الصلح بينه وبينهم على دخولهم مكة لاداء مناسك الحج ثم يعودون الى بلادهم . وكان الشريف غالب لما رأى ما حل بقومه من الضعف يمالئ الوهابيين ويتظاهر لهم بما يوافق مذهبهم فكان يأمر بهدم بعض ما بقي من قباب الصالحين بمكة وجدة وباختصار المؤذنين على الاذان دون السلام وغير ذلك من الامور التي توافق مذهب الوهابية فاطمان لذلك خاطرهم وقتلوا راجعين الى بلادهم مبشرين باتباع الشريف لمذهبهم .

وفي سنة ١٢٢١ رجع المحمل الشامى من هدية من غير حج لانه لم يقبل شروط سعود الذى احرق المحمل المصرى في مكة وأمر فنودى بان لا يأتى في العام القابل للحج من يكون حليق الذقن ومن ثم انتقطع المحملان عن الذهاب الى مكة . وفي هذه السنة أخذ سعود جميع المجوهرات التي في الحجره الشريفه النبويه وكانت لا يقدر لها ثمن وطرد قاضى مكة والمدينة وكانا من طرف الدولة العلية . فلما بلغ السلطان محمود كل هذا ارسل الى محمد على بان يسير جيوشه لقتال الوهابى فلم يتيسر له تلبية هذا الامر في وقته لانه منذ تولى علي مصر في سنة ١٢٢٠ وهو يصل الليل بالنهار في ترتيب داخليتها وتنظيم ماليتها وتقوية حريتها ولما توالى عليه الاوامر السلطانية بذلك جهز أول حملة وارسلها الى ينبع تحت امرة ولده طوسون باشا في رمضان سنة ١٢٢٦

فملكوها وما بعدها الى الصفراء بلاصعوبة وهناك حصلت موقعة بينهم وبين عثمان المضايقي حاكم الطائف من قبل سعود وكان معه من الوهابيين عدد لا يحصى فانهزم الجيش المصرى وتشتت شمله في هذه القفار وسار طوسون الى القصير وبقى فيها منتظرا ورود أوامر والده له .

وفي محرم سنة ١٢٢٧ جيز محمد على جيشا وارسله بجرا الى ينبع وأمر طوسون باشا بالذهاب اليها للمحافظة عليها وجيز في شهر صفر جيشا آخر وارسله من طريق البرنحت قيادة صالح أغا السلحدار نم أخذ يوالى ارسال الجنود والذخائر برا وبحرا حتي اجتمع في ينبع قوة كبيرة فكاتبوا الشريف غالبا يسترشدون برأيه وصاروا يعملون بتدييره ثم ارسلوا الى مشايخ حرب فجاءوهم فأحسنوا استقبالهم وأهلوا عليهم الخلع والاموال فساروا في خدمتهم حتى دخلوا المدينة المنورة في شهر القعدة واخرجوا من كان فيها من الوهابيين وسارت فرقة من الجنود التي في ينبع الى جدة من طريق البحر فدخلوها من غير ممانعة فلما علم بذلك عسكر الوهابي الذين بمكة خرجوا منها وتركوا قلاعها خاوية ثم سارت فرقة من الجنود المصرية من جدة الى مكة فقا بلهم الشريف غالب بالاكرام التام ودخلوا مكة واحتلوا قلاعها ولما بلغ ذلك عسكر الوهابي الذين بالطائف تركوه وساروا الى الدرعية ولما وصلت البشائر الى مصر باستيلاء العساكر المصرية على المدينة المنورة وجدة ومكة أمر محمد علي باشا بتزيين القاهرة خمسة أيام وأرسل بشرا الى الحضرة السلطانية بهذا الفتح المبين فكان لذلك يوم مشهود في الالاستانة .

وفي شهر ربيع الثاني سنة ١٢٢٨ مائة، سعود بالدرعية وتولى ابنه عبد الله . وفي ١٤ شوال سنة ١٢٢٨ سار محمد علي باشا من مصر قاصدا الحجاز فوصل الى جدة في أواخره وكان الشريف غالب حضر لاستقباله فيها . وما استقر بها محمد علي حتى أتته رسل من عند بن سعود بطلب الصلح فاشتراط محمد علي ان يدفع له بن سعود جميع المصاريف التي صرفت على العساكر من أول الحرب الى ذلك اليوم وأن يأتي هو لامضاء هذا الصلح بنفسه وفي اليوم التالي استعرض عسكره أمام هؤلاء الرسل فأدهشتهم حركاتهم ونظامهم . وسار محمد علي الى مكة وفي خدمته الشريف غالب ونزل في بيت

القرطسى ونزل طوسون باشا فى بيت السقاف بالشامية وكان كل من محمد على والشريف غالب على حذر من بعضهما فأراد محمد على أن يخلو له الجو فأمر ولده طوسون باشا بالقبض على الشريف غالب وأولاده وكان ذلك فى اواخر القعدة سنة ٢٨ وولى بدله الشريف محبى بن سرور اماره مكة ثم أرسل الشريف غالبا وأولاده الى جدة مع فرقة من العساكر ومنها الى مصر عن طريق القصير فوصل القاهرة فى ١٧ محرم سنة ١٢٢٩ وقوبل فيها بالاجلال والاحترام وبقى فيها الى ١٩ شعبان حيث سافر مع أولاده حسب الارادة السلطانية الى سلانيك وأقام بها الى أن توفاه الله فى سنة ١٢٣١ وفيها عادت أولاده الى مكة بتمتضى ارادة سلطانية وكانت مدة امارته سبعة وعشرين سنة .

أما محمد على فقد كانت مدة اقامته بمكة يرتب أمورها ويفرز بمجنوده كل قبيلة بنذت طاعته أو تقضت عهده و بعد أن حج سنة ١٢٢٩ توجه بعسكره الى الطائف ووقع بينه وبين الوهابيين فى افتتاح سنة ١٢٣٠ جملة وقائع ملك بعدها تربة وريثة ويثشة وعسير وكان كل جهة يملكها ينظم شؤونها ويعين عليها أميرا من عنده وما زال ينتقل من اماره الى اخرى فى جزيرة العرب حتى عاد الى مكة فى شهر جمادى الاولى فرتب بها مراتب الى كثير من الاشراف وغيرهم على حسب ما تقتضى به المصلحة العامة وهى باقية لا اولادهم الى الآن ثم رجع الى مصر بعد أن عين حسين باشا الارنوطى والياً على مكة وأقام ابنه طوسون باشا قومنداناً عاماً على القوة العسكرية التى بالحجاز . وفى شهر شعبان من هذه السنة عقد طوسون باشا صلحاً بينه وبين عبد الله بن سعود على أن يترك الحرب ويحتمن الدماء وأن يدعن الوهابى لحكومة الحجاز وأرسل وفداً من عليه قومه الى طوسون ليؤكدوا له هذا العهد فبعث بهم الى والده بمصر فلم يرق فى عينه هذا الصلح . واستمر طوسون باشا فى الحجاز الى ذى القعدة ثم رجع الى مصر بأمر من أياه فوصلها فى شهر ذى الحجة وعملت له زينة كبيرة وكان ولد له فى غيبته ولده عباس باشا الاول وما زال بمصر حتى توفى سنة ٣١ بالطاعون وعمره نحو عشرين سنة وفى محرم سنة ٣٢ أرسل محمد على ولده ابراهيم باشا الى الحجاز لمحو أثر الوهابيين فسار فى عسكر كثيف الى مكة ومنها الى الدرعية ولما وصل الى مكان يقال له مرنان

وقع بينه وبين الوهايين قتال شديد انتصر فيه عليهم واستولى بعد ذلك على مدينة الشقراء ثم سار الى الدرعية فحاصر فيها عبدالله بن سعود واستولى عليها بعد قتال شديد في ذى القعدة سنة ١٢٣٣ ، وقبض على عبد الله ابن سعود أمير الوهايين وعلى كثير من بنيه وأهليه وذويه وبعد ان جعل على مدينتهم سافها سبهم الى مصر . فلما أتت البشائر الى محمد على زين مصر زينة كبرى وأمر بإطلاق الف مدفع ، ويقال ان المدافع التي أطلقت أيام هذه الزينة بلغت ثمانين الف مدفع . ووصل ابن سعود ومن معه الى القاهرة في اوائل شهر المحرم سنة ١٣٢٤ فدخلوها في موكب عظيم وكان يوما مشهودا . وقابل محمد على ابن سعود ثاني يوم في سرايه بشيرا بصدر رحب وقدم اليه الوهابي صندوقا صغيرا فيه ما تبقي عنده من الجواهر التي أخذها أبوه من الحجر الشريفة النبوية ومن ذلك ثلاثة مصاحف مكللة بالجواهر الثمينة وثلثمائة حبة كبيرة من اللؤلؤ وقطعة كبيرة من الزمرد . وارسل عبد الله بن سعود الى الاستانة فطلبه على باب همايون . وعاد ابراهيم باشا الى مصر بعد أن حج سنة ١٢٣٤ وعملت له زينة كبيرة مدة سبعة أيام ومن ثم صارت بلاد العرب من أذناها الى اقصاها خاضعة لحكم محمد على . اما ما كان من أمر آل سعود فانهم اجتمعوا أمرهم لاسترجاع نجد الى حكمهم بعد ان هدم ابراهيم باشا دار ملكهم قتم لهم ذلك وكان الامير عليهم فيصل ابن تركي ولد عم عبدالله بن سعود ، فلما استفحل ملكه خافه محمد علي وسير اليه خورشيد باشا سنة ١٢٥٣ فاستولى على الدرعية بعد جملة وقائع حصلت بينه وبين الوهايين وقبض على فيصل في سنة ١٢٥٤ وارسله الى مصر ومعه كثير من آل سعود وولى الامارة بعده خالد ابن سعود فتار عليه عبد الله بن ثيان وانزعها من يده . فبلغ ذلك فيصلا بمصر وهو سجين بالقلعة وكانت له صلة بعباس باشا الاول فشكا اليه ما يلقاه من تغلب ابن ثيان على بلاده ووعدته ان هوخلصه من سجنه وصار له الحكم في قومه يصير من رجاله ومن رجال محمد على فساعده عباس باشا على الهرب . فسار فيصل حتي نزل على ابن الرشيد أمير شمر فاکرم وفادته وسار في بعض رجاله قاصدا بن ثيان وبلغ ذلك قومه فبادر اليه كثير منهم وحاصروا بن ثيان في القصيم وأخذته أسيرا وسجنه حتى مات في سجنه . واستولى

فوصل على نجد في سنة ١٢٥٨ واستقامت له الامور فيها الى ان توفي سنة ١٢٨٢ وتولى بعده بنوه وقد أخذ ملكهم يضعف ويقوى بضعفه ملك ابن الرشيد حتى استولى على نجد بتمامها ولما مات ابن الرشيد ضعف ملكه وأتى عبدالله بن سعود بن فيصل ونازع بنيه الملك واستولى على معظم ملكهم بمساعدة ابن صباح أمير الكويت ولولا انتصار الدولة لابن الرشيد لا كنتسح ملكهم بتمامه والملك لله وحده .

الحرم المكي

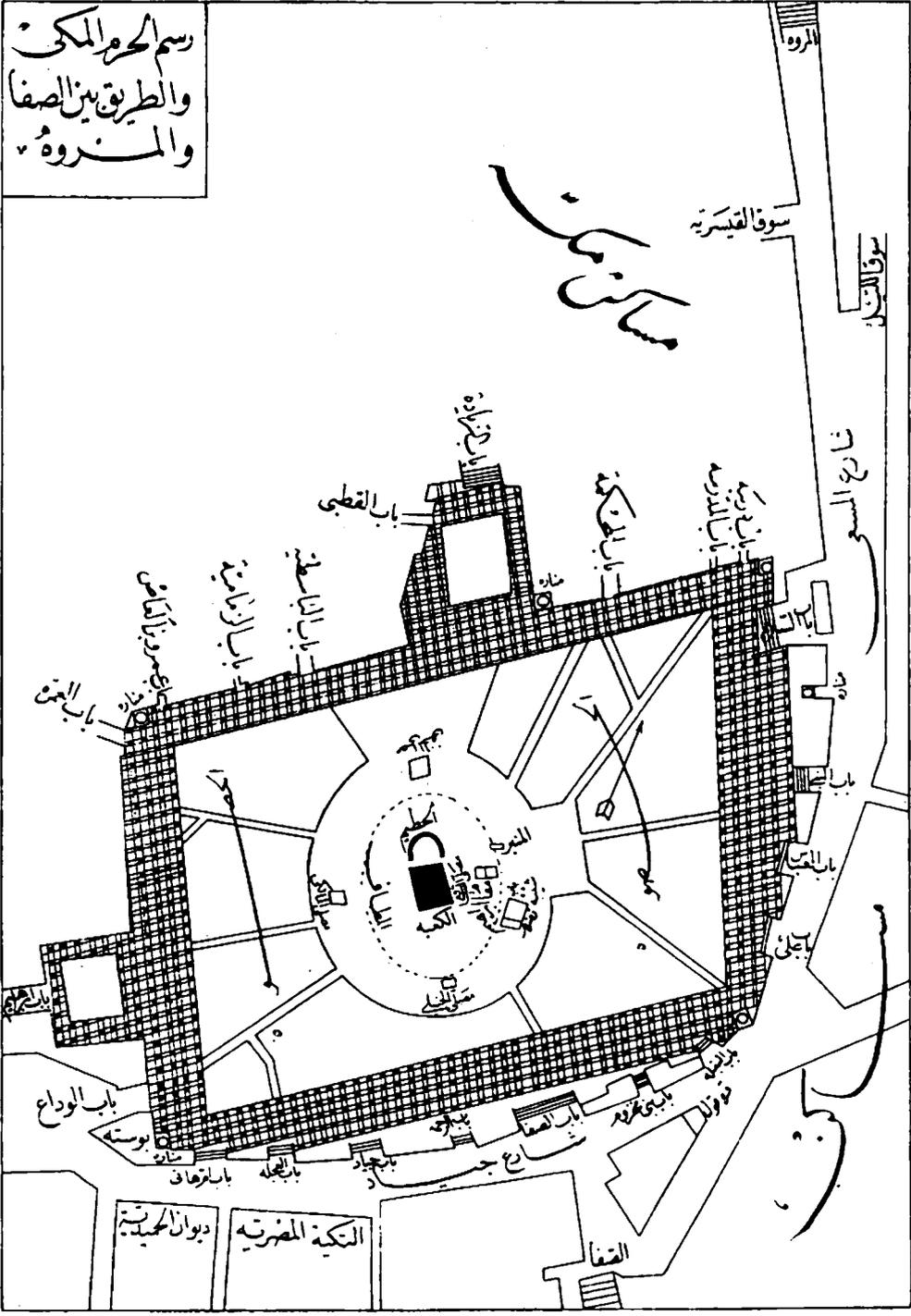
كان الحرم المكي في مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم على حدود المطاف الآن وهي حدوده القديمة من عهد ابراهيم عليه السلام فلما كثرت سواد المسلمين زاد فيه عمر وعثمان شيئاً مما اشترياه من الدور التي كانت حوله وزاد فيه عبد الله ابن الزبير عند ما بنى الكعبة واقام ما كان تهدم منه وكذلك زاد فيه الوليد بن عبد الملك وعمّره عمارة تذكر قدشكر وهو أول من نقل اليه اساطين الرخام . واهتمام الوليد بالعمارات لا ينكر يعرفه من شاهد قبة الصخرة بالقدس الشريف ورأى ما بقي فيها له من آثار الموزايك الذهبية وغيره من اعمال القيشاني التي تدهش العقل ويحار فيها الفكر ، ويوجد في المسجد الأموي بدمشق الى الآن من أثار عمارته به اعمال موزايك ذهبية بديعه جدا على حائطي الصحن الجنوبي والغربي .

ولما حج الخليفة محمد المهدي سنة مئة وستين رأى ان البيت ليس في وسط المسجد فاشترى كثيرا من البيوت خصوصا في الجهة الشرقية القبيلة وزادها في المسجد وادخل اليه كثيرا من الازورارات التي كانت فيه وكانت في ملكية الغير ثم أتى من بعده ابنه الهادي فأكمل ما نقص في مدة والده .

وكانت دار الندوة وسط الحرم نجاه الكعبة من الجهة الشمالية وكان ينزل بها

رسم الحرم المكي
والطريق بين الصفا
والمزودة

مسجد



الخلفاء والامراء في حجهم في صدر الاسلام ولكنها اهمل أمرها في منتصف القرن الثالث الهجري حتى أخذ يهدم بناؤها فكتب في ذلك الى الخليفة المعتضد العباسي فأمر بها فهدمت في سنة احدى وثمانين ومئتين وجعلت مسجدا يلتصق بالحرم الشريف ثم جعلوا فيها قبة عالية ولها قبة الى الكعبة ثم غير شكلها في ما بعد الى شكل آخر واستمرت مقاما يصلى فيه الامام الحنفي الى ان أتى الامير كلذى أمير جدة في سنة تسعمئة وسبع واربعين فهدمها وبنى المقام مر بها ذا طبقتين: الاولى للامام والمصلين والثانية للمؤذنين والمبلغين وهو على هذا الشكل الى الآن .

وفي سنة ثمانمئة واثنين احترق الرواق الشرقي فأمر الملك الناصر فرج بن برقوق ملك مصر بتعمير ما خرب منه ووضع بدل الاعمدة الرخام التي احترقت اعمدة من الحجر الشيشي ومن ثم كانت تقوم بعمارة الحرم ملوك مصر لاسيا العمارة التي قام بها السلطان قايتباي في سنة ست وثمانين وثمانمئة

وفي سنة تسع وسبعين وتسعمئة مال الرواق الشرقي في الحرم ميلا محسوسا فأمر السلطان سليم الثاني بعمارته وأمر بأن يرسل المعمارين والمهندسون والصناع من جميع الاصقاع فانزلوا سقفه جميعه واساطينه كلها وهدموا محيطه وبنوه على التربيع الباقي للآن واقاموا اعمدة الرخام بين اساطين حجرية متناسبة الوضع وبنوا عليها قبابا بدل السقوف التي كانت تطحنها يد الرطوبة المتخلفة من الامطار خلاف ما كان يكثر فيها من الحيوانات التي اشتهرت بعد اوتها للاخشاب كالارضة والسوس وغيرها من الحشرات المضرة ومات السلطان اثناء هذه العمارة وكان الذي انتهى منها الجانب الشرقي والجانب الشمالي فقط أعنى من باب علي الى باب العمرة فلما تولى ولده السلطان مراد خان أمر بتتيم العمارة على الوجه الذي كان قد أمر به والده فتمت على أحسن حال بالشكل الذي تراه الآن وليس لمن بعده من السلاطين الا عمارات ترميمية أو تكميلية . وقد نزلوا في هذه العمارة بارضية الشارع الموصل الى المسفلة بحيث صار يصرف ما عساه يدخل الى الحرم من مياه السيول التي كثيرا ما كانت سببا في تقض اركانه وهدم بنيانه . وكانت الزيادات التي تخلفت من الدور التي دخلت في تريع الحرم الشريف

في كل عماراته يبني بعضها مدارس وبعضها أروقة يسكن بها فقراء طلبة العلم في المسجد وكان لها أوقاف جمه ولكن كثيرا ما تغيرت أوقافها واستبدلت بغيرها أو خرجت من يد واقف الى يد غيره أقوى منه ومن ذلك مدرسة قايتباي التي لا تزال للآن على يسار الداخل من باب السلام فاتها بعد أن كانت مدرسة تدرس فيها علوم الدين ولها أوقاف بمصر تصرف غلاتها عليها ضعفت أوقافها شيئا فشيئا فقلوها من دار علم الى دار ضيافة كان ينزل اليها امراء الحاج المصري ثم صار يسكنها بعض عائلات الاشراف وهي في أيديهم الى الآن. ولا يزال المحملان المصري والشامي يوضعان أيام وجودهما بمكة لصق حائطها الذي من داخل الحرم وبجوارهما من الخدم ما يقوم بحراستها. وعلى يمين باب السلام مدرسة يقال لها المدرسة السليمانية بها كتبخانه بسيطة لا تخرج في الغالب عن الكتب الدينية .

والحرم من داخله على شكل مربع (منتظم تقريبا) وفي وسطه بميل الى الزاوية الجنوبية الكعبة المكرمة . وطول ضلعه المقابل للحطيم وهو الذي فيه باب الزيادة مائة وأربعة وستون مترا وطول الذي يقابله وهو الذي فيه باب الصفا مائة وستة وستون مترا وطلعه الذي فيه باب السلام مائة متر وثمانية والذي يقابله وهو الذي فيه باب ابراهيم مائة وتسعة أمتار فيكون مسطحة من الداخل سبعة عشر الفاً وتسعمائة واثنين من الامتار المربعة ، أما من الخارج فتوسط طوله مائة واثنان وتسعون مترا وعرضه مائة واثنان وثلاثون مترا (حسب تحقيق المرحوم محمد صادق باشا أمير الحاج المصري). ويحيط بالحرم من داخله أربعة أروقة فيها ثلاثمائة وأحد عشر عامودا من الرخام يغلها مائتان وأربعة وأربعون اسطوانة من الحجر الشيشي الاحمر تقوم عليها قباب على محيط المسجد . أما أبواب الحرم فهي ثمانية في الجهة الشمالية وهي باب درية وباب المدرسة وباب المحكة وباب الزيادة وبجواره الي الغرب باب القطبي ثم باب الباسطية وباب الزمامية وباب عمرو بن العاص ويليه من الجانب الغربي ثلاثة أولها باب العمرة (ويقال له باب بني سهم) ثم باب ابراهيم (وهو رجل خياط كان يسكن بجوار هذا الباب فسعى به) وفي رحبة هذا الباب تجدد آلافا من فقراء الدكارنة والهنود والمغاربة

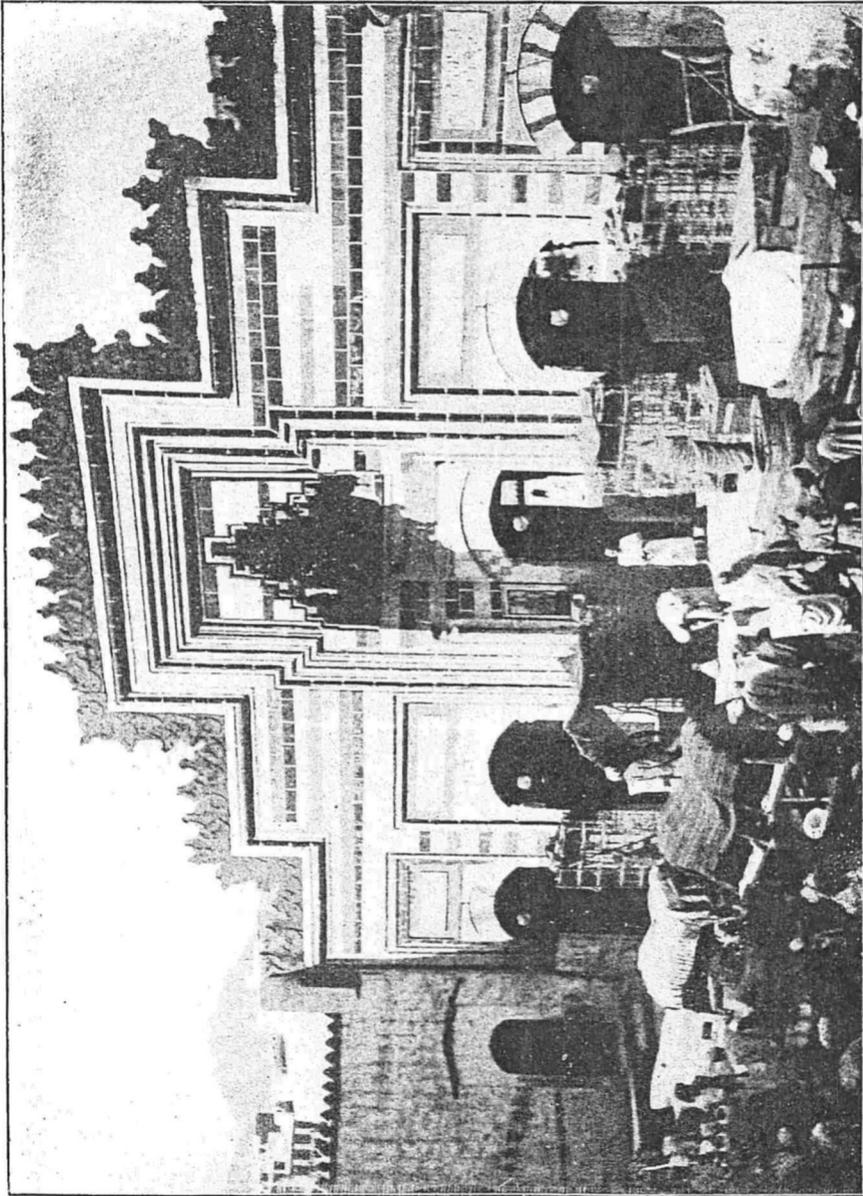
وفهم كثير من المقدمين الذين لا يقدرّون على الحركة فيمضون هناك ايام الموسم عاشرين من حسنة ارباب الخير، وربما كان منهم بالمسجد ما تلجئهم الضرورة اليه مما لا يصح التوسع في شرحه!! وهذا امر لا يليق بكرامة حرم الله! فهل للحكومة الحجاز ان تفكر في امر هؤلاء البؤساء وتقيم لهم دار ضيافة يأوون اليها ولو في مدة الموسم؟ وعسى ان ديوان الاوقاف يفكر في اضافة مرتبات ووقية على مرتبات التكية يصرف منها في ايام الحج على مثل هؤلاء التعساء من ضيوف الله.

والى جوار باب ابراهيم باب الخزرة ويلىه من الجهة الجنوبية سبعة ابواب اولها باب ام هانى ثم باب العجلة ثم باب الرحمة (او المجاهدية) ثم باب اجياد ثم باب الصفا ثم باب بنى مخزوم ثم باب السنبلة ثم باب بازان ويلى ذلك من الجهة الشرقيه أربعة ابواب وهي باب بنى هاشم (أو باب علي) ثم باب العباس (او باب الجنائز) ثم باب النبي ثم باب السلام وهو الذى يدخل منه الى الحرم عند طواف القدوم. ومجموع هذه الابواب اثنان وعشرون باباً ولكن منها ماله مدخل واحد ومنها ماله مدخلان او ثلاثة او خمسة فيكون مجموعها تسعة وثلاثون مدخلا. وفي المسجد ست منارات الاولى منارة باب العمرة وهي من اعمال الخليفة المنصور العباسي في عمارته للمسجد سنة مائة وثلاثين ثم منارة باب السلام ومنارة باب علي ومنارة الخزرة وهي من اعمال المهدي العباسي في عمارته للمسجد سنة مائة وثمانية وستين ثم منارة باب الزيادة وهي من اعمال المعتضد العباسي سنة مائتين واربع وثمانين ثم منارة السلطان قايتباي وقد حصلت في جميعها ترميمات وزيادات في مدة العماره التي قام بها السلطان سليم الثاني في المسجد وكلها باقية للان يؤذن عليها في الاوقات الحسة. وشيخ المؤذنين او الميقاتي يؤذن على قبة زمزم وفيها مزولة مثبتة في حائطها الجنوبي من عمل رجل من مراكش اهداها الى الحرم وهي غاية في الضبط والاحكام وعليها ميقاتهم في النهار فاذا دخل الوقت بدأ الرئيس بالأذان فيتبعه المؤذنون الذين على المنارات بأصوات يجر كما الهوا على طلبة الأذن فيحدث منها اهتزازات في القلب يمتلئ منها خشية ورهبة وخشوعاً وخضوعاً. وعلى حدود المطاف تلقاء كل ضلع من أضلاع البيت سقيفة قامت على أعمدة

من الرخام : فالشمالية منها مصلى الامام الحنفي والغربية للامام المالكي والجنوبية للامام الحنبلي أما الامام الشافعي فيصلي في مقام ابراهيم أو في المطاف مما يلي الكعبة مباشرة جاعلا بابها على يساره . والحنفي يتدنى بالصلاة في جميع الأوقات ويتلوه المالكي ثم الشافعي ثم الحنبلي الا صلاة الصبح فيبدأ بها الشافعي ويتأخر فيها عنهم الحنفي . وما يلاحظ ان أهل كل جهة من العالم الاسلامي يجلسون عادة من الحرم في الجهة التي يستقبلون فيها الكعبة في بلادهم فلا عجب تجدهم عند باب السلام والشوام والاتراكينه وبين باب الزيادة والمصريين ورء المقام المالكي واليمنيون والهنود ورء المقام الحنبلي . وقد شاهدت ان بعض المصريين يستعمل البوصلة التي عملت للصلاة بمصر ولوحظ فيها الاتجاه لجهة مخصوصة ولا يمكن أن تؤدي وظيفتها الا في البلاد التي على اتجاه مصر من الكعبة أما اذا وضعت مثلاً في طريق المدينة أو اليمن أو الطائف فانها لا تؤدي وظيفتها بالمرة فليفهم ذلك من يجمله .

واللحرم صحن كبير غير مستقر تقطعه مماش محجورة وما بينها أرض بها زلط ودون الفولة يسمونها الحصباء وأول من حصب ارضية الحرم هو عمر رضى الله عنه . والكعبة في وسط صحن المسجد بميل الى الجنوب ويليها من الشرق مقام ابراهيم وفي جنوبه الشرقي قبة زمزم التي بناها ابو جعفر المنصور في سنة مائة وخمس واربعين وفرش ارضها بالرخام وعمقها المأمون ، اما الشبكة التي على فوهتها فقد امر بعلمها السلطان احمد العثماني . وشرقي زمزم الى الشمال باب شبية وهو باب من الرخام قام في وسط الحرم في المكان الذي كان به باب المسجد في مدته صلى الله عليه وسلم وفي شمال المقام المنبر وهو من الرخام غاية في حسن الصناعة اهداه الى الحرم السلطان سليمان ومكتوب على بابه بالخط الذهبي الجميل (انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم) . وأول من وضع المنبر في المسجد الحرام معاوية ابن ابي سفيان حين قدومه الى مكة حاجا وكان الخلفاء قبله يخطبون على أرضية المسجد تحت جدار الكعبة أو في الحجر . ثم اهدى اليه سنة مائة وسبعين منبر من خشب جميل من صناعة مصر لمناسبة حج الرشيد الذي خطب الناس عليه في حجه في السنة المذكورة وفي زمن الواثق أمر فعمل له ثلاثة منابر : واحد في

باب الصفا بالحرم المكي



الحرم والثاني في عرفة والثالث في منى ، وخطب في حجه عليها جميعها . وقد كان الخطباء اذا ارادوا الخطبة في الحرم وضعوا المنبر لصق جدار الكعبة بين الحجر والركن اليماني فاذا اراد الخطيب ان يصعد المنبر اسلم الحجر أولاً ثم دعا وصعد المنبر ، وبعد الخطبة كان ينقل المنبر الى مكانه بجوار زمزم ، فلما اهدى السلطان سليمان اليه منبره الزخامي بقي مكانه واستمرت فيه الخطبة الى اليوم . وفي حوائط المسجد الحرام من الداخل أبواب بعضها منافذ لبض المدارس على الحرم وبعضها مخازن في يد خدمة المسجد أو الزمازمة وهؤلاء يستعملونها احياناً لاستحمام كبراء الحجاج فيها بما زمرم أو وضوئهم منها .

وبالجملة فشكل (١) الحرم المدني على بساطته في بنائه فخم جدا ووضعه صحي وصحته الكبير يؤدي بلا شك للمدينة وظيفة الميادين الكبرى كما سبق لك يانه في الكلام على مكة .

وللحرم الشريف شيخ برتبة مشير ومدير وأئمة وخطباء ، ومؤذنون وخدمة يقومون بشئونه ومنهم كثير من الاغاوات وأول من رتب الاغاوات في الحرم المكي للخدمة هو الخليفة ابو جعفر المنصور أما الذين يقومون بخدمة الكعبة المكرمه فهم سدنتها من بني شيبه .

(١) وماتراه على شكله جامع عمرو وبمصر القديمة ومسجد احمد بن طولون بالقاهرة وان كان في مساحته اكبر من الحرم . وفي وسط سخن هذا المسجد الاخير قبة عالية تحتها مiazza وضعت على شكل مربع لتقرب وضع يد الله المعظم من المسجد الحرام تسميها العامة بالكعبة وبجوار هذه القبة من جهة القبلة ميده (بفتح الاول وسكون الثاني) من الخشب يزعمون انها من سفينة نوح! فان كانوا وضعوا ذلك اكبارة لسان هذه الكعبة المزورة فهل يمكنهم أن يرشدونا عن الزمان والمكان اللذين عثروا فيها على آثار أول سفينة في العالم ساعهم الله؟

الكعبة

كان الله تعالى يرسل رسله الي خلقه في ظرف مخصوصة ليعلموهم واجباتهم في دينهم وديانهم ويرشدوهم الي طريق الخير الذي به تتم السعادة الحقيقية فاذا مضت على ذلك فترة من الزمن خبطوا في سيرهم وخلطوا بين عمل صالح وآخر سيء حتى اذا تغلب عامل الفساد بطبيعة الحال ساء أمرهم ونسوا رسالة ربهم اليهم وضلوا ضلالاً ميباً. ولما كان من طبيعة الوجود ضرورة وجود اله قوي قادر صار كل انسان يتخذ له الالهة على ما يتجاسم في ضميره ويتعاطم في وجدانه فكان هذا يعبد النار لزمعه أنها القادرة على كل شئ وذلك يعبد الشمس لأن بها نظام العالم وآخر يعبد الأحجار لانها هيولى هذا الوجود. وهؤلاء الاخرون هم الوثنيون الذين كان منهم سواد العالم خصوصاً في الفترة التي بين نوح و ابراهيم بعد ان تفرقت الناس وتبليت اللسان وتغايرت طبائعهم باختلاف مواطنهم. (وهذه الفترة على ماورد في الطبرى الف وتسعة وتسعون سنة). وكان الكلدانيين في جنوب بابل في نقطة متوسطة بين الشرق والغرب والشمال والجنوب فارسل الله تعالى منهم ابراهيم فوجدهم يعبدون الاوثان وكان أبوه يصنعها لهم فعاتبه على ذلك، قال الله تعالى: «واذ قال ابراهيم لأبيه آذر اتخذ اصناماً الهة انى أراك وقومك في ضلال ميين .»

وترك ابراهيم قومه وهاجر الي مدين وهناك أمره الله بالهجرة بولده اسماعيل وأمه هاجر الي بلاد العرب فاقاموا بمكة حتى اذا كثر عمرانها أمره الله ان يبنى له بيتاً، وكان أول بيت وضع للناس يعبدون فيه ربهم عبادة صحيحة قال تعالى « ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ». هذا البيت هو الكعبة المكرمة التي بناها ابراهيم على شكل مربع زواياه الي الجهات الأربع حتى تنكسر عليها تيارات الهواء لكيلا يؤثر ضغط الرياح على كتلتها وهذه هي بعينها القاعدة التي بنيت عليها اهرام مصر وصارت محل اعجاب علماء العمارة بها الي الآن

ثم بنتها العماليق ثم جرمهم كما ذكر الارزقي بالسند عن علي أمير المؤمنين وعبدالله ابن العباس رضي الله عنهما . (وهذا خلاف ابن قال بان جرم بنتها قبل العماليق) .
ولما آل أمر البيت الى قصي بن كلاب في القرن الثاني قبل الهجرة هدمها وبنائها فاحكم بناءها وستفها بخشب الدوم وجزوع النخل وبنى بجانبها دار الندوة وهي أول بناء بعد الكعبة في مكة وكانت بها حكومته ومحل الشورى مع صحابته وكان لا يتم لهم أمر من الامور السياسية والاجتماعية الا فيها ، ثم قسم جهات البيت العظيم بين طوائف قريش فبنوا دورهم علي المظاف حول الكعبة وفتحوا عليه ابوابها . وقبل بعثته صلى الله عليه وسلم بنحو خمس سنين هدم السيل الكعبة فاجمعت قريش أمرها واقتسمت القبائل بناءها وكان الذي بينها لهم باقوم الرومي فلما انتهوا الي وضع الحجر الاسود اختلفوا في أي القبائل تختص بشرف وضعه في محله وكاد يفضى الامر الي اشهار السلاح فيما بينهم . وكان صلى الله عليه وسلم يعمل معهم وعمره اذ ذاك خمسا وثلاثين سنة وكان له فيهم شأن عظيم لحسن سيرته وكمل اخلاقه وكانوا يسمونه بالامين ، فارتضوه حكما ، فطلب رداء وضع فيه الحجر وأمر القبائل فامسكت باطرافه ورفعوه بالحجر حتي اذا وصل الي مكانه من البناء في الركن الشرقي وضه فيه يده الشريفة ، وبهذه الفكرة السامية والسياسة الرشيدة انتهت الشحنة من بين القبائل وهم له شاكرون وبشدة ذكائه متحدثون . وكانت النفقة قد قصرت بهم فبنوها علي ما هي عليه الآن ، وكان الحجر أولا داخلها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعائشة رضي الله عنها : « لولا ان قومك حديثو عهد بالاسلام لهدمت الكعبة فالزقتها بالارض ولجملت لها بابا شرقيا وبابا غربيا وزدت فيها ستة اذرع من الحجر فان قريشا استقصرتها حينما بنت الكعبة » :
فلما ولي عبدالله بن الزبير أمر مكة في عهد يزيد ابن معاوية ارسل يزيد اليه الحصين بن نمير في عسكر كثيف فالتجأ ابن الزبير الي المسجد الحرام فضربه الحصين بالمنجنقات فاصابت بعض مقدوفاتها الكعبة فهدمتها وانحرفت كبوتها مع بعض اخشابها حتى اذا بلغه هلاك يزيد رجع بمن معه عن مكة . ورأى بن الزبير ان يهدم الكعبة وينبئها علي قواعد ابراهيم مستندا علي حديث عائشة السابق ذكره فهدم الكعبة وآتى لها من اليمن بالبحص النقي

فبناها به وادخل الحجر في البيت والصق الباب بالأرض وجعل قبالة إلى الغرب باباً آخر ليخرج الناس منه وجعل ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعاً ولما فرغ من بنائها طيها بالمسك والعنبر داخلاً وخارجاً من أعلاها إلى أسفلها وكساها بالديباغ وكان انتهاؤه من عملية هذا البناء في ١٧ رجب سنة ٦٤ للهجرة . فلما كان في عهد عبد الملك بن مروان سير الحجاج بن يوسف التتقى إلى ابن الزبير فحاصره في مكة ورماء بالمنجنيق حتى استشهد رضي الله عنه في سنة ٧٣ ، ودخل الحجاج مكة وكتب إلى عبد الملك بما جرده ابن الزبير في الكعبة فأمره أن يمدها كما كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهدم الحجاج من جانبها الشامي (الشمالي) قدر ستة أذرع وشبر وبني ذلك الجدار على أساس قريش ورفع الباب الشرقي وسد الغربي ولم يغير من باقيها شيئاً وكبس أرضها بالحجارة التي فصلت عنها .

وعليه فالكعبة الآن على بناء ابن الزبير من جوانبها الشرقية والجنوبية والغربية وبناء الحجاج من جانبها الشمالي ولم يطرأ عليها بعد ذلك إلا العمارة التي تغير فيها سقفها في زمن السلطان سليمان سنة ٩٦٠ والعمارة الترميمية التي حصلت في زمن السلطان أحمد سنة ١٠٢١ وموجود تاريخها محفوراً في قطعة من الرخام مبيتة في الشاذروان على يمين المعجن وهذا نصها « بسم الله الرحمن الرحيم » أما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين أمر بعمارة سقف البيت الشريف وتجديده بيزاب الرحمة وتقوية جدار بيت الله الحرام السلطان أحمد في شهر محرم سنة ١٠٢١ . ثم اعتقب ذلك العمارة التي قام بها السلطان مراد الرابع عقب سيل الهائل الذي حصل في سنة ١٠٣٩ . وقد وصل ارتفاعه إلى مترين فوق أرضيتها) فهدم من حوائطها الشمالي والغربي والشرقي أما ما عمر فيها بعد ذلك فشيء لا يذكر.



مساحة الكعبة

والكعبة من الخارج على التعديل الذي رجع اليه الحجاج ، وهو ما كانت عليه مدة النبي صلى الله عليه وسلم وما هي باقية عليه للآن ، ذات شكل مربع تقريباً مبني بالحجارة الزرقاء الصلبة يبلغ ارتفاعه خمسة عشر متراً وطول ضلعه الذي فيه الحجر الأسود والذي قبالة عشرة أمتار وعشرة سنتيمترات والحجر (بفتح الحاء والجيم) موضوع على ارتفاع متر واحد وخمسين سنتيمتراً من أوضة المطاف ، والضلع الذي فيه الباب والذي يقابله اثنا عشر متراً ، وبابها على ارتفاع مترين من الأرض ، ويصعد اليه بواسطة مدرج يشبه مدرج المنبر ولا يوضع في مكانه منها الا اذا فتح بابها للزائرين في الاحتفالات الكبرى وهو غالباً لا يزيد عن خمس عشرة مرة في السنة وفيما عدا ذلك ترى هذا المدرج بجوار قبة زمزم من جهة باب شيبه ويصعدون اليها بسلم صغير من الخشب .

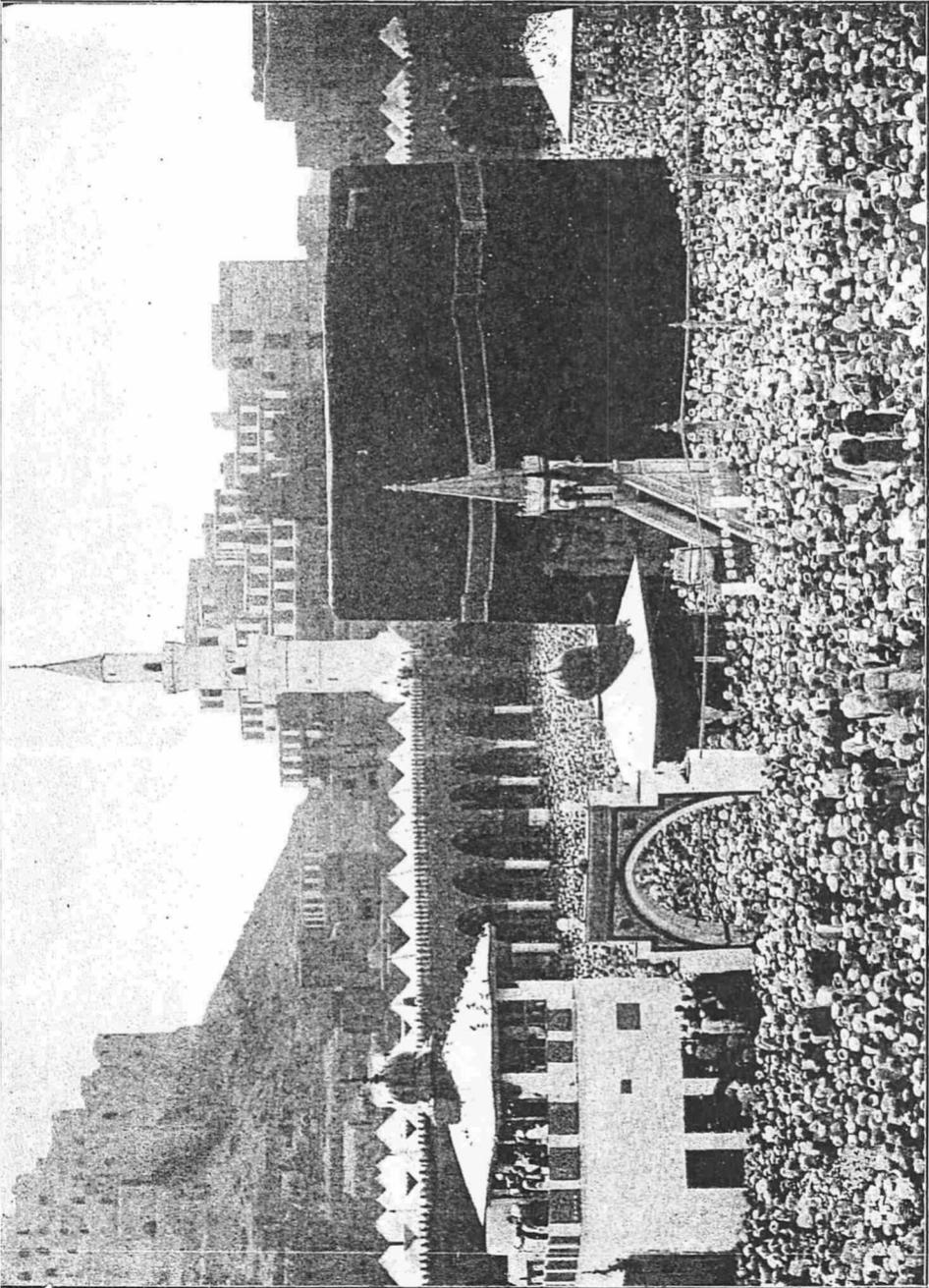
وتفتح الكعبة في العاشر من المحرم للرجال وفي ليلة الحادى عشر منه للنساء وفي ليلة الثانية عشر من ربيع الأول للدعاء للسلطان وفي صبيحة تاليه للرجال وفي مسائه للنساء وفي العشرين منه لغسيل الكعبة بحضور الشريف والوالى وفي أول جمعة من رجب للرجال وفي تاليه للنساء وفي ليلة السابع والعشرين منه للدعاء للسلطان (دون أن يدخلها أحد من الزائرين) وفي صباح تاليه للرجال وفي مسائه للنساء وفي ليلة النصف من شعبان للدعاء للسلطان وفي صباح تاليه للرجال وفي مسائه للنساء وفي يوم الجمعة الاولى من رمضان للرجال وفي تاليه للنساء وفي ليلة السابع عشر منه للدعاء للسلطان وفي آخر جمعة منه كذلك وفي نصف القعدة للرجال وفي تاليه للنساء وفي عشرين منه لغسيل الكعبة وفي الثامن والعشرين منه لآحرامها (أعني احاطتها بقماش أبيض من الخارج على ارتفاع نحو مترين من أرضية المطاف) وتفتح في موسم الحج غير مرة لمن يزورها من الحجاج نظير أجر يأخذه سدتها . وتفتح الكعبة أيضاً بعد الحج في نحو العشرين من الحجة لنفسيلها . ولغسيلها احتفال كبير يحضره الشريف والوالى وأعيان مكة وعطاء الحجيج . وكيفية

ذلك أن يدخل دولة الشريف في مقدمة الداخلين اليها وبعد أن يصلي ركعتين يؤتى اليه بجرادل الماء من عين زمزم فيفعل أرضها بمقشاة صغيرة من الخوص ويسيل الماء من ثقب في عتبها ثم يسلبها بماء الورد وبعد ذلك تضحك أرضيتها وحوائطها على ارتفاع الأيدي بالخلوق وأنواع العطر كدهن الورد والمسك وفي أثناء ذلك يكون البخور بالند والعود صاعداً من جميع جهاتها ، وبعد ذلك يقف الشريف على الباب ويلقي عن الحجاج الذين يكونون قد وقفوا آلافاً مؤلفة في المطاف الى باب شبية تلك المقشاة التي كانت تسفل بها الكعبة فيتزاحمون عليها ويتلقفونها بحال غريبة جداً ومن يحصل منهم على واحدة كأنه حصل على أمن شيء في العالم بل تكون عنده خيراً من الدنيا وما فيها فيحفظها على سبيل البركة لأنها أثر من بيت الله المعظم ، وقد يأتي بعض القوم وخصوصاً المطوفين والزمازمة بمقشاة كثيرة يغفرونها بالماء ويدعون أنها من التي غسلت بها الكعبة ويبيعونها على الحجاج الواحدة بنصف ريال على الأقل !!

ويحيط بالكعبة من خارجها قسبة من البناء في أسفلها متوسط ارتفاعها خمسة وعشرون سنتي متر ومتوسط عرضها ثلاثون سنتي متر وتسمى بالشاذروان وهي من أصل البيت تركت خارجاً عنه في بناء قريش لها قبل الاسلام .

وعلى ظني ان الشاذروان من أثر عمارة الحجاج صنعه ليقى جدارها به من تأثير الامطار والسيول التي كانت تنزل الى المطاف كما يدل عليه لفظه الفارسي الذي لا بد ان يكون من وضع عملة من الفرس استحضروهم لها في عمارتها ولا يبعد ان يكون ذلك من عهد بن الزبير يؤيده ما ورد في الاغانى من ان بن سريح سئل عن تعلم الغناء على القاعدة اثنى كان يعني عليها والتي ما كانت معروفة عند العرب فقال انه تعلمها من عملة من الفرس كان ابن الزبير استحضروهم لبناء الكعبة وكانوا يتغنون باغنية لطيفة فاخذها عنهم وإضاف نعماتها على النعمات العربية وغنى بها . وعلى كل حال فالشاذروان والميزاب لم يرد ذكرهما على مدته صلى الله عليه وسلم .

والشاذروان معناه ما يحيط بالسلسيل وكانوا يطلقونه في العمارات المصرية القديمة علي محيط النافورات التي كانت في وسط القاعات الكبرى .



الجمعة العظيمة منظر الحرم المكي في أوقات الصلاة من الحج

ويسمون زوايا البيت الخارجة بالاركان فالشمالى منها يسمونه بالركن العراقى لانه الى جهة العراق والغربى يسمونه الشامى لانه متجه الى جهة الشام والقبلى يسمونه اليمانى لاتجاهه الى اليمن وفيه حجر يسمونه الحجر الأسود والشرقى ويسمونه بركن الحجر لأن فيه الحجر الاسود وهو حجر صقيل يضاوى غير منتظم ولونه أسود يميل الى الاحمرار وفيه نقط حمراء وتمازج صفراء وهي أثر لحام القطع التي كانت انفصلت منه وقطره نحو ثلاثين سنتى مترا ويحيط به ازار من الفضة عرضه عشر سنتى مترات والمسافة التي بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم وهي ما يلتزمه الطائف في دعائه واستغاثته .

وأما الكعبة من الداخل فشكلها مربع مشطور الزاوية الشمالية وهي التي على يمين الداخل وبهذه الشطرة باب صغير اسمه باب التوبة يؤدي الى سلم صغير يصعد به الى سطحها .

وبوسطها من الداخل ثلاثة أعمدة من العمود القاقلى عليها مقاصير ترتكز على حائط الميزاب من جهة وحائط الحجر الاسود من الاخرى . وقطر كل عمود نحو ثلاثين سنتى مترا وهذه الاعمدة من زمن عبد الله بن الزبير وقيمتها اكبر من ان يقدر لها ثمن (وقد ذكر أنه كان فيها على عهده صلى الله عليه وسلم ست عمد ولا أدري ان كانت من البناء أو من الخشب) ويفطى سقف الكعبة وحوائها من الداخل كسوة من الحرير الوردى عليها مربعات مكتوب فيها (الله جل جلاله) قد أهداها اليها السلطان عبد العزيز رحمه الله وفي قبالة الداخل من الباب محراب النبي عليه الصلاة والسلام .

ويحيط بينها من الداخل ازار من الرخام المجزع على ارتفاع نحو مترين وقد وضع فى الحائط الغربى الواح محفور فى الأول منها « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا البيت المعظم العبد المقتدر الى رحمة ربه يوسف بن عمر ابن علي رسول الله ، اللهم أيده يا كريم بعزير نصرك واغفر له ذنوبه برحمتك يا كريم ياغفار يا رحيم . ومكتوب حول هذه اللوحة : «رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت علي وعلى والدي وأن اعمل صالحاً ترضاه لى بتاريخ سنة ثمانين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله

وصحبه وسلم» والى جواره لوحة مكتوب فيها « أمر بتجديد سقف البيت الشريف وجميع داخل الحرم وخارجه مولانا السلطان بن السلطان محمد خان سنة سبعين والف » ثم لوحة اخرى فيها ربنا تقبل منا انك انت السميع العليم تقرب الى الله تعالى بتجديد رخام هذا البيت المعظم المشرف العبد الفقير الى الله تعالى السلطان الملك الاشرف أبو النصر برسباي خادم الحرمين الشريفين بلغه الله آماله وزين بالصلحات أعماله بتاريخ سنة ست وعشرين وثمانائة» وفي لوحة اخرى « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة البيت المعظم الامام الاعظم أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين بلغه الله أقصى آماله وتقبل منه صالح أعماله في شهر سنة تسع وعشرين وثمانائة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم». ثم لوحة اخرى منقوش فيها « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا البيت العتيق المعظم الفقير الى الله سبحانه وتعالى خادم الحرمين الشريفين مؤمن الحجاج في البرين والبحرين خادم الحرمين المحترمين السلطان ابن السلطان السلطان مراد خان ابن السلطان احمد خان ابن السلطان محمد خان خلد الله تعالى ملكه وأيد سلطته في آخر شهر رمضان المبارك المسطر في سلك شهر سنة أربعين بعد الالف من الهجرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة والتحية» وفي الجدار الشرقي لوح مكتوب فيه « أمر بتجديد داخل البيت السلطان الملك ابو النصر قايتباي خلد الله ملكه يارب العالمين عام اربع وثمانائة من الهجرة» وفي الجدار الشمالي مكتوب على باب التوبة هذه الايات (١)

قد بدا التعمير في بيت الاله	قبلة الاسلام والبيت الحرام
أم خاقان الورى مصطفى خان	دام بالنصر العزيز المستدام
بادرت صدقا الى التعمير ذا	أما كان بالهام السلام
وارتجت من فضله سبحانه	ان يجازيها به يوم القيام
قال تاريخا له قاضي البلد	عمرته أم سلطان الأنام

(١) ومن هذا الشعر يمكنك أن تحكم على مقدار تأخر اللغة العربية وخصوصاً

في القريض منها ببلاد العرب حوالى القرن الحادى عشر للهجرة .

بمباشرة احمد بك في تسع ومائة و الف « وفي البيت حجر مكتوب بالكوفي لم
تمكنا قراءته لانه قديم جدا ويقال أنه من القرن الاول للهجرة وان صح ذلك كان
من عمل الحجاج بن يوسف . وبجانب الباب على يسار الداخل طاولة من الحشب مغطاة
بستارة من الحرير الاخضر موضوع عليها كيس مفاتيح الكعبة وهو من الاطلس الاخضر
المرزكش بالقصب يأتي اليها من مصر مع الكسوة الشريفة ويقال أنه معلق بستفها
كثير مما بقي من الذخائر التي اهديت اليها ومن ذلك عدة مصايح ذهبية وفضية
من ضمنها مصباحان ذهبيان مرصعان بالجواهر كان اهداها اليها السلطان سايجان سنة ٩٨٤
ويخرج من وسط الحائط الشمالى الغربى (من أعلاه) الميزاب (المرزاب) ويقال
له ميزاب الرحمة وهو من عمل الحجاج وضمه على سطحها حتى لا تقف عليه مياه الامطار
وكان من نحاس فغيره السلطان سليمان القانونى سنة ٩٥٩ بأخر من الفضة وتجدد
في سنة ١٠٢٤ مدة السلطان احمد بغيره من الفضة المنقوشة بالمينا الزرقاء، تتخللها المنقوش
الذهبية (وهو محفوظ الآن في دار الآثار السلطانية الخصوصية بالاستانة وقد شاهده
بها في العام الماضى وفي سنة ١٢٧٠ ارسل اليها السلطان عبد الحميد ميزانا من الذهب
تم تغير في مدة السلطان عبد العزيز بأخر وهو الموجود بها الآن .

وقبالة الميزاب من الخارج يوجد الخطيم وهو قوس من البناء طرفاه الى زاويتي
البيت ويمدان عنها ٣٥ س ٢ م و يبلغ ارتفاعه مترا وسمكه مترا ونصفا وهو مغلف
بالرخام المنقوش وفي محيطه كتابة من أعلاه بالخط المعلق فيها آيات قرآنية وتاريخ من
قام بعمارته ومسافة ما بين منتصف هذا القوس من داخله الى منتصف ضلع الكعبة
ثمانية امتار واربعة واربعين سنتياً . والفضاء الواقع بين الخطيم وحائط البيت هو ما
يسمونه بحجر اسماعيل (بكسر الحاء وسكون الجيم) وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار
تقريباً في بناء ابراهيم وهي الزيادة التي كان ابن الزبير ادخلها في بنائه والباقي كان
زربية لغنم هاجرو ولدها ويقال ان هاجر واسماعيل مدفونان بالحجر .

الكعبة قبل الاسلام وبعده

كانت الكعبة قبل الاسلام بنحو ٢٧ قرناً ذات منزلة سامية عند العرب باجمعهم بين وثنيهم ويهودهم ونصاراهم . وقد تجاوزت مكاتها جزيرة العرب الى بلاد الفرس الذين كانوا يعتقدون ان روح هرمز حلت في الكعبة ثم الى بلاد الهند وكانوا يعتقدون ان روح شوبه أحد آلهتهم (وهو الاقنوم الثالث من تماثيل بوذا) قد تقمصت في الحجر الاسود حين زيارته مع زوجته لبلاد الحجاز ويسمون مكة (مكشيشا) أو موكشيشانا ، وقدماء المصريين كانوا يسمون بلاد الحجاز بالبلاد المقدسة ، واليهود يحترمونها وكانوا يتعبدون فيها على دين ابراهيم ، والنصارى من العرب لم يكن احترامهم لها أقل من احترام اليهود اياها . وكان لهم بها صور وتماثيل منها تماثيل ابراهيم واسماعيل وفي أيديهما الازلام وصورة العذرا والمسيح . وقد وضعت العرب اصنامها عليها على تغاير معبودات القبائل والعشائر حتى اجتمع على سطحها من الاصنام (٣٦٥) صنماً وكان أول من ادخل عبادة الاوثان الى مكة ووضع الاصنام على الكعبة عمرو بن لحي كبير خزاعة حينما ولي أمر البيت وكان قد سافر الى الشام فأخذ عنها عبادة الاوثان وخصوصاً عن النموديين الذين أخذ عنهم عبادة هيل واللات ومنات وغيرها وكانت من الهتهم كما تدل عليه النقوش الموجودة على آثارهم وتبعته في ذلك قبائل العرب فكانت كل قبيلة تأتي بصلتها وتضعه عليها . ومع شيوع الوثنية في العرب فانها كانت فيهم أقل منها في سواهم لانهم لم يكونوا يعبدون الاوثان لذاتها كما كان الشأن في وثني الهند والصين والرومان والمصريين وغيرهم بل كانوا يعبدونها لتقربهم الى الله زانف .

وما زالت الكعبة على هذا الشأن حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الفتح في السنة الثانية للحجرة فأمر بازالة ما عليها من الاصنام . وفي حديث اسامة انه صلى الله عليه وسلم دخل الكعبة فرأى صوراً فدعا ببناء فجعل يحجوها وقد ذكر الازرقى عن ابن عائذ عن سعيد بن عبد العزيز ان صورة عيسى وامه بقيتا في الكعبة حتى رآهما

بعض من اسلم من نصارى غسان وقال عمر بن شبة حدثنا أبو عاصم عن جرير سأل سليمان بن موسى عطاء،، أدركت في الكعبة تماثيل؟ قال نعم أدركت تماثل مريم في حجرها ابنا عيسى مزوقا» (انظر صحيفة ستين من كتاب بلوغ الأرب في ماثر العرب). هذا كان شأن الكعبة في الجاهلية قد اجتمعت جميع الناس على اختلاف دياناتهم على احترامها واتخاذها كل منهم معبدا يعبد الله فيه على حسب دينه أو مذهبه، وهذا في بابه لم يقع له نظير في الوجود بالمرّة، اللهم الا بيت المقدس الذي يحترمه المسلمون والنصارى واليهود، وان كان لكل مكان يتعبد فيه على حدته . فهل تريد برهاناً على شرفها واحترامها غير هذا الاجماع من قوم كانوا بقطع النظر عن اختلاف دياناتهم اذا جمعهم كلمة فرقهم اخرى ؟

ولقد بلغ من سمو مكاتها في النفوس ان جعلوا لها حرماً من جميع جوانبها واسع الاطراف بعيد الاكتاف لا يدخله الانسان الا وهو محرم، وكل من دخله صار آمناً. قال تعالى محتجاً على أهل مكة: « أو لم يروا أنا جعلنا لم حرماً آمناً ونحفظ الناس من حولهم،، ولم يقف احترام هذا الحرم على تأمين الانسان بل تناول الحيوان بل تناول النبات. ومسافة ما بين دائرة هذا الحرم وتقطبها المركزية التي هي الكعبة من جهة الشمال والشرق والجنوب تبلغ تقريباً خمسة عشر كيلو متراً أما من جهة الغرب فتبلغ ثلث هذه المسافة . وعلى حدّ الحرم من الجنوب مكان يقال له أضاه (على وزن نواه) ومن الشمال الغربي مكان يقال له الحديبية ومن الشرق على طريق الطائف مكان يقال له الجرانة اعتمر من كليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن وراء هذه الدائرة دائرة اخرى يحرم منها كل من تجاوزها قاصداً الدخول الى مكة وهي وان كانت حلالاً الا أنها تعتبر فناءً للحرم . ولا شك أنه لوحظ في ابعاد الحرم عمران الجهات الثلاث الاولى حتى اذا قصدوا منها من أراد مكة بشر فلا يكونون وصلوا الى حدود حرماً حتى يكون أهلهم قد استعدوا لحربهم ودفعهم عن حوزتهم. أما الجهة الغربية وهي جهة البحر فليس فيها من القبائل ما يخشى من عدوانه لذلك جعلوا حد الحرم فيها من التعميم وهو مكان على مسافة نحو خمس كيلو مترات . وعليه فمقتات الاحرام اشبه شيء بالجهة التي

يصلح المرء فيها من شأنه عند ما يريد مقابلة ملك من الملوك، ووجد الحرم هو فناء بيت الملك حتى اذا دخل اليه اكمل استعداداه للتشرف بلقاء الملك: فتراه وقد أخذ منه الاحتشام كل ماخذ يسير الى قاعة الاستقبال بغاية ما يمكن من الادب حتى لكانه على مرأى منه ومسمع. وقد شاهدت ما يماثل ذلك في طوب سراي بالاستانة العلية: رأيت حجارة منصوبة الى اليوم على ابعاد مختلفة في الحوش الداخلي لهذه السراي وفي فناء مخصوص لجلوس السلطان من بني عثمان في الزمن الحالى، وكان القادم على السلطان من الامراء والسفراء اذا حاذى كل حجر من الاحجار المذكورة سلم بسلام مخصوص حتى اذا وصل اليه قبل الارض بين يديه.

ولقد بلغ من شأن الكعبة في الجاهلية أن الناس كانوا يحجون اليها من جميع أنحاء بلاد العرب وغيرها وكانت أشهر الحج الاربعة (شوال والقعدة والحجة والحرم) حرماً، وقد عظمت حرمة هذه الشهور عندهم حتى أنهم كانوا يرمون فيها السلاح الذى كان آلة حياتهم التى كان مدار وجودها على الغزو ولا تزال هكذا الى الآن فى كثير من أطرافها. وكانت هذه الشهور كلها هدنة بين القبائل بأجمعها حتى لا يقف العداء حجر عثرة فى طريق الحاج منهم. وكانوا يجتمعون قبل الحج أهل الشمال فى بدر ومجنته (مر الظران وهو على بعد نحو مرحلة من مكة الى الشمال الغربى) وأهل الجنوب فى ذى الحجاز (وهو على مرحلة من عرفة شرقاً الى الجنوب) وأهل الشرق فى عكاظ، وتبعد بمرحلتين كبيرتين عن مكة (مائة كيلو متر تقريباً) وهى واقعة فيما بين قرن المنازل والطائف، وقد اتخذها العرب سوقاً بعد الفيل بخمسة عشر سنة واستمرت الى سنة ١٢٩٩م ابطلت اكتفاء بسوق عرفة ومكة. وعليه فقد كانت هذه الاسواق بمثابة معارض للتجارة ومؤتمرات للآداب ومكارم الاخلاق وأظنك تحكم معي بأنهم من أسبق الناس اليها بل سبقوا بها الحكومات المتمدنة بقرون عديدة وكانت هذه السوق تقوم صبح هلال ذى القعدة وقد قصدته رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة بعد البعثة لينشر فى القبائل دين الاسلام، وفيه تقابل صلى الله عليه وسلم بقس ابن ساعدة. وكانت عكاظ اكبر أسواق الجاهلية لانها تلي اكثر جياتها سكاناً واعظها قوة ومنعة، وكانوا يبيعون فيها ويشترون ويتناشدون اشعارهم

ويتفاخرون بما كان لديهم من نسب كبير وعمل خطير، وكان لهم مجلس نحكيم يعرف للناس مكانتهم وشجاعتهم وفصاحتهم وآدابهم، وربما كان فيه العدو يشهد لعدوه بالسبق من طريق الحق، وكثيرا ما كان هذا الاحتكاك السلمي يؤدي الى المصالحة بعد المكافحة فتال الانسانية من وراء هذا الاجتماع خيرا كثيرا، وكان من سبق منهم أخذت كلمته وعلقت في داخل الكعبة تكريما له واشهادا من الله بانه من السابقين . وأشهر هذه المملقات واكبرها بلاغة سبع كان معظمها ولا يزال مدرسة لسمو النفوس ومعالي الهمم وبقي بعضها الى يوم الفتح وحرقت أغلبها فيما حرق من الكعبة قبل الاسلام . ولم تقتصر هذه السنة على الجاهلية بل اتبعت في الاسلام: فقد كتب هارون الرشيد عهدا بالخلافة الى ولده الامين من بعده ثم الى ولده المأمون وارسل به فعلق في الكعبة الى زمن الأمين حتى استدعى به ومزقه . ثم صار بعد ذلك كل من قام بشرف الخدمة في البيت الحرام من الملوك والولاة يتيمن بكتابة اسمه داخلها بجوار ذكر الاثر الذي له فيها .

ما زالت الكعبة محترمة في الجاهلية حتى أتى الاسلام وجعلها الله في السنة الثانية للهجرة قبلة للمسلمين حينما كانوا ، وكانوا يصلون الى بيت المقدس : قال الله تعالى لبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم « قد نرى قلب وجبك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجبك شطر المسجد الحرام وحينما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، فكان كذلك وصارت الكعبة قبلتهم في صلاتهم تتوجه اليها وجوههم وتغنوا الله في قبالتها جباههم في أى نقطة كانوا من هذه الكرة الارضية، لا فرق بين شمالى وجنوبى وشرقى وغربى بعيد أو قريب وبذلك اصبحت عندهم مركز الدائرة التى يرتبطون بها جميعا بجبل دينهم المتين: دين التوحيد ، دين المساواة ، دين الاخاء ، دين الحرية الصحيحة، ولها في نفوسهم من الاجلال والاعظام مالا يقوى على تعبيره لسان أو يتخيله جنان، لا فرق في ذلك بين أهل مذهب ومذهب آخر ، بل ترى المسلمين على اختلاف مذاهبهم يصلون حولها وراء أى أمام كان، وهذا لا يدل فقط على التسامح الموجود بين المسلمين، بل فيه أكبر برهان على التضامن الموجود بينهم وتوحيد الغاية التى يرمون اليها في

عبادتهم ، وهذا التسامح لا نراه موجودا بالمرّة بين مذاهب الديانات الاخرى .
وقد جعل الله تعالى طوافها من فرائض الحج الذى جعله فرض عين على كل مسلم
يستطيع اليه السبيل في أى زمان أو مكان كما جعله فرض كفاية كل سنة على عموم
المسلمين يسقط بقيام البعض به فان أهملوه أنموا جميعاً . ومن الغريب ان كل من يعثر
بصره لاول وهلة على الكعبة تراه في دهشة كبيرة، لا لكون بصره وقع على شئ
لم يتعود النظر اليه ولكن لما يعتريه من الخشية والرهبّة!! فترى هؤلاء المشاهدين
تأخذهم هزة كبيرة من هذا المنظر المهيّب، ومنهم من يقف لحظة في مكان المتأدّب
المستكين المتصاغر أمام هذه العظمة الكبرى ومنهم من يصرخ بصوت الخوف ولسانه يلبث
بكلمات منفصلة عن بعضها، ومنهم من يجيش بالبكاء فلا تسمع له غير نحيب يحتق معه
صوته وتتقطع منه أنفاسه !! وعلى كل حال فنسبة خرف الانسان من ربه على نسبة
مع قوة دينه ومثانة يقينه .

الطواف

والطواف هو قطعك ما يحيط بالكعبة من دائرة المطاف سبع مرات ويقال لها
أشواط. ويشترط في الطواف الطهارة التامة (ويجب أن لا يكون في يدك مثل مداس أو
غيره من الاشياء الوسخة) وتبتدى كل شوط من الحجر الاسود فاذا حاذيته تقربت
منه وقبلته ان أمكنتك والا توجهت اليه قائلا «اللهم انى نويت طواف بيتك المعظم سبعة
أشواط فيسرها لى وتقبلها منى»، ثم تسير مسلماً بيدك قائلا «بسم الله اكبر»، وتطوف
جاعلا البيت على يسارك من وراء الحجر (بكسر الحاء وسكون الجيم) وبعبارة
الشاذروان. والمطاف على شكل دائرة مستطيلة من الشمال الى الجنوب وقد فرشت
أرضه بالرخام من مدة السلطان سليمان وهو على حدود الحرم من عهده عليه الصلاة
والسلام، ومسافته من جهة الغرب والجنوب نحو ١٩ مترا ومن جهة الشمال والشرق نحو

١٢ مترا وفيه مما يلي باب الكعبة الى الشمال جزء مربع منحط عنه، سعته نحو مترين من كل جهة يسمى المعجن (وهو ما كان يعجن فيه اسماعيل المؤنة التي كان يستعملها ابراهيم في بناء الكعبة) وقد وجدنا فيه كتابة محفورة في قطعة من الرخام الى جهة الكعبة هذه صورتها « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بهارة المطاف الشريف سلطان الانام الامام الاعظم المفروض الطاعة على سائر الامم أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين بلغه الله آماله وزين بالصالحات أعماله في شهور ستة وثلاثين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله » وعليه فقطر دائرة المطاف من الشمال الى الجنوب نحو ٥١ مترا وقطره من الشرق الى الغرب نحو ٤١ مترا والكعبة تقريبا في وسطها . فاذا اعتبرنا أن متوسط ما يقطعه الطائف حول الكعبة مائة مترا في كل مرة ، ففي السبعة أشواط يقطع سبعمائة مترا واذا عرفت ان الحاج يطوف مرات متعددة في اليوم الواحد أقلها مرة بعد كل صلاة في الصلوات الخمس أو بعدها، علمت أن الحاج بين شاب وشائب وذكر وانثى وطفل يقطع في طوافه اليومي على رجليه نحو أربعة كيلو مترات على الاقل ، بل منهم من يقطع أضعاف ذلك قبل وبعد الصلاة الواحدة .

وذكر ابن بطوطة في رحلته انه رأى وزير غرناطة وكبيرها أبا القاسم محمد الازدي وكان يطوف كل يوم سبعين اسبوعا ولم يكن يطوف وقت القائلة لشدة الحر: فكأنه كان يقطع في طوافه كل يوم سبعين كيلو مترا .

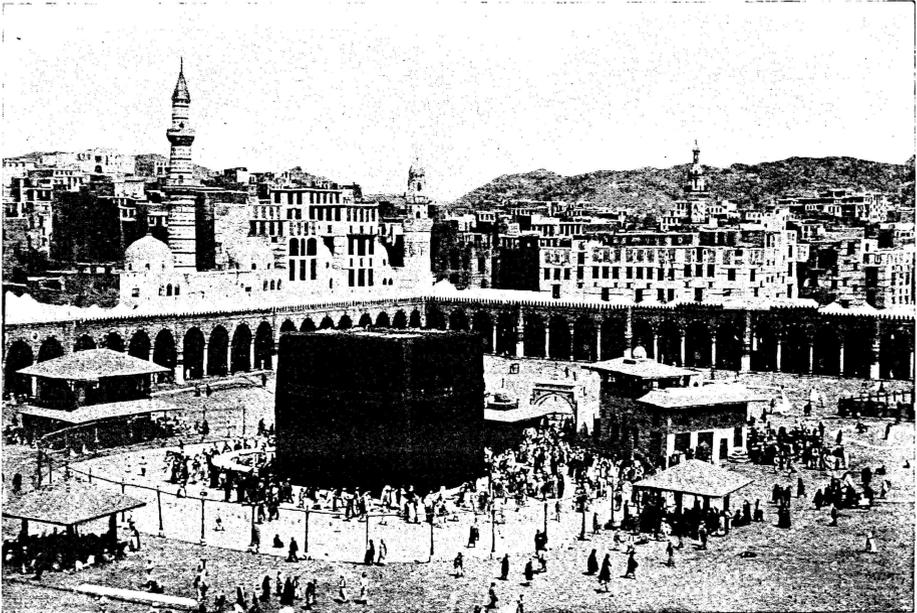
وفي المطاف ترى شيئا غريبا جدا ترى من لم يكن لهم قدرة على المشي اجلسوا في محفة وحملها اربعة على رؤوسهم أو اكتافهم لتأدية هذه الأمور وياغلب هؤلاء من الهنود وخصوصا البنغاليين أو الجاويين ، لان سواد حجاجهم ممن جاؤوا النمانين يأتون الى هذه الاماكن المقدسة رجاء موتهم بها وهم يرون في ذلك كل سعادتهم ويعملون له طول حياتهم . ولذلك فانك تجد هذين الجنسيتين بؤرة الامراض التي تنفث في الحجيج لان حالتهم الصحية تتأثر باقل مؤثر وليس فيهم من القوة ما يقوى على دفعه بل حالتهم المعاشية تساعد الامراض بالف يد على الفتك بهم !!

ولقد ذكر أهل السنة للطواف فضائل كثيرة وحثوا على الكثرة منه وقالوا ان لم

يتيسر للانسان ذلك فيجبل به ان يجلس في المسجد مستقبلا الكعبة مشاهدا فيها .
وبعد الطواف يذهب الطائف الى حجر اسماعيل فيصلي به ركعتين سنة الطواف
يختمه بهما وان لم يستطع ففي مقام ابراهيم وهو قبة ضربت على اربعة اعمدة احاطت
بها مقصورة نحاسية مربعة يبلغ طول كل ضلع منها نحو ثلاثة امانار وستين سنتيمترا وهي
على آخر المطاف تجاه باب الكعبة وفي داخلها الحجر الذي كان يقف عليه ابراهيم حال
بناء الكعبة. وبه أثر يقال انه أثر قدميه ، ويقول بعضهم انه هو المقام وكان هذا الحجر قبل
الاسلام موضوعا بالمعجن الى جوار الكعبة وابتعد عنها بعد الفتح حتى لا يكون هناك
أثر للوثنية بالارة، ودفن بمكانه الحالي وبنى عليه فيما بعد القبة الحالية ، ويقولون ان تحته
آلة البناء اتي كان يعمل بها ابراهيم في الكعبة. والعرب قبل الاسلام كانوا يعتقدون
في هذا الاثر ويحترمونه بل ويقدمونه وهو المقصود بقول أبي طالب في لاميته .
وهو طي ابراهيم في الصخر رطبة (١) على قدميه حافيا غير ناعل .

وربما أخذ هذا من أثر التدم الذي بقية الصعود بجبل الزيتون بالقدس الشريف
ويزعم النصارى أنه لعيسى عليه السلام وهم يقدمونه ويحترمونه. ومن ذلك أتى احترام
المسلمين لآثار تلك الاقدام التي ينسبونها الى النبي عليه الصلاة والسلام كما تراه في
قبة السيد البدوي في طنطا، وفي جامع المؤيد ومسجد قايتباي بالقاهرة وفي قبة الآثار
النبوية في الاسكندرية. وعلى صخرة بيت المقدس آثار اقدام غير منتظمة يدعون انها آثار
أقدام الرسول صلى الله عليه وسلم عندما اسرى به، والمسلمون هناك يقدمونها كما يقدمون
أثر قدم عيسى التي تراها في محراب على يمين منبر المسجد الأقصى ويقول النصارى ان
المسلمين فصلوها عن أختها التي في قبة الصعود ووضعوها بمكانها هذا . وقد رأيت في
الفصل الرابع والثلاثين من كتاب محاضرة الاوائل للسكرتاري ان أول موضع اهبط
الله فيه آدم جبل سرنديب وفيه أثر قدم آدم عليه السلام غائص في الصخر طوله سبعون
شبرا الخ ؟؟؟ وعليه فلا بد ان تكون فكرة تلك الاقدام أخذها العرب عن اليهود
أو الهند ان لم يكونوا أخذوها عن المسيحيين وبقي أثرها في المسلمين الى الآن .

الكلب المعظمة والبلد الحجازية مكة في ذى الحجة سنة ١٢٢٠ هـ



في يوم الجمعة الطيب والسنة المشيخة النبوية
الاول ابن ابي هاشم بن ابي طالب الخليفة الراشدي

ولقاهم ابراهيم كسوة من الحرير المزركش بالتصيب تأتي اليه سنويا من مصر مع كسوة الكعبة. وشرقي هذه المتصورة سقيفة على طولها وبعرض متر وثمانين سنتيمترا يزدهم الناس لصلاتهم فيها ركعتي الطواف ثم يذهبون الى قبة زمزم وهي شرقي المقام على حدود المطاف مارين على باب شبية ، (وهو باب قائم الآن على اعمدة من جتيه وكان باب الحرم على مدة النبي صلى الله عليه وسلم) وباب هذه القبة الى الشرق وفيها بئر زمزم المشهور وخرزته من الرخام من عمل السلطان سليمان وهي مرتفعة عن سطح الارض بنحو متر ونصف ومن دونها حوض يصب الملائون فيه بدلائهم ومن هذا الحوض يملا السقاون جرارهم الا ما كان لخاصة القوم فانه يملا مباشرة من الدلاء الخارجة من العين وهذه الحركة لا تكاد تنقضي في مدة الحج أبدا وللحجيج اعتقاد كبير في ماها ويتهادون بها في آتية من الصفيح أو الدوارق المحتومة. ويزعم أهل مكة انها نافعة لكل شيء بدليل حديث (ماء زمزم لما شرب له) ويدعي بعضهم انه يشربها اتقاء الجوع فيشبع وأظن ان خدمة العين يبالغون في فوائدها مبالغة يجسم معها الوهم عند شاربها. والحقيقة انه ماء قلوي تكثر فيه الصودا والكلور والجير والحامض الكبريتيك وحض الازوتيك والبوتاسا مما يجعل مائه اشبه شيء بماء فيشي في تأثيره ويفيد قليلا ولا تخلو الكثرة منه من الضرر خصوصا في غير موسم الحج حيث تكون بثرها مهجورة لان أهل مكة لا يشربون منها ملوحتها، وفي هذه الحالة يزيد فيها الحامض الازوتيك بدرجة تجعل مائه غير صالح للشرب . وربما كانت نصيحة بعضهم بالتضلع (كثرة الشرب) منها بعد طواف القدوم لتأثيرها على الجهاز الهضمي بما ينظفه من المواد التي تكون قد انفرت اليه مدة هذا السفر الشاق بما يكون نتيجته رد فعل تنشط به الاعضاء وتصح الجسم .

ولم يقصروا المبالغة في احترام زمزم على مكانها من المسجد الحرام بل بلغ من بعض خدمة المساجد في مصر ان ادعى تفريرا بالجلاء من المسلمين بأن عين الماء التي عنده في مسجده لها منفذ على عين زمزم بمكة (كما هو الحال في شهرة العين التي بمسجد الحنفى بالقاهرة !!) ويثبتون هذه الاكذرية بفرية اشنع منها !! فيقولون ان رجلا من مصر

كان حاجا فسقطت طاسة من يده في بئر زمزم فلما حضر الى القاهرة عثر عليها في تلك العين! ولقد بلغ من اعتقاد الناس في عين زمزم (وخصوصاً الدكارنة والهنود) أنهم يأتون بقطع طويلة من القماش ويفرقونها في مائها ثم ينشرونها على حصباء صحن الحرم حتى اذا جفت حافظوا عليها واوصوا بها لتكون كفنا لهم عند مماتهم وبلغ من اعتقاد بعضهم فيها أنهم يرجون ان تكون هذه البئر المقدسة مقبرة لهم حتى يكون لهم من بركتها وعالى مكائنها مقام كبير في حياتهم الاخرى!!! ولقد حدث في سنة ٩٠٦ ان التي بعض الهنود بنفسه فيها حياً على غرة من خدمتها فاهتم الناس بهذا الامر واستدعوا بالنواصين من جدة للبحث عن جسده ولم يعثروا عليها الا بعد عناء شديد، فاخرجوها ونزحوا منها كمية كبيرة صلح معها ماؤها، أما هذا الجاهل فقد ذهب ولا أدرى الى رحمة الله أو الى نقمته !!

والاعراب يكادون يلصقون زمزم بنفس اركان الحج، فان الشخص منهم يضيف زمزم الى البيت الذي يحج اليه في نفس الامر، واذا حلف فانه يقدم زمزم على مقام ابراهيم في قسمه فيقول « والبيت الحرام وزمزم والمقام ما فعلت كذا مثلاً » وهذا قسم تصد معرفتنا به الى معرفتنا بالعرب من عهد اسماعيل، لذلك ترى الحجاج من الاعراب يدخلون الى زمزم جماعات وزرافات آخذين في صدورهم كل من كان في طريقهم، حتى اذا وصلوا الى الحوض الذي بجوار البئر نزحوا ما فيه على رؤسهم فيسبل الماء على ثيابهم الى أن تبطل جميعها ثم يخرجون فرحين مستبشرين تظلمهم عصي خدمة العين التي ما كانت تؤثر فيهم بالمرّة دون القيام بهذا الواجب الاقدس. وليس الاعتقاد بمثل ماء زمزم خاصاً بالمسلمين فان للهنود اعتقاد عظيم في نهر الكنجج و بحيرة مادن . والنصارى يعتقدون في ماء الاردن الذي يبعد نحو عشرين كيلو مترا الى شرق بيت المقدس ويسمونه نهر الشريعة. لذلك ترى حجاجهم يذهبون اليه ويتبركون بالاستحمام في المكان الذي تعمد فيه المسيح يأخذون من ماءه في آنية من الصفيح يتهادون بها عند عودتهم الى بلادهم، واكثر النصارى اعتقادا في ذلك الروسيون والاقباط أما الافرنج فاعتقادهم في ماء لورده Lourdes في جنوب فرنسا لا يقل عن اعتقادهم في ماء الاردن.

فشل الامراء والملوك

في تحويل الناس عن الكعبة

مما سبق ترى أن الكعبة مشرفة في الجاهلية مشرفة في الاسلام . لذلك اجتهد غير واحد من الملوك قبل وبعد الاسلام في تحويل العرب عن وجهتهم للكعبة الى شئٍ وغيرها . ومن ذلك أنه لما دخلت جيوش الحبشة الى اليمن في نحو سنة ٦٠ قبل الهجرة انتقاما من ذي يزن ملك حمير الذي كان يفتك بنصارى نجران من قومه وغلبيه على أمره وأخذوا البلاد ودانت لهم رقاب أهلها وتفرد أبرهة الاشرم بالحكم فيها ، بنى في صنعاء القليس (الكليسه) وأراد أن يحول إليها حج العرب فسار بجيوشه الى هدم الكعبة . فلما وصل الطائف عرج عن مكة وبعث من ساق اليه أموال أهلها وفيها مائتا بعير لعبد المطلب . فأتى أبرهة وطلب اليه أن يردها اليه . فقال له « أتكلمني في أهلك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك وأنت تعلم أني انما جئت لهدمه ؟ » فقال له عبد المطلب « أنا رب الابل ولليت رب يحميه » فأعطاه ابله فساقها هديا . وأراد أبرهة ان يتحرك على مكة ، فلما وصل قريبا من الازدلفة عند جبال يسمونها جبال النار وجد نوعا من الطير الأبايل (١) قد حلق على الجو وأخذ يرميهم بحجارة من الطين (سجيل) بمقدار حبة العدس ، فلما وصلوا مكة فشا فيهم داء الجدري الذي أصابهم ولا شك من مكروب كان كائناً في الحجارة التي كانت تنساق عليهم من تلك الطيور ، يؤيده قول عكرمة « ان من أصابته الحجرة جدرته » . وكان معهم ذلك الفيل الشهير

(١) وهو مثل صفار العاصفير السود ونوعه لا يزال موجوداً بالحرم يعيش في قبابه وهو معروف في مكة باسم أبايل ويطلقونه على المفرد والجمع وهو ما ذهب اليه أبو عبيدة والفراء حيث قالوا لا واحد له من لفظه . وقال بعضهم مفردة أبايل كسكين أو أبال كغربال أو أبالة بتشديد الباء وتخفيفها .

واسمه محمود فارادوا سوقه على مكة فلم يتمكن من الحركة اليها ومات ويقال انه دفن
بمكانه المشهور بباب جرجول الذي يخيم عنده المحمل المصري، وكانت له قبة كسرها الشريف
عون الرقيق . فلما رأى أبرهة كثرة الأمراض التي تفكك بقومه هرب وتشتت شمل
جيته وصادفهم السيل فاعرق أغلبهم وهلك الباقي في شتاته ولم يصل منهم الى اليمن
الا من أخبر بمخادتهم . وكان ذلك في عام ولادته صلى الله عليه وسلم، والعرب تسميه
عام الفيل وكانت تؤرخ به الى الهجرة فيقولون وقع الامر الفلاني قبل الفيل أو بعده
بخمس سنين مثلا . وذهب ابن الكلبي الى أن واقعة الفيل كانت قبل ولادته صلى
الله عليه وسلم بثلاث وعشرين سنة) .

وذكر المؤرخ اليوناني مالالاس Malala في تاريخه الذي طبع في اكسفورد سنة
١٦٩١ « ان ابرهة الاشم في حملته على مكة كان يركب عربة يقودها أربعة من الفيلة » .

وقد قال ابن الزبيري أياتا يشير فيها الى هذه الحادثة منها هذين البيتين :

سائل أمير الجيش عنا ما ترى ولسوف ينبي الجاهلين عليهما

ستون الفاً لم يؤوبوا أرضهم بل لم يعيش بعد الاياب سقيهما

ومرض الجدري ما كلن يعرف ببلاد العرب قبل هذا الوقت وذكر المؤرخ
الكبير بروكو ييوس Procope (الذي ولد في سنة ٥٠٠ من الميلاد ووصل الى رتبة
الوزارة في القسطنطينية في سنة ٥٦٢) « ان أول ظهور الجدري في مصر كان سنة ٥٤٤
للميلاد في مدينة يلوسيوم (وهي مدينة عظيمة اطلالها قرب دمياط للآن، ومصر في
ذاك الزمن كانت تابعة للرومان كما لا يخفى) ونقلت جراثيمه الى القسطنطينية سنة
٥٦٩ » وهي السنة التي ظهر فيها نفس المرض في جيوش ابرهة حول مكة ولا يبعد أن
الرياح او الطيور نقلت مكروباها الى هذه الجهة في تلك الاثناء ، فكان منها ما كان .
ويؤيد ذلك ما قاله الرحالة روس Ross الايقوسى في رحلته الى بلاد الحبشة فيما بين
سنتي ١٧٦٨ و ١٧٧٢ وقد كتب عن كثير مما عثر عليه من الامور التاريخية
والجغرافية والتاريخ الطبيعي . وذكر فيما ذكره انه رأى في كتب الحبشة ان ابرهة رفع
الحصار عن مكة للمرض الذي أصاب جيشه اذ ذلك واستنتج من صفاته أنه مرض

المجدرى الذى انتشر من ذلك الوقت فى الشرق واخذ يفتك فى الناس فتكاً مريعاً حتى الف فى الرازى رسالته المشهورة فى المجدرى والحصبة والتي لها قيمة كبرى عند أطباء الافرنج للآن خففت من مصابه كثيراً . غير أن هذا المرض الحىث مازال يفتك بينى الانسان حتى اخترع الاستاذ (جونر) Jenner الانكليزى مادة تلقيح المجدرى واشهر أمرها سنة ١٧٦٩ وباستعمالها خفت هذه المصيبة واصبحت لا أثر لها تقريباً فى البلاد المتقدمة ، الا انها لاتزال موجودة بكثرة فى البلاد العربية لعدم العناية بها . لذلك يجدر بكل من قصدها ان يلقح حسمه بهذه المادة قبيل سفره اليها . ومن أعجب ما شاهدت بالبلاد العربية عناية صاحب الجمل السليم بعدم قطره مع جل اجرب خوفاً من سريان العدوى اليه ، فى حين ان العرب أنفسهم لا يهتمون بفصل الاجرب من بنهم عن اخوته الاصحاء الذين لا يهتمون ان يصيروا طعمة لهذا الداء المهلك !!! والله فى خلقه شؤون .

وفى ايام المقتدر العباسي ظهرت فى العراق طائفة القرامطة ، وهم قوم ينسبون الى موالاة محمد بن الحنفية بن علي كرم الله وجهيهما ، ويكفرون من لم يكن على مذهبهم . وأول من ظهر منهم أبو طاهر القرمطى ، وقد بنى داراً فى هجر سماها دار الهجرة ، وأراد ان ينقل الحج اليها : لذلك كان يقصد الطرق الموصلة الى مكة ويقتك بمحجاج بيت الله الحرام ، فانقطع الحج فى أيامه خشية منه . وسار القرمطى الى مكة فى عسكر كثيف أيام الحج ودخل برجله وخيله الى الحرم ووضع السيف فى الطائفين والماكفين والركم السجود على بئته منهم ، وقتل فى مكة وشعابها نحو ثلاثين الفاً واقطع باب الكعبة وجرده مما كان عليه من صفائح الذهب ، واخذ جميع ما فى خزينة بيت الله الحرام من المجوهرات الثمينة ، واقطع الحجر الاسود من مكانه ، وانصرف الى بلاده بعد ان هدم قبة زمزم !!! وبقي مكان الحجر خالياً يتبرك الناس بمحله . وبعد موت أبى طاهر رأى قومه ان من المستحيل تحويل الحج عن الكعبة الى بلادهم . فقام سنبر بن الحسين القرمطى بالحجر الى مكة ، وكان يحيط به برواز من الفضة يضبط به الضلع التى كانت تكسرت منه حين قلعه ، ووضع فى مكانه على الحالة التى تراه عليها الى الآن .

وفي سنة ٤١١ دخل رجل الحرم بصنعه درويش وضرب الحجر بعامود من حديد كان معه . فقامت عليه الاهالى وقتلوه شر قتلة . وكانت قد تطايرت من الحجر ثلاث قطع مثل ظفر الانسان فاخذت والصقت في مكانها بحيث لا يمكن ملاحظتها . ويزعمون ان الحاكم بأمر الله الفاطمى هو الذى كان ارسل ذلك الرجل حتى اذا كسر الحجر الاسود أمكنه تحويل وجهة المسلمين عن الكعبة الى مسجده بجوار باب الفتوح بالقاهرة . ولقد ذهب بعضهم الى ان اهتمام عبد الملك ابن مروان بعبارة بيت المقدس بالفخامة التى كان يعمره بها إنما كان لصرف مسلمى الشام ومصر وما والاها شمالا وغربا الى حجهم اليه اذا تمت الغلبة لابن الزبير على بلاد الحجاز ، وهي تهمة لا تراها في مكانها لما نعتده من كمال دينه ومثانة يقينه رحمه الله .

هذا وأنى اظن ان ما يجرى للآن على لسان بعض السذج من فلاحى مصر من أنه يجىء يوم ينقطع فيه طريق الحج الى مكة وعندها يحج الناس الى مقام السيد البدوى في طنطا إنما كان أترا سياسياً لبعض ملوك مصر يقرب به الى الوهم امكان حصول ذلك حتى اذا سنحت له الفرصة مضى في سبيلها . ومع زوال هذه الفكرة بزوال صاحبها فان هذا الاثر السبى ، بقي على السنة بعض السذج للآن !! ومن هذا تلك الجرأة التى ذهبت بتسمية بعضهم لقبه الميضاة التى تراها فى وسط صحن مسجد بن طولون فى القاهرة بالكعبة ، ولا أدرى اذا كانت هذه التسمية قديمة على عهد بن طولون فنشك فى علمها أو من وضعيات بعض الجهلاء فرجو الله ان يغفرها له .

لهذا ترى خدمة الكعبة الشريفة كلهم عيوننا تباشر حركة الطائفين حول الكعبة المكرمة وخصوصاً الاعجام (١) الذين ينسب لهم أهل مكة ظلماً أنهم لا يتأخرون عن

(١) والسبب في ذلك اما كراهية أهل مذهب ل مذهب آخر يؤيده ما قاله العصامى في

تاريخه من أنه رأى بنفسه القذارة التى كانت على الحجر وعلى استار الكعبة في سنة ١٠٨٨ وكان يظن أنها مجيئة معمولة من دقيق العدس كان الغرض منها الايقاع باهل الشيعة .

أما ما حصل في سنة ١١٥٥ فاصله سياسى محض : ذلك ان ملك الفرس نادرشاه طومان ارسل الى الشريف مسعود في تلك السنة يطلب اليه ضرورة اقامة صلاة خامسة

تدنيس الحجر الاسود اذا سحنت لهم فرصة تمكنهم من ذلك ويقولون أنهم دنسوه في سنة ١٠٨٨ ثم في سنة ١١٤٣ وفي سنة ١١٥٥ حتى يصفروا الناس عنه .

هدايا البيت الحرام

ولعظم مكانة بيت الله الحرام في الناس كانوا يتقربون اليه قديماً وحديثاً بالهدايا الجزيلة والهبات الجليلة والحلى الفاخرة . فكانت تحفظ أولاً في بئر في الكعبة يسمونه شغب أو ععب ، ولكن سدتها كانت تلتهما أولاً فاولا . ومما وصل من هدايا القديمة الى عبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلم غزالان وسيقان من ذهب فضرهما صفاً وصفح بهما باب الكعبة . فلما كان عبد الله بن الزبير حلي اساطينها بصفاً وصفح . وارسل عبد الملك بن مروان بثلاثين الف دينار الى عامله على مكة خالد بن عبد الله القسري ليحلي بها باب الكعبة والاساطين التي في جوفها واركانها من الداخل ، وزاد في ذلك ولده الوليد في عمارته للمسجد الحرام . وارسل الرشيد الى عامله على مكة سالم ابن الحجاج بثمانية عشر الفا من الدنانير فضرها صفاً وصفح على الباب ، وجعل مساميرها وحلقتى الباب وعتبتها من الذهب . وذكر ان المتوكل العباسي عمل زاوية من زوايا الكعبة بالذهب (ولعلها كانت تشققت فلأها ذهباً يربط به طرفها ، ولا يخفى ان هذه المادة تستعمل الآن لثباتها في ربط الاجزاء الثمينة بعضها ببعض) ثم كسى عتبة الباب بالفضة وعمل له عضادتين من الذهب بدل اللتين أخذها بعض امراء مكة . وذكر أيضاً ان أم المقتدر العباسي أمرت في سنة ٣١٠ فالبست جميع اسطوانات البيت ذهباً حتى اذا دخلت القرامطة سنة ٣١٧ الى مكة جردت البيت

في الحرم للشيعة . فارسل بالخبر الى الدولة العلية فآهت الشريف بانه مشايخ للاعجام . فتخلصا من هذه التهمة آتهم هو بهذه الفعلة الشنعا حتى يوغر عليهم صدور الناس وأمر بان تلعن الرافضة على المنابر ولا يزالون يلغنونهم عليها في الحرمين الى الآن !!!

من جميع ما كان به من الحلي والذخائر .
وفي سنة ٥٥٢ اقتلع الخليفة المقتدى باب الكعبة وعمل عوضه بابا مصفحا بالذهب
وعمل من القديم تابوتا له يدفن فيه بعد موته .
وقد كانت أيدي السلاطين والامراء والملوك لا تقف في أى زمن من الازمان
عن تقديم الهدايا النفيسة الى بيت الله الحرام كما كانت يد الاشقياء من الناس لا تقف
عن التناول اليها ! سواء في ذلك حجبتها أو غيرهم ! ! ومن جدد بعض الحلى التي عبث
به هؤلاء الاشرار كثير من الملوك والامراء نخص بالذكر منهم السلطان الناصر
(قلاوون) ثم السلطان سليمان القانوني ثم السلطان مراد الرابع .

كسوة الكعبة

أما كسوة الكعبة داخلا وخارجا فهي من زمن بعيد وأول من كساها أبو كرب
اسعد ملك حمير في نحو سنة ٢٢٠ قبل الهجرة حين مر عليها راجعا من غزوته ليثرب
(وكان يهوديا) كساها بالجلد، وتبعه خلفاؤه فكانوا يكسونها بالقباطى (قماش مصرى)
زمننا طويلا . ثم أخذ الناس يقدمون اليها الهدايا من الكساوى المختلفة فيلبسونها على
بعضها وكان اذا بلى منها ثوب وضع عليه ثوب آخرالى زمن قصي فوضع على القبائل
رفادة لكسوتها سنويا واستمر ذلك في بينه ، وكان أبو ربيعة بن المغيرة يكسوها سنة
وقبائل قريش تكسوها أخرى فسبي بذلك العدل لعدله بين قبائل قريش في كسوة
الكعبة . وقد كساها النبي صلى الله عليه وسلم بالثياب البمانية . ثم كساها عمر وعثمان وابن
الزبير وعبد الملك بن مروان . ولما حج الخليفة المهدي العباسى سنة ١٦٠ كان على
الكعبة جملة كساوى فشكا اليه سدننها من كثرتها فأمر بها فانزلت تخفيفا عن سقنها ،
وأمر بان لا تعلق عليها الا كسوة واحدة فكان كذلك الى الآن .
وكان العباسيون يبالغون في العناية بكسوتها وكانت من الحرير الاسود (وهو

شعار العباسيين) وكانوا يعملونها بمدينة تيس المصرية التي كانت لها شهرة عظيمة في المنسوجات الثمينة (انظر مادة تيس بالمقريزي) وكانت ثغرا لمصر في شمال دمياط فهدمها الملك الكامل سنة ٦٢٤ لكثرة ما كانت توقع بها مراكب الفرنجة في الحروب الصليبية وما كانت تكلفه مصر في المحافظة عليها ولا تزال اطلالها موجودة قرب مدينة المطرية (دقيلة) .

وقد قال الفاكهي في اخبار مكة : رأيت كسوة مما يلي الركن الغربي (يعني من الكعبة) مكتوبا عليها « مما أمر به السرى بن الحكم وعبد العزيز بن الوزير الجروى بأمر الفضل بن سهل ذى الراسين وطاهر بن الحسين سنة سبع وتسعين ومائة » ورأيت شقة من قباطى مصر في وسطها الا أنهم كتبوا في اركان البيت بخط دقيق اسود « مما أمر به أمير المؤمنين المأمون سنة ست ومائتين » ورأيت كسوة من كسى المهدي مكتوبا عليها « بسم الله بركة من الله لعبدالله المهدي محمد أمير المؤمنين اطال الله بقاءه مما أمر به اسماعيل بن ابراهيم أن يصنع من طراز تيس على يد الحكم بن عبيده سنة اثنتين وستين ومائة » ورأيت كسوة من قباطى مصر مكتوبا عليها « مما أمر به عبدالله المهدي محمد أمير المؤمنين اصلحه الله محمد بن سليمان أن يصنع من طراز تيس كسوة الكعبة على يد الخطاب بن مسلمة عامله سنة تسع وخمسين ومائة » . وكان من أعمال تيس قرية يقال لها تونه وكانت تصنع بها كسوة الكعبة أحيانا : قال الفاكهي : ورأيت أيضاً كسوة لهرون الرشيد من قباطى مصر مكتوبا عليها « بسم الله بركة من الله للخليفة الرشيد عبدالله هرون أمير المؤمنين اكرمه الله مما أمر به الفضل بن الربيع ان يعمل من طراز تونه سنة تسعين ومائة » .

وما زال العباسيون يهتمون بأمر كسوة البيت المعظم حتى اذا ضعف أمرهم صارت ترسل نارة من ملوك اليمن وأخرى من ملوك مصر حتى استقرت الكسوة الشريفة في سلاطين مصر ووقف عليها الملك الصالح ابن الملك الناصر بن قلاوون قريتي باسوس وسنديس قليوية . فصارت ترسل الكسوة الخارجية السوداء سنويا إليها . وكان كلما تجدد ملك أو سلطان يرسل للكعبة بكسوة داخلية حمراء وبأخرى

خضراء، للحجرة الشريفة النبوية حتى استولت الدولة العلية على مصر فاختصت بعمل الكسوة الشريفة النبوية وكسوة البيت الداخلية واختصت مصر بعمل كسوة الكعبة الخارجية . ومن ثم صارت ترسل من مصر هذه الكسوة المباركة سنويا : وهي ثمانية ستائر من الحرير الاسود المكتوب بالنسيج في كل مكان منه لا اله الا الله محمد رسول الله وطول الستارة نحو خمسة عشر مترا ومتوسط عرضها خمسة أمتار وبعض سنتيمترات وكل ستارتين تعلقان على جبهة من جهات الكعبة ، فتربطان من اعلاها في حلقات من الحديد غاية في المتانة قد ثبتت في سقف الكعبة ، ثم تربطان الى بعضها بواسطة عري وازرة وثبتان من اسفل في حلقات وضعت في الشاذروان ، وهكذا كلما وضعت ستارة ثبتت في التي بجوارها بواسطة هذه الازرة حتى اذا انتهت كلها صارت كالقميمص المربع الاسود . وركب على محيط البيت المعظم فوق هذه الستائر فيما دون ثلثها الاعلى حزام يسمى رنك مركب من اربعة قطع مصنوعة من الحيش المذهب مكتوب فيه بالخط الجميل العربي آيات قرآنية كتبها مع غيرها من اعمال الكسوة الشريفة ، في زمن المرحوم اسماعيل باشا خديوى مصر ، الكتاب الخطاط الطائر الصيت النادرة النابغة المرحوم عبد الله بك زهدي أحسن الله اليه . ومكتوب على الحزام من الجهة التي فيها باب الكعبة « بسم الله الرحمن الرحيم واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود . واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا امة مسلمة لك وارنا مناسكنا وتب علنا انك انت التواب الرحيم » ، ومكتوب في الجهة التي تليها من جهة الحجر الأسود « بسم الله الرحمن الرحيم قل صدق الله فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين ان اول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام ابراهيم بسم الله الرحمن الرحيم واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ان لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود واذن في الناس بالحج ياتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » ومكتوب في الجهة المتقابلة للقمام المالكى ليشهدوا

لهم وينذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها
واطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تقصمهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق «
ومكتوب في الجهة الرابعة وهي التي بها الميزاب » في أيام دولة مولانا السلطان الاعظم
ملك ملوك العرب والعجم السلطان محمد الخامس خان ابن السلطان عبد المجيد خان ابن
السلطان محمود خان الغازي ابن السلطان عبد الحميد خان ابن السلطان احمد خان ابن
السلطان محمد خان ابن السلطان ابراهيم خان ابن السلطان مراد خان ابن السلطان
عثمان خان خذ الله تعالى ملكه .

ومصاريف الكسوة تصرف الآن من المالية وميزانيتها سنويا ٤٥٥٠ جنيه
مصريا ويانها هكذا .

٥١٥	٣٨٠٥٠	متقالا	١٤٩٣٥	متقالا	٣٨٠٥٠	متقالا فضة بيضا .
١٦٦٤	٤٧	نفرا	٤٧	نفرا	٤٧	نفرا
١١١١	٧٠	نفرا	٧٠	نفرا	٧٠	نفرا
٢٠٠						
١٥٠						
٦٠						
٨٥٠						
٤٥٥٠						

الا ان الجناز العالي الخديوي بعد عودته من الاقطار الحجازية أمر حفظه الله
بزيادة العناية بالكسوة الشريفة مما سيزيد في ميزانيتها عن ذلك .

ويتبع هذه الكسوة الشريفة ستارة باب الكعبة من خارجها ويسمونها بالبرقع
وستارة باب التوبة من داخلها ، وكيس مفتاح بيت الله الحرام ، وكسوة مقام الخليل
ابراهيم عليه السلام ، وستارة باب منبر الحرم الشريف وهي من الاطلس المصنوع بالتحيش
الذهبي والفضي ، ويرسل مع هذه الكسوة غلايتان من النحاس مملوءتان بماء الورد النقي

لغسيل الكعبة المكرمة .

والكسوة الشريفة تعمل في القاهرة سنويا وعند آتمامها يعمل لها موكب عظيم في نحو منتصف شهر القعدة يحضره الجناب العالي الخديوي أو نائبه وينتهي بها هذا الموكب الى مسجد سيدنا الحسين رضي الله عنه حيث يسلمها حضرة مأمور تشغيلها الى المحاملى فى مجلس يعقد بحضور نائب من قبل سماحة قاضى مصر وبشهادة حضرة أمير الحج للسنة المرسله فيها و بعد ان يعمل بذلك اشهاد شرعي توضع الكسوة الشريفة فى صناديق وترسل مع ركب المحمل .

المحمل

ذهب بعض المؤرخين الى ان المحمل بيتدى تاريخه من سنة ٦٤٥ هجرية وقالوا أنه هو المودج الذى ركبت فيه شجرة الدر ملكة مصر فى حجها فى هذه السنة ، وصار بعدها يسير سنويا امام قافلة الحاج وليس فيه من أحد لان مكان الملوك لا يجلس فيه غيرهم . والذى أراه ان المحمل قديم جدا وربما كان من قبل الاسلام ، وكان يطلق على الجمل الذى يحمل الهدايا الى الكعبة المكرمة ، وقد سير رسول الله صلى الله عليه وسلم محملا الى مكة بهدايه الى البيت المعظم ، ومن ذلك ما نراه فى التواريخ من اسم المحمل العراقى والمحمل اليمنى وما نشاهده الآن من محمل ابن الرشيد (١) ومحمل ابن سعود ومحمل ابن دينار ، وهى تحمل صرتهم الى الحرمين مغطاة بقطعة بسيطة من الجوخ . ولقد جاء فى الكلام على دارفور فى تاريخ السودان لنعوم بك شقير تحت عنوان صرة الحرمين ما نصه : « وكانت سلطة الفور مستقلة عن دول الارض كلها لا تدفع جزية لاحد

(١) وأمير محمل ابن الرشيد يسمونه سبهان ، وهذا الاسم وان كان من أسماء الاعلام هناك الآن الا ان أصله فارسي : وهو (لفظ جمع) معناه الجنود ، ومفردده سبه بمعنى الجندي .

ما عدا الحرمين الشريفين فانها كانت تخدمهما بمحمل وصرة كل سنة فكان موكب المحمل يأتي (٢) الى مصر ومعه الريش والصمغ وغيرها من خيرات البلاد فيبيعها ويتم بثمنها تقود الصرة ثم يستطرد الحج الى الحرمين مع الركب المصرى .

وعليه فمحمل شجرة الدر انما كان يسير امامها حاملا الهدايا التي أخذتها معها للبيت المكرم في هودج مزين بابهى زينة وغاية ما هناك انها غنيت به وربت له كثيرا من الخدم والحشم ، ومن ثم صار عادة تقوم بها ملوك مصر كل سنة وما زالوا يبالغون في زينته من سنة لأخرى حتى صارت كسوته بحيث لا يستطيع الجمل حمل غيرها معها ، (وكسوة الجمل الحالية مع هيكله الحشبي لا تقل عن ١٧ قنطارا) وصار ما كان يحمل عليه من الهدايا يحمل في صناديق على جمال أخرى تسير مع الحملة .

والمحمل يعمل له يوم خروجه من مصر احتفال كبير من أيام الدولة الايوبية . وهذا الاحتفال الآن له يوم مشهود بالقاهرة تمشى فيه الجنود الراكبة والبيادة وحرس المحمل وركبه وخدمته من ضوية وعكامة يتقدمهم أمير الحج الذى يعينه الجناح العالى الخديوى سنويا ، وهو من الباشوات العسكريين فى الغالب ، وبعد ان يدور المحمل دورته المعتادة فى ميدان القلعة يمر على المصطبة وهي المكان المعد لجلوس الجناح العالى الخديوى يوم هذا الاحتفال ومعه رجال حكومته السنوية من الوزراء الفخام والعلماء الاعلام وكبار وذوات العاصمة وهناك يأتى حضرة مأمور الكسوة الشريفة ويده زمام جمل المحمل فيستلمه الجناح العالى منه ويسلمه الى أمير الحاج ، وعندها تضرب المدافع ويسير الموكب تتقدمه أشاير السادة الصوفية ثم الجنود ثم جمل المحمل يتقدمه أمير الحاج ويتلوه المحاملى والجماله ثم الفرائجية (الطباون) علي جمالم . ويستمر هذا الموكب سائرا الى المحجر فالدرب الاحمر ويمر من بوابة المؤيد فالغورية فالتحاسين فباب النصر فالعباسية وهناك يتفرق الموكب وينزل ركب المحمل الى خيامهم التي تكون ضربت لهم فى فضاء العباسية ، وينصب المحمل فى وسط ساحتها ليزوره من يريد التبرك به حتى اذا

(٢) اما الآن فمحمل ابن دينار يتوجه الى الخرطوم ومنها بالطريق الحديدى الى

بور سودان ومنها يركب البحر الى جده .

كان يوم السفر الى السويس تنلوه مع أدواتهم وذخائرهم الى وابور المحمل الذي يكون متهيئاً في محطة العباسية ، وبعد الشحنة يسير بهم على بركة الله الى السويس ، ومنها يجر الى جدة ، ثم يقصد مكة برا ، وهناك تسلم الكسوة الى حضرة الشيبى القائم بسدانة الكعبة بأشهاد شرعي يحضره العلماء والكبراء فبقي في منزله الى صباح يوم عيد النحر فيؤتى بها على اعناق الرجال وتعلق على الكعبة بعد انزال الكسوة القديمة ، ويكون المسجد عادة خلوا من الناس لان سوادهم يكون بمنى ، ولا يصبح مكة منهم الا نفر قليل .

الكسوة القديمة

والكسوة القديمة يرسل المقصب منها عادة الى نيابة الشريف ، واذا كان الحج بالجمعة يرسل الى جلالة السلطان ، والباقي يأخذه الشيخ الشيبى فيبيعه على الحجاج ، وبجوار باب السلام دكاكين مخصوصة لذلك . وقيل الحج يقطع الشيبى نحو مترين من اسفل ستائر الكعبة ويعوضها بازار من البقعة البيضاء بسمونه احراما ، وليس لهذا عندي من معني اللهم الا لحاق الوقت لبيعه قبل الموسم على الحجاج بثمن كبير . ويستندون في بيع كسوة الكعبة على حديث عائشة الا ترى لعمان بن عفان رضي الله عنهما : وكان عمر ينزع الكسوة القديمة كل سنة ويفرقها على الحجاج وتبعه في ذلك عثمان الى ان وجد شيئا منها على حائض فأمر بحفر حفرة والتي فيها الكسوة القديمة واهال التراب عليها خوفا من أن يلبسها جنب أو حائض ، فقالت له عائشة « ان ثياب الكعبة اذا نزع عنها لا يضرها من لبسها من حائض ولكن بعها واجعل ثمنها في سبيل الله تعالى وابن السبيل » .

ولم يكن بيع استار الكعبة أو كسوة مقام الرسول صلى الله عليه وسلم للتبرك بهما مما يؤخذ علي المسلمين في دينهم فان الاعتقاد في آثار الانبياء والصالحين شيء قديم في

جميع الشعوب . واعتقاد النصارى من الفرنجة في آثار ابابا عظيم جدا : فقد حدثني صديقي عزيز بك الفلكي ان خالته (وهي فرانسوية الجنس) كان عندها قطعة صغيرة من نعل البابابي التاسع طولها ٢ سنتى متر فى عرض نصف سنتى ، اشترتها باربعين جنيها وغلفتها بصفيحة من الذهب وكانت تحملها تيممة ثمينة تقي بها جميع الامراض والطوارئ السيئة : على أن مجرد الاعتقاد فى مثل هذه الظروف لا يخلو من الفائدة الفعلية .

والمحمل المصرى كسوتان كسوته المتأداة وهى من البقعة الخضراء وكسوته المزركشة ولا يلبسها الا فى المواكب الرسمية . وفى أيام وجوده بمكة يوضع فيما بين باب النبي وباب السلام بكسوته اليومية . فيكون هناك منارا للناس على اختلاف اجناسهم ولا ينقلونه من هذا المكان الا فى مواكبه الرسمية . وعند السفر به الى المدينة المنورة يسير اليها ركبها أما بالبر من الطريق السلطاني أو الفرعى أو الشرقى ، وأما من طريق البحر من جده الى ينبع ومنها برا الى المدينة او الى الوجه ، ومنه الى محطة العلاء ، ثم يتوجه فى السكة الحديدية الى المدينة ، ومن مدة ثلاث سنين والمحمل يسير فى هذا الطريق الاخير لتعنت اعراب الطريق البرى من مكة وينبع وتشددهم فى طلباتهم وزيادة مراتبهم .

وعند وصول المحمل الى المدينة المنورة يدخلها باحتفال كبير من باب العنبرية ، وهناك يطلق له واحد وعشرون مدفعا ، حتى اذا وصل الى الباب المصرى يترجل كل من فى موكبه اجلالا لمقام الرسول صلوات الله عليه ، فاذا وصلوا الى باب السلام أتى شيخ الحرم واستلم زمام الجمل وأصعده على سلم الباب وأناخه على تلك الصدفة الواسعة ، وهناك يرفع المحمل ويوضع فى مكانه من الحرم غربى المنبر الشريف وترفع كسوته المزركشة ويلبسونه الكسوة الخضراء ويلبس أمير الحاج ومن معه من المستخدمين لباس الخدمة فى الحجرة الشريفة : وهو فرجية يضاء مشدود عليها حزام أبيض وعمامة كذلك ، ثم يحملون كسوة المحمل بكل احترام ويدخلونها فى الحجرة الشريفة من الباب الشامي وتتركونها فى جانب من ساحة مقام السيدة فاطمة رضي الله عنها . ولا تزال الكسوة بالحجرة الشريفة حتى يخرجوها منها يوم سفر

المحمل من المدينة المنورة ، ويوكون بها في يوم خروجه من المدينة كما كانت الحال في يوم دخوله .

وعند عودة المحمل الى مصر يحتفل بقدمه رسمياً احتفال كبير يحضره الجناب العالي الخديوى أو من ينيبه عنه ، فيسير الموكب من العباسية الى القلعة من الطريق الذى كان خرج منها ، حتى اذا وصل الى مكان الجناب العالي الخديوى فى المصطبة استلم سموه زمام الجمل من أمير الحاج وسلمه الى حضرة مأمور تشغيل الكسوة ، وعندها تطلق المدافع ويتم الاحتفال . وتحفظ كسوة المحمل بمخزن فى المالية ، وهذه الكسوة تجدد كل عشرين سنة مرة وتبلغ تكاليفها نحو الف وخمسمائة جنيه مصرى . اما كسوته الخضراء فيكسى بها سنويا بعد عودته ضريح سيدى يونس السعدى (بجبانة باب النصر) وأظن أنه كانت له خدمة مدة حياته فى سفريه المحمل .

واليك كشفاً ببيان ما يصرف من المالية سنويا فى تسفير المحمل والمرتبات الجارى صرفها فى مكة والمدينة المنورة حسب الوارد فى الميزانية الاخيرة .

جنيه	
٠١٢٨٢	مرتبات وتعيينات لامير الحاج ومستخدمي المحمل
٠٢٥١١	» العربان
٠١٤٩٣	» الاشراف بمكة والمدينة المنوره
٠١٩٦١	» تكية مكة
٠١٦٥٧	» تكية المدينة المنورة
٠٢٨٧٩	» أهالى مكة والمدينة
٢٢٥٠٠	ثمن ومصاريف قح الصدقة بمكة والمدينة
٠١٦٢٩	» شمع وقناديل للحرمين
٠٤٢٤٨	اجرة منقولات برا وبحرا واجر جمال
٠٠١٥٥	ثمن خيام وقرب وخلافها
٠٠٢٦٥	مصاريف نثرية

	جنيه
مرتبات لمكة والمدينة تصرف سنويا من أوقاف الحرمين والاقواف	٣٠٠٠
الخصوصية والاهلية والخيرية ومن الخاصة الخديوية والمالية	
قيمة ما يرسل كل سنة الى الحرمين الشريفين من الزيت والحصر	٠٦٤٢٠
وخلافها من ديوان الاوقاف	
	<hr/>
مجموع المنصرف سنويا .	٥٠٠٠٠

وإذا قارنت هذا المبلغ بما جاء في المقرري عند الكلام على قافلة الحاج وجدت أنه نحو نصف ما كان يصرف عليها في زمن الفاطميين . قال المقرري : « قال في كتاب الذخائر والتحف ان النفقة على الموسم كانت في كل سنة تسافر فيها القافلة ، مائة ألف وعشرين الف دينار ، منها ثمن الطيب والحلوى والجمع راتباً في كل سنة عشرة آلاف دينار ، ومنها نفقة الوفد الواصل الى الحضرة أربعون الف دينار ، ومنها في ثمن الحمايات والصدقات واجرة الجمال ومعونة من يسير من العسكرية وكبير الموسم وخدم القافلة وحفر الآبار وغير ذلك ستون الف دينار ، وان النفقة كانت في أيام الوزير البازوري قد زادت في كل سنة وبلغت الى مائتي الف دينار ولم تبلغ النفقة على الموسم مثل ذلك في دولة من الدول » .

ولقد كان لركب المحمل في الدولة المصرية شأن كبير ومقام خطير وكان لأميره المكانة العليا والكلمة النافذة في بلاد الحجاز وكثيرا ما كان يصدر أمره بعزل وتولية امراء مكة . ولقد بلغ من مبالغة ملوك مصر بالاحتفال بالمحمل أنهم قضوا على جميع حكام البلاد التي كان يمر عليها في طريقه بان يقبلوا خف جمل المحمل عند استقباله وما زالت امراء مكة يقبلونه أيضاً في استقبالهم له الى أن أعفاهم من ذلك السلطان جقمق في سنة ٨٤٣ . وكان الاحتفال بطولوع وعودة المحمل مدة سيره على البر في أواخر زمن اسماعيل من الفخامة بمكان عظيم وكان عند عودته يلبون السكر فرحاً به في احواض كبيرة ثلاثة أيام يشرب منها الغادون والرائحون وهي عادة قديمة جدا . وكان يخرج معه في خدمته غير حضرات مستخدميه من أمير وأمين صرة وكتبة وصيارف

كثير من الخدم والحشم والعكامة والجمالة والفرايحية والنجارين والفراشين والخيمة والسقائين وكان ضمن وظائف الحمل وظيفة أسما أمين الكساوى والمويات ، وكان تحت يدموظفها المويات والكساوى التى كانت ترسل للعرب واستعيض عنها الآن بصرف أثمانها لاربابها . وكان يخرج معه موظف برسم مأمور الذخيرة ، وكان فى عهدته البقساط الذى كان يؤخذ فى السفرىة لما عساه يحصل فى الايام غير المعتادة التى كانوا يحتاجون فيها للصرف على الحجاج اذا قضت الضرورة ، فابطلت هذه المأمورية أيضاً لعدم الحاجة اليها . وكان من ضمن خدمته رجل يقال له شيخ الجمل وآخر اسمه أبو القلط وسائس الهرجاة (مقدم العيط) وسراق المقاطيع : وكانت وظيفة الاول انه كان يشتري الجمال اللازمة للمحمل ، ويركب وراء جمل المحمل فى موكبه ملاحظته فى سيره من الخلف كما يلاحظه المحاملى فى سيره من الامام . أما الثانى فيقولون أنه كان يقوم بفضاء القلط التى كانت تتبع ركب المحمل مدة سفره فى البر ، ويقول بعضهم ان وظيفته كانت من عهد حج شجرة الدر ، ويقول آخرون انما كان هذا اسمه أما وظيفته فى التى غيروها بوظيفة امام المحمل ، أما الثالث فقد كان رئيساً للضوية والعكامة يستدعيهم عند ما تكون هناك حركة مهمة فيأتون بغير نظام بين صياح وهياج وكلام والرابع كان يباشر الذين يقعد بهم المرض أو ضيق ذات اليد عن الاستمرار مع الركب وجميع هؤلاء كان تعيينهم بقرمانات مخصوصة بعضها من السلطنة وبعضها من ولاة مصر ولهم مراتب بالرزنامة من عهد بعيد . وقد استغنى عن كثير منهم فى سفرىة المحمل الآن لعدم الحاجة اليهم مع صرف مراتبهم لهم ، كما استغنى أخيراً عن وظيفة أمين الصرة التى يؤديها الآن واحد من كتبة المالية تندبه النظارة .

وكان للمحمل عشرون جملاً لهذه المأمورية وكان لها مناخ فى بولاق بجوار شيخ اسمه سيدى سعيد ، وكانت الحكومة فى الزمن السابق تشتري مع هذه الجمال جملاً تجعله فداء عنها كل سنة ، : فيأتى به الجمالة قبل موكب الحج وعليه شيخ الجمل ومعهم العكامة والضوية وأممامهم الفرايحية يحيط بهم كثير من الغوغاء ، ويمرون فى القاهرة ثم يذهبون الى باب الشيخ سعيد ويذبحونه هناك . وكان المحاملى يأخذ ربه والجمالة ربه وخدمه

الشيخ سميد ربه وخدمة الشيخ يونس الربع الباقي . وكانوا يبيعون لحمه من الناس على سبيل البركة مدعين أن لحمه ينفع للصدع ، وشحمه للبواسير لذلك فأنهم ما كانوا يلقون به الى الارض بقصد ذبحه حتى يهجم عليه الحاضرون ويقطعونه ارباً ارباً بمداهم قبل ذبحه ويأخذ كل منهم ما تسمح به قوته . وكان كثيراً ما يؤدي ذلك الى ضرر جسيم يستهين به هؤلاء الجهلاء في جانب هذا الاعتقاد السخيف . فلما بلغ ذلك الى الجناب العالى حفظه الله أمر بابطال هذه العادة الشنيعة مع صرف قيمة ثمن الجمل الى اربابه جزاه الله عن الدين والانسانية أحسن الجزاء .

حمام الحمى

حمام الحرم المشهور بحمام الحمى يملأ سطوح الحرم ومناذره وطاقاته ، فتجده معشاً هنا وهناك ، ويجمع زرافات زرافات في جهات كثيرة من صحن الحرم وعلى الخصوص في الجهة الغربية ، حيث يوجد غير واحدة من فقراء القوم يبعن حب القمح للحجاج والزوار بقصد لقائه الى جيوش هذه الحمامات المستأنسة التي تكاد ترفرف على رؤوس القوم لانها لم تعرف منهم في حياتها الا كل لطف وانس . وليست هذه الخصيصة بنوع الحمام ، ولكن كل حيوان دخل الحرم فهو آمن ، حتى ذهب بعضهم الى عدم قتل الحية أو العقرب في الحرم احتراماً له واكراماً لها فيه . وانفراد الحمام بوجوده في الحرم لا أظنه الا لسهولة انسه وقلة جفائه . ومن أغرب ما يروى عن هذا الحمام أنه مع كثرتة في الحرم لم يشاهد منه شيء على البيت (الكعبة) الا نادراً جداً . وفي الجهة الشرقية من مكة تحت جبل أبي قيس بئر يقال لها بئر الحمام يجتمع عنده كثير منه ليشرب بمجرته ثم يذهب الى حيث أراد . وهذه البئر قديمة جداً وأظنها من زمن الجاهلية . كما أنى أظن أن احترام الحمام هنا أيضاً من زمن بعيد ، وعلى كل حال فهو مكرم للبيت سواء قبل الاسلام وبعده . والقول بأنه من نسل تلك الحمامة التي عششت

في الغار على النبي صلى الله عليه وسلم أما يزيد في احترامه واعظامه . وليس الحمام بمحترم فقط هنا بل هذه عادة قديمة جدا: فبنو نوح كانوا يكرمونه لانه أول من بشرهم بظهور اليايسة مدة الطوفان . واحترامه عند النصارى يقرب من درجة التقديس لأنه يمثل عندهم روح القدس، ويقولون أنه عند ما كانوا يفسلون المسيح في نهر الاردن وهو صغير جاءت حمامة وحطت على رأسه ، لذلك يرسمونها في كنائسهم وعلى صورهم الدينية ، ومن هذا ترى الحمام قد أطلقت له الحرية في كنائس القوم في أوربا وخصوصا في كنائس ايطاليا والنمسا وبعض كنائس فرنسا ، وقد تعدى هذه الكنائس الى منافذ المساكن وكرانيشها وأسطحها وأشجار الشوارع العمومية وبساتينها فاذا ذهبت الى فينا أو روما مثلا وجدته هنا وهناك في كل مكان من غير أن يؤذيه أى انسان . وأثر هذه العقيدة باق في الحمام الذى لا يزال في مدينة القسطنطينية الى يومنا هذا وتراه على الخصوص في مسجد بايزيد ، غير أن أهل الاستانة قد بالغوا في اكرامه حتى حرموا ذبحه في الاستانة، فهم لا يأكلونه أبدا سواء في ذلك مسلموهم ونصاراهم ويهودهم ، أما ما ذكر من أن المسلمين يعتقدون أن حمام الاستانة من ذرية حمام الغار (الذى يقولون عنه انه كان يخبر الرسول بجميع ما كان يفعله المشركون) فانه لا اصل له عندهم كما لا أصل في دينهم لتلك المأمرية التى كان يؤديها حمام الغار . والشيعه من العجم يعتقدون مثل هذا الاعتقاد في حمام الحرم ، ويزعمون أنه هو الذى أخبر أهل المدينة المنورة بقتل الحسين رضي الله عنه .

والصينيون يستعملونه من زمن بعيد في استكشاف بختهم على مثل ما يستعمله بعض الاروام الآن في طرقات مصر : فيأتون للحمام يطبق فيه جملة أوراق مطوية مكتوب فيها شئ من الخير أو الشر ، فتأني الحمامة وتستخرج بمنقارها واحدة، منها يكون فألم ، ويسمون هذه الحمامة باك . كوپ . بن (Pak - Kop - Pin) يعنى الحمامة ذات الورقة البيضاء .

ولقد كان الحمام عند الساميين هو الحيوان المقدس للاله عشطورت (Astarte) . وكان عند الفتيقيين واليونانيين والسوريين يمثل السماء والنجوم . وأظن أن احترامه

عند العرب في الجاهلية لم يأت الا من هذا الطريق . لذلك كانوا يصنعون تمثال حمامة داخل الكعبة بجوار تمثال هبل . ولقد ورد في سيرة ابن هشام عن صفية بنت شيبة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزل مكة بعد الفتح وطاق بالبيت دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها .

على أنا لو صرفنا النظر عن كون الحمام لطيفاً في شكله ، أنيساً في نوعه ، جميلاً في صورته ، نظيفاً في لباسه ، يمثل في عائلته المحبة الحقيقية والشفقة الحسية ، فانا نرى فيه درساً عائلياً كبيراً : نرى الذكر منه مع انثاه يعملان لحياتهما وحياة عائلتهما عمل المجدين المجتهدين ، حتى اذا فرغا من واجبهما الاهلى تفرغا الى حياتهما الزوجية : فتراهما بين تواقى وتعاشق وتهانق ، لا ينفصلان الا ليتصلا ولا يفترقان الا ليجتمعا فى جلايب جمال وأساليب دلالة مما لا يرى له مثال في زوجين من غير نوعهما على كل حال .

على ان الحمام له على الانسان خدمة تذكر قتشكر : فقد كان من القرن الثامن قبل المسيح الى منتصف القرن التاسع عشر يودى وظيفة التلفزيون بين الامم المختلفة حتى اعلن مرس ووطنون سنة ١٨٤٤ تليفونها الكهربي الذي لا يشك أحد في انه افاد العالم بأسره فائدة جسيمة ، وكان من اكبر الاشياء التي ساعدت على التمدن العصري وانتشاره بسرعة . ولكن هل هذه الفوائد الجسام التي بين ظهر انينا تنسينا فضل ذلك الحمام ؟

ولتكلمة الفائدة تقول لك ان اول من استعمل الحمام في الزجل هو رجل من جزيرة أوجين (من جزر اليونان) أتى في سنة ٧٧٦ قبل المسيح الى آتينا ليحضر الالاب الاولية واستحضر معه حمامة كانت عنده أخذها من بين افراخها . فلما غلب في هذه الالاب ارسل الحمامة فذهبت الى عشا ، ومن قدمها علم أهل الرجل بنجاحه في مأموريته . ومن ثم استعمله اليونان والرومان والعرب والمصريون في مراسلاتهم ، وكان لمصر وخصوصاً زمن الايوبيين والفاطميين مصلحه للرسائل ، وكان بها في كل جهة بيت للحمام ، وكل ما فيه غريب من جهات متعددة ، فاذا ما أرادوا ارسال مكتوب الى أى مكان ارسلوه

على جناح حمامه من جهته ، الا أنهم كانوا يرسلون الرسالة على حمامتين بعد ما حصل في حصار الفرنجة لمكّا : ذلك لان المسلمين في عكا أرسلوا رسالة الى صلاح الدين الايوبي بواسطة حمامة من حمامهم ، فتبعها طير جارح وضربها فسقطت في معسكر العدو الذي عرف منها مواقع الضعف من عدوه. ولعلك تذكر لما نزل لويس التاسع ملك فرانس الى دمياط سنة ١٢٧٠ وسار بجنده على المنصورة، أخذ ملك مصر الملك الكامل خبره بواسطة الحمام الزاجل فسير اليه جيوشه فوقفته عند حده حتى كان ما كان من انهزام جنوده عند المنصورة وأخذ أسيرا وسجنه بها الى ان تم الصلح بينه وبين ملك مصر فأطلقه وسافر الى تونس ومات فيها . وفي حبسه يقول بعضهم .

قل للفرنسيس وان أنكروا حبس لويس في مقال صحيح

دار ابن لقمان على حالها والقيد باق والطواشي صحيح

والحمامة تقطع في طيرها من سبعين الى ثمانين كيلو مترا في الساعة ولها صبر على الجوع جملة أيام ولكنها لا تصبر على العطش .

وكان لهذا الحمام في حصار المانيا لباريس بين سنة ١٨٧٠ وسنة ١٨٧١ أكبر فضل في ربط اجزاء المملكة الفرنسية بعاصمتها .

وربما كانت هذه الحكومات قد قضت ان لا يمس جنس الحمام بسوء حتى لا يكون نوع الزاجل منه عرضة لاذى الصيادين وخلافهم فيؤدى . أموريته وهو في غاية الهدوء والطأنينة .

ولقد كان عباس باشا الاول والى مصر رجع الى تربية هذا الحمام واستكثر من أنواعه ولكن مات رحمه الله قبل ان يتم غرضه ، وأخذ بعض ذوات القاهرة عنه هذه الغية ولكنهم اقتصروا على تربيته وتطيره في محيط ديارهم ، وقد يعلمه بعضهم الصبر على الطيران خصوصا اذا التحم بجمام آخر حتى اذا اتعب ما معه من الحمام الغريب أمكنه استهواؤه الى منزله وبذلك يرجع الى صاحبه بصيد جديد فرحه به لا يقدر . وللحمام عندهم أسماء مختلفة فمنها الجزغندي والريحاني والمزرزي والقزازی والابلق والعنبري والقشاق وغيرها، الا ان هذه الغية لم تقف عند افنية الاغنياء بل تعدتهم الى الفقراء

وهم الى الآن يضيعون فيها وقهم الذي هم وعيالهم في حاجة اليه لعمل حيوى مفيد ولقد شاهدت في سراي يلدز بيستانها الداخلى بعد خلع السلطان عبد الحميد دارا كبيرة من السلك وفيها مالا يحصى من أنواع الحمام وهو من جمال الحلقة بمكان عظيم

الحج

الحج سنة قديمة جدا في الامم ، والغرض منه على كل حال أمر ديني محض ، وان كان الاجتماع فيه لا يخلو من فائدة دنيوية تزيد في رقى الامة أدياً ومادياً . وقد كان المصريون قبل أربعمين قرناً يحجون الى هيكل معبودهم ايزيس بمدينة سايس (صا) ، وفتح في منفيس ، وأمون في طيه .

واليونان كانوا يحجون قبل المسيح بخمسين قرناً الى هيكل ديانا في افسوس ، ثم انتقلوا في مبدأ القرن الثانى قبل المسيح الى حج معبد مينارفا في أتينا ، وجوبيتير في اولبيا . واليابان يحجون من عهد بعيد الى هيكل عظيم مشهور في ولاية اسجى ، وتجب زيارته على كل فرد منهم في عمره ولو مرة واحدة : فيتوجهون اليه بلباس أبيض على شكل مخصوص ، وسوادهم يقصدونه عراة ليس عليهم الا ما يستر عورتهم ، ويقطعون اليه كل المسافة ركضاً . والصينيون يحجون الى هيكل المعبود تيان من زمن بعيد جدا . والهنود لا يزالون يحجون الى هيكل جاغرناات ، أو هيكل الورا في حيدرآباد وهو محفور في الصخر على طول فرسخين ، وكذلك يحجون الى هيكل بوذا بجزيرة منا قرب سيلان . وهم يكترون من الطواف حول هياكلهم ، ولم بمحيرات مقدسة يتبركون بماها مثل بحيرة مادن قرب بحر قزوين . واليهود كانوا يحجون في القرن الرابع عشر قبل المسيح الى المكان الذى به تابوت العهد ، وكانوا يحجون اليه ثلاث مرات في السنة ، وكان ذلك اكبر سبب لعمار اورشليم حتى أحرقها الامبراطور طيطوس الرومانى وأجلى اليهود عنها سنة ٧٠ مسيحية ، وما زالوا يبيدين عن مدينة بيت المقدس حتى استولت العرب

عليها سنة ٦٣٦ ميلادية فاقروهم عمر رضى الله عنه مع النصارى على ما كان لهم في بيت المقدس ثم قطعت عليهم طريقها الحروب الصليبية حتى استوات دولة بني عثمان على اورشليم في سنة ١٥١٧ فأمنت الطرق ومهدت السبل الي بيت المقدس خصوصاً بعد عمل السكة الحديد (١) من يافا اليها ، وهم يحجون الآن الي قطعة من السور القديم لهيكل سايمان في الجهة الغربية من المسجد الاقصى ويسمونها البراق .

أما النصارى فانهم يحجون الي بيت المقدس من سنة ٣٠٦ للمسيح أى منذ سارت هيلانة ام الامبراطور قسطنطين الي اورشليم وابنت بها كنيسة القبر المقدس المشهورة باسم كنيسة القيامة وكانوا يخرجون اليه من غرب اوربا باحتفال عظيم ، وكان رئيس الجهة الديني يزود كلا منهم بمصا ورداء من الصوف الخشن فيلبسه لوقته ، وكان لهم على طول طريقهم تكايا وأديرة يأوون اليها مدة سفرهم ، وكان اذا وصل الحاج الي بيت المقدس يتطهر في نهر الاردن الذي يبعد نحو عشرين كيلومترا شرقي القدس ويلتحف برداء يحمله معه ليكون له كفنأ عند موته ، فلما استولى السلاجوقيون على بيت المقدس قل حجاج الافرنج الي اورشليم وحولوا وجوههم الي كنيسة القديس بطرس وبولس في رومه ، وفي ترنيف بجرمانيا ، ويزعمون أن بالاخيرة قيص المسيح الذي كان يلبسه . وقد بلغ عدد حجاجها سنة ١٨١٤ مليوناً ومائة الف نفس من الافرنج . وهم يحجون أيضاً الي كنيسة لورده (Lourdes) في جنوب فرنسا بعد أن شاع في اوروبا بان السيدة مريم العذارا ظهرت لاثنين من رعاة هذه المدينة . والزائرون لهذه الكنيسة يشربون من ماء ينبع قريباً منها يسمى باسمها ويعتقدون الي اليوم بان فيه شفاء للأمراض ويرسلون منه الي جميع أقطار المسكونة لتبرك والاستشفاء .

والعرب كانت تحج من ثمانية عشر قرناً الي الكعبة المكرمة لانهم كانوا يعتقدون أنها بيت الله على ما كانوا عليه من اختلاف الآلهة وتمدد الديانات وتغاير المذاهب وكانوا يتصدونها سنوياً للطواف بها من غير أن يدعيها لنفسه فريق منهم دون

(١) المسافة بين يافا ومدينة بيت المقدس ٨٧ كيلو متراً وعليها سكة حديد ضيقة

لشركة فرنساوية عملت في الثلث الاخير من القرن الماضي

الآخرين لانها كانت عندهم بيتا لله الذى هو اله العالمين . ورغمما عن شيوع عبادة الاوثان في سواد قبائل العرب فانه لم يرد عنهم انهم عبدوا هيكل الكعبة أو الحجر الاسود مع احترامهم لها ذلك الاحترام الذى لا يمكن تصويره . وكانوا يعتقدون أن هذا الحجر نزل من السماء وبه أخذ بعض الفقهاء ونحن لا ندرى ان كان وصل اليهم من طريق النيازك أو من طريق آخر .

واحترام الاحجار (١) فى الناس قديم جدا فمنهم من كانوا يعبدونها لذاتها ومنهم من كان يجعلها رمزا لآلهتهم كما كان الشأن فى الدول الراقية فى عمراتها كدولة الرومان واليونانيين الذين كانوا يرمزون بها لمعبوداتهم من الكواكب وغيرها : ولم يكن نبوغهم الى الآن فى نحت الاحجار وعمل التماثيل وتبريزهم فى التصوير الا لاحترامهم اياه من قديم الزمان واستعمالهم له فى الازمنة الحالية تمثيلا لمعبوداتهم . والصينيون واليابان والهنود لا يقلون عنهم فى هذه الصناعة ولهم فيها دقة غريبة وخصوصا فى الاعمال الخشبية التى يمثلون فيها كثيرا من معبوداتهم مثل بودا وكوفوشيسوس وغيرها .

اما العرب فقد كانت اصنامهم ساذجة مثل جميع طبائع الاشياء فيهم وقد كانوا يعبدونها لتقربهم الى الله زلفى ، وفى عتبة باب السلام الخارجية ترى حجرا ضخما اشبه شيئا بدرجة سلم غير منتظم نازلة فى الارض يطئونها بنعالهم ، وأهل مكة يقولون عنه أنه صنم من اصنام الجاهلية واسمه اساف ؟

وكان انبياء بنى اسرائيل يقيمون الاحجار فى مناسبات كثيرة : منها ما هو تذكار لحادثة من الحوادث الجسيمة ، كما فعل يعقوب عند ما تراءى له ربه جل شأنه فى نومه فانه اقام حجرا تذكارا لهذه الحادثة الكبرى فى مكان سماه بيت ايل (بيت الله)

(١) وفى باريس بحجة التروكادرو متحف اسمه جيميه (Musée Guimet) فيه مجموعة كبيرة من الاحجار الدينية وهى اكبر مجموعة فى بابها وقد زرناها فى سنة ١٩٠٦ مع صديقي الفاضل علي بك بهجت وكيل دار الآثار العربية فاستقبلنا صاحبها والقائم بادارتها بكل أنس ولطف .

كما اقام حجرا غيره تذكارا (١) للعهد الذي تم بينه وبين لابان (انظر الآية الرابعة والاربعين والخامسة والاربعين من الاصحاح الحادى والثلاثين من سفر التكوين) ومن ذلك الاثنا عشر حجرا التي نصبها يشوع تذكارا لعبور الاسباط نهر الأردن بتابوت العهد (انظر الآية التاسعة من الاصحاح الرابع من سفر يشوع) ومنها الحجارة التي نصبها موسى في ذيل الجبل تذكارا لكتابة كلام الرب (انظر الآية الرابعة من الاصحاح الرابع والعشرين من سفر الخروج) .

ومن الحجارة ما كانوا يقيمونه للعهد والميثاق كالحجر الذي اقامه يشوع عند ما أخذ العهد على شعبه قائلا لهم هذا الحجر يكون شاهدا (٢) علينا (انظر الآية السادسة والعشرين والسابعة والعشرين من الاصحاح الرابع والعشرين من سفر يشوع) . وكان المصريون يقيمون الاحجار الجسيمة كالمسلات وغيرها تذكارا للحوادث التاريخية الكبرى وقد اقتفت آثارهم الدول المتمدنة وعلى الخصوص ما يقيمونه اعترافا بفضل من ينبغ من افراد الامة وهذه الآثار لا يكاد يخلو منها ميدان من ميادين عواصم أوروبا .

وجميع الحكومات من قديم الزمان تقيم الاحجار لتعين تخومها وتحديد ممالكها وقد عم هذا الاستعمال في تحديد ملكية الافراد حتى اطلق لفظ الحجارة على الحدود

(١) ومن حجارة التذكارات تلك الحجارة التي يقيمها سفار الحجاج على حافة طريقهم مع القافلة فتراهم اذا صادفوا في طريقهم احجاراً صغيرة تسابقوا اليها وأخذ كل يبن يديه ما اراد منها ووضعها على بعضها حجراً حجراً قائلاً : هذا لابي هذا لامي هذا لاختي هذا لاختي هذا لصديقي فلان مثلاً ويسمون كل كوم منها ناطوراً، وهم يزعمون انه ما دامت هذه الرجمة على وضعها كان أصحابها على قيد الحياه !! ولو لم يكن في عملهم هذا من حسنة سوى تنقية الطريق من الحجارة التي يتعثر فيها الانسان والحيوان لكفى .

(٢) ومن حجارة الشهادة ما يستعمله الناس للاقتراع على الاشياء أو الاشخاص وهو مستعمل في أيامنا هذه وخصوصاً في دوائر الحكومات الكبرى كمجالس النواب وغيرها .

واجمعت الشرائع كلها على احترامها .

واليهود الى الآن يقدسون قطعة من حائط السور الذي للمسجد الاقصى من جهة القبلة يسمونها البراق ، و يبلغ طولها نحو ثمانية واربعين مترا في ارتفاع مترين ، لزعمهم أنها القطعة الوحيدة التي بقيت من قاعدة سور الهيكل الاصلى الذى بناه سليمان عليه السلام وهدمه بختصر وسنحاريب وغيرهم من ملوك الاشوريين والرومانيين . وهم يحجون الى هذه القطعة مرتين في كل سنة وخصوصاً في العيد الذى يسمونه عيد الدجاج (عيد القربان) . ويهود القدس يجتمعون عندها كل يوم وعلى الخصوص في عصر يوم الجمعة مع رؤسائهم الدينيين ، ويستلمون حجارتها باكين شاكين متحبين متضرعين الى الله بان يرد عليهم ملكهم وان يعيد الى اورشليم فخامتها وجلالتها . وقد وصل بهم احترامهم لحجارة ذلك الهيكل الى أنهم لا يدخلون في حوش بيت المقدس أصلاً بل لا يدخلون من بابه مطلقاً خوفاً من أن تطأ اقدامهم حجراً من الحجارة التى تكون ربما تخلفت من هيكلكم القديم وافت بها يد الصدقة في ارضية هذا المكان . وللنصارى احجار كثيرة يقدسونها ومنها شئ كثير في بيت المقدس . وقد بلغ تقديسها منهم الى حد لا يمكن تكيفه . ومن تلك الاحجار الحجر الذى تحت قبة الصعود: وفيه أثر صدر قدم يمني يقولون انه أثر قدم السيد المسيح عندما صعد الى السماء . وقد شاهدت بنفسى هذا الحجر الذى لمس وكاد يذهب أثره من كثرة لمسهم له وتقبيلهم اياه . وفي اسفل جبل الزيتون من الجهة الغربية مما يلي وادى سدرون (الذى يسميه العامة وادى مريم) قطعة من صخرة خارجة عن سور الكنيسة الروسية الشمالى فيها بعض تقعر رأسى ، يقولون ان السيد المسيح اسند ظهره اليها عند ما نزل من جبل طورزيتا (جبل الزيتون) الى المدينة . ولقد اجتهدت الكنيسة الروسية في ادخال هذا الحجر اليها ولكن قامت من أجل ذلك قيامة الطوائف الاخرى وكادت تحصل لذلك فتنة كبيرة لولا ان الامر انتهى بجماعها منطقة عامّة لجمعهم حتى لا يحرم الكل من التبرك بها . وازاء هذه الصخرة الى جهة الشمال توجد صخرة أخرى محاطة بسور للاروام ، يقولون ان السيد المسيح كان جالس عليها اذ ذاك ليشاهد منها صخرة بيت

المقدس ، وباب هذا السور يفتح للزيارة في أيام مخصوصة . وللقوم في كنيسة القيامة أحجار كثيرة تكاد تفوق حد التقديس : منها حجر نصف الدنيا الذي تراه في وسط هيكل الأروام ، وحجر المغسل الذي يزعمون أنهم غسلوا المسيح عليه ، وحجر الكأس الذي نزل به جبريل الى المسيح ووضعه عليه ، وعامود الجلد الذي كان المسيح مربوطاً به عند ما جلده أعداؤه ، وحجر الاكليل الذي أجلسوا عليه المسيح وقما وضعوا على رأسه اكليل الشوك ، ويوجد في بيت لحم كثير من هذه الحجارة المقدسة .

ومن الحجارة المقدسة المحترمة عند اليهود والنصارى والمسلمين على السواء صخرة بيت المقدس (١) التي كانت محل قربات ابراهيم واسحاق ويعقوب وداود وسليمان وغيرهم من أنبياء بني اسرائيل عليهم السلام والتي كانت قبلة للمسلمين قبل الكعبة ،

(١) والمسلمون يزورون صخرة بيت المقدس ويقولون لمن زارها «فلان قدس» (بصينة الماضي) ويعتبرون زيارتها بعد زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة . وهي صخرة كبيرة ضربت عليها قبة عظيمة جداً فيها من أعمال القيشاني والفسيفساء والموزاييك والتقوش الذهبية وغيرها ما يدهش العقل ويحار له الفكر . وهذه الاعمال من عهد عبد الملك ابن مروان وابنه الوليد ثم السلطان سليمان القانوني . وهي آية في حسن الصناعة الرومية والعربية القديمتين مما يستعصى على عمال زمننا الحاضر اصلاح ما اعتل منها . وهذه القبة قامت على قاعدة مئنة الشكل يحيط بها فناء رحيب مفروش بالرخام ويصعد اليه من حوش الحرم بنحو عشرين سلماً واسعة قد ارتفعت على رأسها أقواس قامت على عمد من الرخام أشبه شئاً بمداخل المعابد الرومانية . وفي أسفل هذه الصخرة مغارة الى الجهة الجنوبية (جهة القبلة) قد بنى على محيطها الداخلى حوائط من أرضها إلى سقفها . ويزعمون أن هذه الصخرة معلقة في الهواء وان هذه الحوائط أما بنيت لتحول بين مشاهدة الناس لها حتى لا يفتوا بها . والحال انها صخرة لها لسان بارز فبنوا تحته مدة السلطان سليمان ما يكون دعامة لهذا اللسان المبارك تحفظه من السقوط . وعلى ظهر هذه الصخرة آثار أقدام يزعمون أنها أقدام رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما سار عليها ليلة الاسراء ، ومع ما هي عليه من عدم الانتظام وانها على خط مستقيم تقريباً ، وهو ما لا يمكن السير عليه لفتحة ما بين الرجلين ، فانها تكاد يكون شكلها واحداً وهو ما لا ينطبق على شكل القدمين خصوصاً وانها أصغر بكثير من

ثم صخرة أيوب (النبي) التي في قرية الشيخ سعد على طريق السكة الحديد بين المزيريب والشام ، ويقصد زيارتها والتبرك بها خلق كثير من جميع الأفاق على اختلاف جنسياتهم ودياناتهم .

من ذلك ترى أن هذه الحجارة لم تقدر لذاتها ولكن لعلاقتها بشئ مقدس محترم . وعليه فالحجر الأسود الذي وضعه إبراهيم عليه السلام في الكعبة أما أن يكون وضعه تذكرا لصدعه بأمر ربه برفع قواعد هذا البيت المعظم ، وأما أن يكون للعهد الذي أخذه إبراهيم على نفسه وولده بجعله هذا البيت مثابة للناس ، وأما أن يكون قد أقامه إبراهيم حجة عليه وعلى ولده بأن هذا البيت قد انتقل من ملكيتهم الى الله تعالى ليكون للناس مصلى ومسجدا للطائفين والمالكين والركع السجود . ووضع في الركن الاقرب الى الباب ليكون أول حدود هذا البيت المكرم الذي يتبدى منه الطائفون ، وجعل لونه أسود لسهولة تمييزه وتحديد مكانه : لذلك كان هذا الحجر محترما من إبراهيم محترما من ولده محترما من المسلمين الى اليوم والى الغد .

الاقدام المنسوبة له صلى الله عليه وسلم في الجهات الاخرى . ومن هذا وذاك ترى انها كلها موضوعة لأصلها من الصحة يؤيد ذلك أنه لم يرد في ديننا الحنيف شئ يشير الى هذه الدعوى . وفي ظهر الصخرة فوهة تنفذ الى المنارة وهي على ما أظن مكان القربان الذي كان يقدمه إبراهيم وخلفاؤه الى الله تعالى ومن هذا أتى تقديس هذه الصخرة . وليس لزيارة المسلمين للصخرة صفة مخصوصة ولا شروط ولا ميعاد مثل ما في الحج ولكنها زيارة بسيطة بالمرّة في أي زمان شاءوا . واختيارها قبيل شم النسيم إنما هو للحاق . ولد سيدنا موسى عليه السلام في مشهده الذي يبعد عن مدينة بيت المقدس بنحو ست ساعات الى الجنوب الشرقي وذلك في يوم الجمعة التي قبل سبت النور .

ولتمة الكلام عن بيت المقدس أقول لك أنه يوجد في حوش الحرم قبلي قبة الصخرة مسجد جميل يسمونه بالاسجد الاقصى . وقد كان كنيسة فحول بعد الفتح الى مسجد . ولما حضر سيدنا عمر بن الخطاب الى بيت المقدس صلى في جانبه الشرقي الجنوبي ، وترى مصلاه الى الآن على بساطة تامة في بنائها بجوار تلك الفخامة التي بني عليها المسجد .

ولا عبرة بما ذهب اليه بعض السامعين الذين قصدوا مكة والمدينة تحت ستار شعار الدين الاسلامي وكتب عليهما كل بحسب نزعتة سياسية كانت أو دينية بأن المسلمين في حجهم يبدون الحجر الاسود الذي هو أثر من آثار الوثنية العربية الاولى . واني لا أذكر شيئاً ادحض به مفترياتهم فيما يختص بالمسلمين سوى عبارة عمر رضي الله عنه (١) اذ خاطب هذا الحجر بقوله « اما والله انى أعلم انك حجر لا تضر ولا تنفع ولو لا انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ما قبلك » ودرجة اسلام عمر لا تخفى على احد .

أما فيما يختص بعرب الجاهلية فانه لم يسمع عنهم مطلقاً انهم عبدوا هذا الحجر فيما عبدوا من الاحجار بالمره مع احترامهم له كل الاحترام واجلالهم له كل الاجلال . وعلى كل حال فان الحجر الاسود عند المسلمين محترم مكرم معظم لا لذاته ولكن لكونه شعارا لربو بيته تعالى ورمزا لسلطانه . يعرض عليه المسلمون فيستلمونه ويقبلونه أو يسلمون عليه من بعد بكل احترام واحتشام : وعليه فهو في ذلك كاعلام الدول التي لا تحترم لكونها قطعة بسيطة من القماش مرفوعة على قطعة من الخشب أبسط منها بل لانها تمثل سلطان الملوك وعظمة الممالك . وهلا حضرت استعراض جيش من جيوش الدول العظام ورأيت القوم اذا حاذوا علمهم أحنوا امامه رؤوسهم وسيوفهم علامة على الخضوع والاحترام ؟

(١) وقد روى ابن أبي شيبة والدارقطنى في العلل عن عيسى بن طاحمة عن رجل رأى النبي صلى الله عليه وسلم واقفا عند الحجر فقال « انى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع » ثم قبله ثم حج أبو بكر فوقف عند الحجر ثم قال « انى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولو لا انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلك » وقال عمر « أما والله انى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولو لا انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ما قبلك » ثم دنا فقبل رواه أبو بكر بن أبي شيبة والامام احمد والبخاري ومسلم وغيرهم .

وما زال الحج عند عرب الجاهلية على ملة ابراهيم واسماعيل، ومشاعره (١) كلها محترمة عندهم حتى اذا عظمت قریش بعد واقعة الفيل، وقال الناس فيهم انهم أهل الله يدافع عنهم، شمخوا بانوفهم على العرب، وقالوا نحن ولاة البيت، وليس لاحد من العرب مثل منزلتنا، واتفقوا على أن لا يعظموا شيئاً من الحل: فتركوا الوقوف بعرفة

(١) ولابن طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم قصيدة مشهورة ببلاغها وهي لاميته التي تبلغ واحداً وثمانين بيتاً نذكر لك منها هنا بعض قسمه الذي تعرف منه المشاعر التي كانت تقف بها العرب في الجاهلية، والقصيدة موجودة برمتها في الجزء الاول من سيرة ابن هشام، قال رحمه الله:

وثور ^١ ومن أرسى شيراً ^٢ مكانه	وراق ليرقى في حراء ^٣ ونازل
وبالبيت حق البيت من بطن مكة	وبالله ان الله ليس بغافل
وبالحجر المسود اذا يمسخونه	اذا اكتشفوه بالضحى والاصائل
وموطيء ابراهيم بالصخر رطبة	على قدميه حافياً غير ناعل
وأشواط بين المروتين الى الصفا	وما فيهما من صورة وتماثل ^٤
ومن حج بيت الله من كل راكب	ومن كل ذى نذر ومن كل راجل
° وبالشعر الاقصى اذا عمدوا له	الال ^٦ الى مفضي الشراج ^٧ القوابل
وتوقفهم فوق الجبال عشية	يقبضون بالايدي صدور الراجل
وليلة جمع ^٨ والمنازل من منى	وهل فوقها من حرمة ومنازل
وجمع اذا ما المقربات ^٩ أجزنه	سراعا كما يخرجن من وقع وابل
وبالجمرة الكبرى اذا صعدوا ^{١٠} لها	يؤمون قذفا رأسها بالجنادل ^{١١}

(١) و (٢) و (٣) و (٤) التماثيل وهي الاصنام (٥) واحد المشاعر الحرام وهي المواضع التي بها مناسك الحج والمشعر الاقصى هو عرفه لانه ابعدها . (٦) « الال » بفتح الهمزة وكسرهما جبل عرفه . (٧) مفردة شرج وهو مسيل الماء ، ومفضي الشراج مجمعها في مجرى واحد . وفي هذا ما فيه من بلاغة التعبير اشارة الى اجتماع الناس في مكان واحد وهو عرفه . (٨) هي ليلة المزدلفة . (٩) « المقربات » هي الخيل التي ضمرت للركوب والابل التي عليها رحالها . (١٠) قصدوا . (١١) الحجارة

والإفاضة منها ، مع علمهم أنها من المشاعر الحرام وانها مكان الحج من زمن ابراهيم ، وقالوا لا ينبغي لاهل الحل ان يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل في الحرم اذا جاءوا حجاجا او عمارا ، وأن لا يطوفوا بالبيت الا في ثياب الحس (وهم قریش وسوا بذلك لتحمسهم في دينهم أى تشددهم) ، فان لم يجدوا طافوا بالبيت عمرة . فدانت لهم العرب بذلك ، وكانت المرأة فى طوافها تضع عنها ثيابها الا درعها .

وقد كان السعى بين الصفا والمروة من لوازم الحج فى الجاهلية ، وكان لهم صنم على الصفا يسمى (اساف) وآخر على المروة يسمى (نائله) ، وكان للعرب فيها اعتقاد سخيف كغيره من الاعتقادات الوثنية ، فلما جاء الاسلام امتنع المسلمون عن السعى كيلا يكونوا مثل أهل الجاهلية فى وثنيهم ، تنزل قوله تعالى « ان الصفا والمروة من شعائر الله » . وجعل الحج من قواعد الاسلام قال عليه الصلاة والسلام « بني الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله واقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع اليه سبيلا » . وقد أفاض النبي صلى الله عليه وسلم من عرفات ونزل فى ذلك قوله تعالى « ثم افيضوا من حيث أفاض الناس » وقال صلى الله عليه وسلم « الحج عرفة » ، وطاف الحجاج بالثياب التى معهم من الحل واكلا من طعام الحل فى الحرم وما زال المسلمون يحججون على ما كانت عليه سنة ابراهيم واسماعيل الى اليوم .

ولكن يظهر للتأمل فى طواف البدو الآن وعلى الخصوص أهل الشروق من عتبية ومطير أن حجهم الصق بالبيت منه بعرفة : ذلك لان هؤلاء القوم يقدون على مكة فى الحس الاول من شهر ذى الحجة ، فيرتبون مساكنهم شرق المدينة من خارجها ، ثم يدخلون المسجد الحرام جماعات جماعات ، ويطوفون حول البيت طواف القدوم ماسكين بايدي بعضهم ، لا يوقفهم فى طوافهم زحام المطاف بغيرهم ، بل يأخذون فى طريقهم كل من صادفهم فيه وهم يقولون « الله محمد ، ليك ليك ، حجيت تقبل أولا تقبل حجيت ، الا تقبل » . واذا كان معهم نسوة (ولا يكن فى الغالب الامن المتقدمات فى السن) تراهن فى مؤخرتهم ماسكات باكتافهم ، ولا يظهر منهن سوى اعينهن وفى أيديهن

الفنازات ، حتى اذا وصل الكل الى الحجر الاسود تعلق المتقدم منهم بكسوة الكعبة وامسك بها بقوة بحيث لا يزحزحه عنها أحد ، وتبعه اخوانه وازاحوا غيرهم من المستلمين بقوة وصبر لا يتورهما ملل محتملين في ذلك ضرب الضارب واتهار الناهر ، حتى اذا كشفوا الناس عنه واستلموه جميعا وقلوه ، أتت نساؤهم لتقبيله فيضرب الزوج رأس امرأته لتصطمم جبهتها في الحجر ، فيحصل فيها أثره تكون عندهم علامة الحج (كالوشم عندحجاج بعض التصارى الى بيت المقدس) ، وعندها يصرخ الرجل قائلاً لزوجه « حجيت . باحاجة » ؟ فتصيح قائلة « حجيت حجيت » ثم تلتفت الى الحجر الاسود قائلة « حجيت ، خبر ربك (١) انى حجيت » ثم ترفع رأسها الى السماء قائلة « تقبل أولاً تقبل حجيت الا تقبل غصبا تقبل » . هذا كله قبل وقوفهم بعرفه ، ومنه ترى ان اعتبارهم انفسهم أنهم حجوا بمجرد الطواف والاستلام قبل الوقوف انما هو بعض ما كانت سنته قريش بعد واقعة الفيل ومجاه الاسلام .

واخلاق هؤلاء الاعراب في الحرم الشريف بخلاف ما هو معروف عنهم من شدتها : فانك تراهم فيه على غاية ما يكون من السكينة واللين والتسامح لا يقابلون الالهانة الشخصية الا بالسكوت المطلق عن الاجابة عليها ، وما ذلك الا لشدة احترامهم حرم الله واجلالهم لبيته المعظم .

ولا شك ان قصد الشارع من الوقوف بعرفة انما هو وحدة الوجود في مكان واحد تجمع اطرافه جميع أولئك الذين وفدوا من الاقطار المختلفة ، وهم وان اختلفت اجناسهم وتغايرت لغاتهم قد توحدت وجبهتهم وتفردت غايتهم . نعم تجتمعهم صحراء عرفة وتضمهم الى قواد ذلك الجبل حتى اذا اجتمع شخص بأخر عرف كل واحد ما يهيم من أمر صاحبه ، فيمسيان وقد اهتم كلاهما بأمر أخيه مما تصلح به أحوال الافراد وتستقيم به أمور الامم . وكيف لا وقد كان هذا الاجتماع بين يدي الله وفي حضرته في يوم يكون الانسان فيه بكليته عاطفة شريفة : هي الاخلاص بحقيقته لا يشوبها

(١) من تأمل في هذه العبارة يرى ولا شك أنها من آثار الجاهلية ونها يحكم قطعياً أن القوم قبل الاسلام ما كانوا يعبدون الحجر الاسود .

رياء ولا يتطرق اليها مرآة . وكان موسم الحج موعدا بين الناس يقضون به اشغالهم ويمضون فيه أمورهم وذلك لصعوبة المواصلات التي كانت بينهم قال بعضهم

ما احسن الموسم من موعد واحسن الكعبة من مشهد

وكانت الخلفاء في الغالب يقومون بفریضة الحج في صدر الاسلام حتى يقفوا بأنفسهم على حال رعاياهم وقد افادهم هذا الامر في سياسة ملكهم داخله وخارجه سياسة عظمی . ولعل امراء المسلمين يعودون الى ما كان عليه سلفهم الصالح من احیاء هذه الفریضة لتحیاء بها نفوسهم وممالكهم : نعم تحیا بها حياة طيبة ، لانهم اذا تنازلوا لحظة الى منزلة الناس في جميع طبقاتهم ، واختلطوا مع العامة منهم قریبهم وبعیدهم فيسمعون نداء الفقير وبكاء الضریر ويعرفون حاجة البائس ومقدار ما تعمل الفاقة في احشاء هؤلاء المساكین الذين يحول سباج الملك بينهم وبين معرفتهم بحقیقتهم ، عرفوا ما يجب علیهم لرعاياهم وعملوا على اعانة الضعیف واغاثة الایهف ، ويقلدهم في ذلك الکبراء والعظماء مسوقین بطبیعة تقلید الصغیر للکبیر (والناس على دین ولو کم) فیصبحون وامهم في اهنا بال ، واحسن حال ، وهذه هي سعادة الراعی والرعية على السواء . نعم نعم يجب على الامراء والعظماء والاعیاء ان یحجوا ، حتى اذا وقفوا لحظة في صف هؤلاء التعاء والبؤساء ترققت قلوبهم وتحننت افئدتهم واصبحوا بعیدین عن عوامل الظلم والاستبداد ، قریبین من مؤثرات الرأفة والرحمة . نعم اذا وقف اولئك الملوک في سلك هؤلاء الناس والکل مفلوک بعرش الله واحد عادل وهو القادر القاهر ، مالوا الى الاشتراکیة واهتموا بحال المفلوکین والمظلومین : فیردون عن هذا ظلامته ويخففون عن ذلك محتته ، ويحولون بين برائن القوي ومهجة الضعیف ، وبذلك تستقیم امور الرعية وتعود الى ما كانت علیه في خلافة الراشدين من الحیاة الصحیحة .

ولقد شهدنا في ذلك برهانا محسوسا : فان الجناب العالی الخدیوی عند ما وقف هذا الموقف أخذ يذكر حال البؤساء من حجاج بیت الله الحرام عموما والمصریین منهم خصوصا مهتما بامرهم کل الاهتمام مفکرا في الوساطة التي تخفف من مصائبهم وتسهل من مصاعبهم . فکنت تسمع منه على الدوام ، ووجهه حفظه الله محتقن بدماء

الانفعال بعامل الرحمة والحنان ، عبارات الاسف على ما يقاسيه البؤساء من حجاج بيت الله الحرام ، ويبحث على الطريق التي يكون من ورائها راحتهم وطمأنينتهم ، وهذه الفكرة لا تزال تشغل فكره الشريف الى الآن . كذلك كان الخلفاء والامراء في صدر الاسلام ، وكثيرا ما كانوا يحجون . حتى ان الرشيد كان يحج عاما ويفزو عاما ولذلك كانت حكومته من احسن الحكومات نظاما وامتها احكاما . فلما تقاعد الخلفاء عن تأدية هذا الواجب القومي استهان الناس بهم وما زالوا كذلك حتى غلبوا على أمرهم !! نسأل الله ان يعيد الى الاسلام عظمته ومجده .

على ان الحج له تأثير كبير في الاخلاق : فترى الحاج يتوب الى الله في حجه ولا يتم مناسكه الا وهو على اعتقاد تام بمغفرة الله له وتفضله بمحو ذنوبه من صحيفة اعماله ، فاذا عاد الى بلاده سار في طريق الفضيلة و يصعب عليه ان يتركه الى غيره مهما كان شابا ، فاذا تمثل له شيطان غوايته جرد له وازعا من نفسه يحول فيما بينهما ، وفي الغالب يكون هذا الوازع اقوى من خصمه الذي يهزم امامه : واذا فليس من مذهب حقيقي للنفس احسن من تربية الحج ، فهو نعم المرئي للنفوس الشريرة ونعم المهدب لها . ولقد قرر علماء التربية اخيرا ان الانسان لا بد له من شخص يسهل طريق عمله ، حتى اذا انطلق في سبيله فلا شيء يرده عنه . لذلك تراهم يحسنون الى الصبي البليد أو الكسلان بكل وسائل الاندفاع في طريق العمل ولو مرة واحدة ، فاذا ذاق حلوة الاجتهاد صعب عليه رجوعه الى الكسل والبلادة . على ان الحاج ان لم تردعه نفسه عن اقتراف الرذيلة فانه لا يحرم من الناس مؤنبا له عليها أو معيرا له على اقترافها بعد الحج ، فيرجع اذ ذاك عن غيه طوعا او كرها . وهذا اظه حسبك في فضيلة الحج التي لا تماثلها فضيلة والتي لو فطنت لها الحكومات الاسلامية لسهلت طريقه على رعاياهم حتى اذا كثر سواد الحاجين منهم كثرت فيهم الفضيلة التي تؤدى الى الخير العام والسعادة الحقيقية . ولقد كانت الحكومة المصرية في الزمن الغابر تخرج الى الشوارع والحارات في أشهر الحج اناسا يتغنون باناشيد {يسمونها تحانين} تحرك عواطف الناس الى اداء هذه الفريضة كما كانت خطباء المساجد تحث عليها وترغب الناس فيها (ولا يزالون كذلك الى الآن)

كيف تحج ايها المسلم

اعلم وفقك الله لطاعته ان الحج فرض على المسلمين في أواخر سنة تسع من الهجرة مرة واحدة في العمر على كل مسلم ، حر ، مكاف ، صحيح البدن ، ميسور الزاد والراحلة ، قادر على نفقة عياله مدة سفره في حجه مع أمن الطريق اليه . ويحرم الحج بمال حرام ويكره بدون اذن من له الولاية على من يريده . وتجاوز الانابة فيه عند العجز عن ادائه بجبس او مرض فان زالا وجب ادائه بالذات .

فاذا تيسر لك ذلك كله فسافر على بركة الله لاداء هذه الفريضة ، فاذا وصلت الى ميقات الاحرام فاحرم بنية الحج (أو العمرة ان شئت اوهما معا) قائلا : اللهم اني نويت الاحرام لحج بيتك المعظم فيسره لي وتقبله مني (وكيفية الاحرام ان يعبر الرجل من مخيط الثياب ولبس ازارا ومعه رداء ونعلان ان تيسر له ذلك، اما المرأة فتلبس ملابسها وتكشف كفيها ووجها ان لم تخش الفتنة، ويسن تقليم الاظافر وحلق ماشعث في البطن « العانة » وتسريح الشعر والغسل قبل الاحرام وصلاة ركعتين تدؤه بهما) ثم تلي قائلا : ليك اللهم ليك ، ليك لاشريك لك ليك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك . ولا تزال تكرر التلبية من وقت الى آخر حتى اذا دخلت مكة قلت : اللهم ان هذا الحرم حرمك والأمن أمنك والبعدهدك ، اللهم اني جئتك من بلاد بعيدة بذنوب كثيرة راجيا أن تستقبلني بمحض عفوك وكرمك وان تحرم جسدي على النار ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . فاذا جئت الى الحرم فادخل من باب السلام قائلا : اعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ، اللهم أنت السلام ومنك السلام فغينا بالسلام وادخلنا الجنة دارالسلام بفضلك يا ذا الجلال والاكرام . ثم سر نحو البيت قائلا : اللهم ان هذا الحرم حرمك وهذا الامن أمنك ، اللهم حرم جسدي على النار . فاذا وقع بصرك على الكعبة فقل : بسم الله الله اكبر (ثلاثا) لا اله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . فاذا دخلت من باب شية فقل : رب ادخاني مدخل صدق واخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا

نصيرا ، وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا ، وتنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا . فاذا اتيت الحجر الاسود فاستقبله وقل :
بسم الله الله اكبر والله الحمد ، اللهم اغفر لي ذنبي وطهر لي قلبي واشرح لي صدري وعاقبي
برحمتك فيمن تعافى . ثم استلمه يمينك وقبله (ان امكنتك) وانو الطواف قائلا : اللهم
انى نويت طواف بيتك المعظم سبعة اشواط لوجهك الكريم اللهم يسرها لي وتقبلها مني ،
ثم انطلق في طوافك قائلا : اللهم ايماننا بك وتصديقا بكتابتك ووفاء بمهدك واتباعا لسنة
نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، اشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وان محمدا
عبده ورسوله ، اللهم ان هذا البيت بيتك والحرم حرمك والامن امنك وهذا مقام العائذ
بك من النار فأعذني منها يا عزيز يا غفار ، اللهم انى أعوذ بك من الكفر والمقتر وضيق
الصدر وعذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ، اللهم انى اسألك العفو والمغافية والمعافة
الدائمة فى الدين والدنيا والآخرة ، اللهم اظلنى تحت عرشك يوم لا ظل الا ظلك واسقني
بكأس نبيك محمد صلى الله عليه وسلم شربة هنيئة مريئة لا اظأ بعدها أبدا ، اللهم
اجعله حججا وبرورا وسعيام مشكورا وذنبا مغفورا وتجارة لن تبور ، اللهم انى أعوذ بك
من الشك والشرك والتفان وسوء الاخلاق وسوء المنقلب وسوء المنظر فى المال والاهل
والولد ، اللهم انى عبدك وابن عبدك قد اتيتك بذنوب كثيرة ، اللهم ما كان لك منها
فاغفره لى وما كان منها لمبادك فاحمله عني . وكلما قربت من الحجر الاسود قل : ربنا
آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، فاذا حاذيته فقل
مستلما ان امكنتك أو مسلما عليه يمينك من بعد : بسم الله الله اكبر ، ثم ادع الله
تعالى بما تشاء من الادعية السابقة أو بما يحضرك من غيرها ، والا فحسبك الذكر
والتوحيد والاستغفار ويجمعها قولك : سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر
ولاحول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . ويسن الاضطباع فى طواف القدوم وهو اخراج
الذراع الايمن فوق الرداء الذى تشتمل به ، وكذلك يسن فيه الرمل (أي الجري بخطى ضيقة
اشارة الى ان الجسم ممتلئ قوة وشهامة ولم تؤثر فيه عوامل مشقة السفر فى سبيل الله) .

وبعد طوافك سبعة اشواط على هذا النظام توجه خلف مقام ابراهيم وصل ركعتين سنة الطواف ، ثم قل : اللهم انك دعوت عبادك الى بيتك الحرام وقد جئت طائفا لامرك فاغفر لي وارحمي ، اللهم اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيرا ، اللهم اغفر لي ولجميع المؤمنين والمؤمنات الاحياء منهم والاموات . ثم اقصد الملتزم وقل اللهم يارب البيت العتيق أعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا واخواننا وأولادنا من النار ، اللهم احسن عاقبتنا في الامور كلها واجرتنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة ، اللهم انى عبدك وابن عبدك واقف تحت بابك ملتزم لاعتابك متذل بين يديك ارجو رحمتك واخشى عذابك ، اللهم اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واغفر لى ذنبى . ثم اذهب الى بئر زمزم فاشرب منها هنيئاً مريئاً . ثم توجه الى المسعى فاذا خرجت من باب الصفا قتل : بسم الله الرحمن الرحيم ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما ، ثم اصعد على درجات الصفا وتوجه الى الكعبة فاذا شاهدتها قل : بسم الله الله اكبر والله الحمد ، ثم اسع الى المروة قائلاً : لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير ، لا اله الا الله ولا نعبد الا اياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، اللهم انى أعوذ بك من عضال الداء وخيبة الرجاء وشماتة الاعداء وزوال النعمة ونزول النعمة ، وتهرول بين الميئين الاخضرين (وهما عمودان مبنيان فى جدار الحرم ، واحد بجوار باب البغلة والاخر بجوار باب علي ومسافة ما بينهما سبعون متراً) قائلاً : رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم انك أنت الاعز الاكرم ، ربنا اتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار يا عزيز يا غفار يا أرحم الراحمين ، ثم ادع بما شئت حتى اذا أتيت المروة فاصعد على سلمها وتوجه الى المسعى (١) وادع الله بما شئت .

(١) المسعى هو ما بين الصفا والمروة وطوله نحو اربع مائة وعشرين متراً وهو شارع عمومي محاط بالبيوت والحنازين والدكاكين مما يجعله مزدحماً بالناس زمن الموسم لاسيما عند دخول القوافل بالحجيج الى مكة وهناك يكثر الساعون ويصادفون فى سعيهم مشقات كثيرة . وعلى طرفى المسعى وخصوصاً من جهة المروة دكاكين للحلاقين يخلق أو يقصر فيها من أراد ان يتحلل من احرامه .

ويعدهذا شوطاً من السعي . وهكذا تسعى في الاشواط السبعة . وتستحضر أثناء سعيك ذلك الجهد الذي اصاب هاجر في هرواتها طلباً للماء عند قدميها بولدها الى هذه الغلاة فرحمها الله بعثورها على عين زعزم فكان عليها استثمار مكة التي اصبحت قبلة للمسلمين في جميع اطراف الارض . واذا كنت محرماً بالعمرة حلقت أو قصرت وتحملت (فكنت احرامك) ، حتى اذا كان يوم التروية (اليوم الذي قبل يوم عرفة) احرمت للحج . اما ان كنت قارناً (أعنى محرماً بالحج والعمرة معاً) أو مفرداً (محرماً بالحج) فقط بقيت باحرامك في مكة الي يوم التروية ، ثم توجه الي عرفة فقيت فيها ان لم تكن أردت المبيت بمنى وتقضى بعرفة (١) يوم التاسع من ذي الحجة وجزاً من ليلة العاشر في الذكر والتوحيد والتسبيح والتهليل والتلبية والصلاة على النبي والاكثر من تلاوة سورة الاخلاص ومن قولك لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، وتكثر من الدعاء ، والتضرع الى الله بقبول حجك وغفران ذنبك خصوصاً بعد العصر ويسن تقديم الجمع بين الظهر والعصر مع الامام (بعرفة) . فاذا نفر الامام أو نائبه من عرفة فانفرمه الى المزدلفة ، وان كنت مالكيّاً فحسبك من اقامتك بها مقدار ما تجمع فيه جمارك وهي تسع وأربعون حصاة في حجج الفولة تقريباً ، وان كنت شافعيّاً فحسبك الاقامة فيها جزاً من نصف الليل الثاني ، وان كنت حنفيّاً فبت بها وانزل بعد صلاة الصبح الي

(١) يكفي في الوقوف بعرفة لحظة من يوم التاسع وليلة العاشر . ولو فاتك الوقوف فقد فاتك الحج من عامك ، وعليك ان تحلل بعمره ، وقضاؤه في العام القابل ولو كان حجك نفلاً . هذا عند أهل السنة ، أما عند الشيعة من الاعجام فحاجهم لو فاته الوقوف فانه لا يحل حتى يقضى حجه من عام قابل : لذلك تراهم يبالبون في الاحتياط لو قوفهم فيقفون في اليوم التاسع والعاشر ولا ينزلون من عرفه الا بعد قليل من ليل الحادى عشر .

ولقد فاتهم الوقوف سنة ١١٤٣ فاقاموا بمكة محرّمين حتى أدوا الفريضة سنة ١١٤٤ ولكن أهل مكة قاوا عليهم بدعوى أنهم وضعوا نجاسة في البيت وارغموا الشريف محمد ابن عبدالله بن سعيد فاصدر أمره باخراجهم من البلد الحرام فساروا الى الطائف وجده واقاموا بهما الي الموسم التالي .

منى ، وارم جرة العقبة بسبع حصيات تقول في اثناها : بسم الله الله اكبر رجما للشيطان وحزبه ، اللهم تصديقا بكتابتك واتباعا لسنة نبيك وخليتك عليها الصلاة والسلام . ثم اذبح ان كان عليك دم ، ثم احاق أو قصر وقل : الحمد لله الذى قضى عنى نسكى اللهم زدنى ايمانا و يقينا ، وهنا لك يحل لك كل شىء الا النساء والطيب . وفى اليوم الثانى ترمى جرة العقبة بعد الزوال ، ثم ترمى الجرة الثانية ثم الثالثة بسبع حصيات فى كل جرة ، وكذلك تفعل فى اليوم الثالث . ثم انزل الى مكة وطف طواف الافاضة ، واسع ان لم تكن سعت بعد طواف القدوم . ومن الناس من ينزل فى اليوم العاشر الى مكة حتى اذا طاف طواف الافاضة وسعى (ان كان عليه سعي) عاد من يومه الى منى ونزل منها الى مكة بعد زوال اليوم الثالث عشر وبهذا ينتهى الحج . ويقوم الحجاج فى مكة اياما يصلحون فيها من شؤونهم ثم يقصدون السفر الى الزيارة أو العودة الى بلادهم .

الجنایات

يحرم على المحرم لبس الخيط وتغطية الرأس وازالة شعره بنتف أو حلق ، فان فعل شيئاً من ذلك متعمداً أو ناسياً فعليه الفدية (بذبح شاة) ، الا اذا كان الشعر الذى سقط منه يسيراً لا يتجاوز اثنتى عشرة شعرة فعليه حينئذ ان يتصدق بحفنة من بر . ويحرم عليه أيضاً تقليم اظافره ، وعليه الفدية ان فعل ، الا اذا كان ظفراً أو ظفرين فعليه ان يتصدق بمدية أو مدتين . ويحرم عليه الطيب فى بدنه أو ثوبه أو فراشه أو أكله أو شربه أو فى عطوس أو دهان ، ويجب عليه به الفدية . ويحرم عليه صيد الحيوان أو قتله أو تنفيره أو ازعاجه كما يحرم عليه قطع حشيش الحرم وشجره وعليه به دم . ويحرم عليه الجماع وبه يفسد الحج . واذا فات الحاج شىء من أركان الحج أو العمرة أو شروطهما سهواً أو عمداً بطل حجه وعمرته وان فاته شىء من الواجبات وجب عليه دم لكل واجب تركه : وذلك بان يذبح شاة فى الحرم ، فان عجز عن الذبح صام ثلاثة أيام فى الحج من وقت احرامه الى يوم النحر وسبعة اذا رجع الى بلده هذا اذا كان ترك شيئاً منها قبل الوقوف أما ان تركه بعده فله صوم العشرة الايام بعد عودته الى وطنه . وان فاته شىء من السنن أو المندوبات فعليه ان يتصدق .

الاحرام

يجب ان يكون الاحرام من الميقات ، ولكل جهة ميقات معين ، فقد روى عن عمر وابن عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم قال « مهل أهل الشام الحجفة ومهل أهل المدينة من ذى الحليفة ، ومهل أهل نجد من قرن ومهل أهل اليمن من يلم ». والحجفة وتسمى مهبة قرية صغيرة على طريق المدينة الى مكة ، وهي شرقي رابغ وعلى نحو ستة أميال منها (ويراد بأهل الشام هنا ما كان شمالي مكة) ، وذوالحليفة (آبار على) . نزل رسول الله صلى الله عليه اذا خرج من المدينة المنورة لحج أو عمرة ، وكان عليه الصلاة والسلام يخرج من هذا الطريق ويهل من هذا المكان ، وكان اذا عاد الى المدينة دخل من طريق العرس وهو بطن الوادى ، وكان طريقه صلى الله عليه وسلم الى مكة على الصفراء و بدر وعسفان ومنازله على غير منازل الحاج في أيامنا هذه ، وربما اتفقت في كثير منها وان اختلفت اسمائها . وأما قرن المنازل فهو مشتبك طريق نجد مع طريق القافلة من الطائف الى مكة ، وهو على مرحلة من الطائف ومرحلتين من مكة (وقد كان في قرن لعذنان مع بختنصر واقعة كبيرة في القرن السادس قبل الميلاد لمتصرفيا الاشوريون على العرب ثم رجعوا عنهم الى بلادهم) ، اما ذات عرق التي يحرم منها القادمون من نجد فهي غربي قرن والحد الفاصل بين نجد وتهامة ، قال الشاعر

كان المطايا لم تنخ بتهامة اذا صعدت عن ذات عرق صدورها
ويللم بفتح أوله وثانيه جبل على ليلتين من مكة وفي طريق اليمن اليها وأوديته
تحد الى البحر .

وهذا للخارج عن هذه الحدود أما الداخل فيها فيحرم من أي نقطة من الحل . ولا بد لنا ان نلاحظ ان جعله صلى الله عليه وسلم ميقات احرام أهل المدينة من ذى الحليفة ، التي هي على نحو عشرة مراحل من مكة في حين ان مهل الجهات الاخرى لا يبعد عنها الا بنحو مرحلتين ، أما هو لزيادة عنايته صلى الله عليه وسلم في الاستعداد

لدخول حرم الله و اراد ذلك لاهل المدينة لانهم أحب الناس اليه واقربهم منه .

لباس الاحرام

كان الناس قديما يصنعون ملابسهم من القطن أو الكتان أو جلود الحيوان بحال بسيطة جدا . والمصريون كانوا يستعملون في أول أمرهم المنزيم البرنس : وهو قطعة من القماش تلتقي على الاكتاف وتربط بحزام وترسل الى الركبتين في العامة أو الى اسفل منها في الخاصة . حتى اذا ترقت الدولة في عمرانها اطلوا من ذلك البرنس الى الكمين ، ولبسوا من تحته قميصاً لا اكمام له أخذوه عن الاثيوبيين (١) وكانوا في مبدأ أمرهم يلونون ثيابهم بلون واحد (أخضر أو ازرق أو احمر) ثم اتهموا باستعمال كثير من الالوان في ثيابهم مع ما كانوا يوشرون به دائر ملابسهم بالاشربة المنقوشة .

أما الاشوريون فقد كانوا يشتملون بقطعة كبيرة من القماش ويمرونها من تحت ابطنهم الأيمن ويفطون بها الصدر ثم يرسلونها على الكتف الأيسر حيث يثبت طرفها اما بمقعدة أو بمشبك (انظر سطر عشرين من صفحة ١١٥٣ من الجزء الثاني من دائرة المعارف الفرنسية الكبرى) ، ثم غيروا هذا الزي بان لبسوا قميصاً صغيراً ومن فوقه شيء يشبه العباءة . والاعجام كانوا يزيدون على ذلك سراويل واسعة .

واليونان كانوا يلبسون رداء طويلاً واسعاً ويمرونه من تحت ابطنهم الأيمن ، بعد أن يلفوا به وسطهم ، ثم يرسلونه على ظهرهم بعد أن يغطوا به كنفهم الآخر ، ثم صاروا يشتملون بهذا الرداء الجسم جميعه : ذلك بأنهم كانوا يأتون بهذا الرداء الطويل ويربطون طرفيه ثم يدخلون ذراعهم الايمن مع الرأس من فتحة ما بينهما بحيث تكون العقدة على الكتف الايسر ثم يلف الجسم بياقي هذه الشملة ويسمونها شيون (Clion) كما تراه الى اليوم في

(١) هم سكان اثيوبيا وهي مملكة قديمة كانت في جنوب مصر في المنطقة التي بها الحبشة وما والاها شرقاً الى الصومال وشمالاً وغرباً الى جزء عظيم من السودان المصري

عرب البادية المصرية خصوصاً عرب الغرب منهم ولاشك في أنهم أخذوا هذا الزي من الرومانيين أو القرطاجيين ولبث فيهم على بداوته الأولى إلى الآن . وهذا الشكل يوجد منه صور كثيرة على الآثار الرومانية وقد شاهدت شيئاً مماثلة تماماً على قاعدة المسلة التي في القسطنطينية في ميدان السلطان أحمد وعلى بعض النواويس الموجودة في متحف الاستانة بل وفي النقوش الموجودة في سقف جامع القهرية (القهرية) وهو (أول كنيسة بنيت في الاستانة وحولت إلى مسجد بعد الفتح) .

أما أنتكخاتنا المصرية فقد شاهدت فيها أن ملابس المصريين في قديم الزمان كانت تنحصر في لبس المنزر ، وهو فوطة يلف بها النصف الأسفل من الجسم على هيئة ما يكون الرجل في أيامنا هذه داخل الحمامات العمومية (١) وأخص بالذكر مما رأيته على هذه الصورة تمثال كافرين المشهور بشيخ البلد في القاعة حرف (B) من الدور الأول نمرة ٧٤ وهو باني هرم الجيزة الثاني ومن ملوك العائلة الرابعة المصرية التي كانت توجد في القرن الحسین قبل المسيح ، ثم تمثال (رغفر) من العائلة الخامسة في القاعة حرف (D) ، ثم تمثال أمور وأمون وهما من معبودات المصريين ، ثم صورة للمسيح بالدخلة الصغيرة للطرفة البني تمثله بمنزر بسيط (ولا يمكن تحقيق ما على نصفه العلوي لأن يد الزمن قد محت ما عليه) . ويوجد غير ذلك كثير من التماثيل البرنزية والنحاسية التي في دواليب المتحف لابسة شبه احرام كامل ، وقد شاهدت من بينها تماثلاً من الفخار للعداء وهي ملتحفة بشملة تغطي جميع جسمها وابنها على يدها .

أما القاعات الرومانية واليونانية التي على يمين صحن المتحف من الدور الأول ففيها مثال الاحرام باشكاله التامة : فترى في وسط القاعة حرف (T) امرأة رومانية من الرخام الابيض الوردی بهيئة احرام كامل أعني أنها ملتحفة برداء أبيض يغطي كل جسمها ماعدا رأسها . ويقرب منها مثال رجل من الجرانيات الاسود ملتحف برداء قد انحسر عن ذراعه الايمن وهو ما يسمونه في الاحرام بالاضطباع ، وفي رجله نعال لا تغطي

(١) هذا اللباس شائع للآن في أغلب بلاد السودان وغيرها من البلاد التي لا تزال

على فطرتها الأولى، ونشاهده على كثير من اعراب البادية في احرامهم وفي غير احرامهم .

ظاهر القدم اللهم الا عروة يدخل فيها الابهام ويخرج منها سيران رفيفان يتصالبان على ما دون الكمين ويربطان فيما دون العقب : وهو ما يسمونه في الحجاز بالنعال الشرقية التي أجمعت المذاهب الاربع على صحة الاحرام بها . وهذه النعال تراها ايضاً في قدم منفصلة عن جسمها موضوعة على يسار الداخل في القاعة حرف (R) ، ومتاحف القنون الجميلة في جميع انحاء الدنيا غاصة بصور الناس في العهد القديم وهم في لباسهم البسيط الذي يماثل لباس الاحرام بل هو هو بينه . والقوم يمثلونه تماماً في تشخيص الروايات التي تمثل الزمن القديم الروماني أو اليوناني وخصوصاً في تمثيل صور الانبياء والحكماء .

ويقال ان اليهود كانوا يستعملون في معابدهم لبس غير المحيط ، أما الآن فيكتفون بوضع رداء على اكتافهم من الصوف يسمونه تلييت أو تيسوت ليتشبهوا بموسى عليه السلام في بساطة لباسه .

ومن هذا ترى أن ملابس الناس في الزمن القديم بل في جميع ادوار الامم الخالية حتى في ابان الحضارة كانت على هذه البساطة . وليس هذا بغريب فان آلة الخياطة ما كانت معروفة في تلك الازمان : ولقد كان الناس يستعملون أولاً في خياطة ملابسهم شوك الاسماك وسل النخل ، ثم توصلوا الي استعمال الابر الحديدية ، أما الابر التي من الصلب فانها لم تخترع الا في القرن الرابع عشر للمسيح ولم يذع استعمالها في اوربوا الا في القرن السادس عشر .

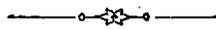
وكان أبسط تلك الملابس شكلاً ونوعاً ملابس الاشوريين الذين هم اخوان الكلدانيين الذين خرج منهم ابراهيم (لان كليهما من الجنس السامي) : وعليه فلباس الاحرام كان هو هو بذاته ذلك اللباس البسيط الذي كان يلبسه ابراهيم عليه السلام حين أمره الله تعالى بالحج قائلاً « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » ، وما زالت هذه السنة قائمة في حج البيت الى الآن . وأما كونه أبيض فلأن لون البياض شعار الطهارة والنظافة ، والا فالغرض من الاحرام لبس غير المحيط مطلقاً : اشارة الى أن الانسان خرج الى ربه من زخارف الدنيا وما فيها

الى بساطة الوجود وبدأوته ، خرج الى ربه من امة الحياة ورفعها وتمثل بين يديه تعالى بحال رجع فيها الى طبيعة الوجود البشرى من حيث البساطة التامة التى كان مظهرها ذاك الزى الذى يمثل الاشتراكية الحقبة بكل معانيها ، فيستوي فيه الصعلوك والملوك ، هذا الزى الذى يستقبل الانسان في مهده ويشيعه الى لحده ، حتى كأنه يقول الى ربه : اللهم انى قد نزعنت عن نفسى ظاهرها وباطنها رداء قد وشته الاباطيل وموهته الاضاليل وخرجت اليك وقد جردت نفسى لك مما أملك طامعاً في نيل مالا املك من نعم ان عشت أعود بها الى حياة جديدة كلها فضيلة وخير وبركة ، أو أقضي بها ان مت فى سبيلك ومحبتك وطاعتك وانتقل بها الى دار السعادة الحقيقية فأحشر فى زمرة المقبولين والصدقيين ، زمرة الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . وهلا رأيت ذلك اللباس الاكليروسى البسيط (لباس الرهبان) الذى رسم عليه كل من تمثالي غليوم الثانى امبراطور المانيا والامبراطورة قرينته وارسل بهما ليوضعا فى الملجأ الالمانى الذى بنى فى بيت المقدس؟ وسافر البرنس ايتل لافتتاحه رسمياً بالنيابة عن والده الامبراطور فى شهر ابريل الماضى سنة ١٩١٠ .

على أنه لا يعزب عن فطنتك وينبوع فكرتك أن الاطباء وجدوا أخيراً أن الانسان لا بد له من تعريض جسمه الى الهواء المطلق وموثرات الجو نحو شهر من كل سنة يسترجع فيه الجسم قوته ويستعيد نشاطه بفضل ملاصقة اوكسيجين الهواء لجميع مسام جسمانه : وبهذه العملية يحترق ما فى الدم من الكربون الذى تشبع به اثناء دورته من الفضلات التى تخلفت فى الجسم فيعود الى القلب دماً تقياً زكياً صالحاً لتغذية الحياة بمادة القوة التى تكون بها العافية التامة والصحة العامة التى هي قوام الوجود بل الحياة بجميع معانيها .

لذلك ترى الاورواپاويين وعلى الخصوص الأنجليز (لاعتنائهم بصحتهم اكثر من غيرهم) يعمدون كل سنة الى الجبال أو الى شواطئ البحار فيخلعون ثيابهم الا ما يستر عورتهم و يقيمون على هذه الحال شهراً او اكثر يستعيدون فيه ما فقدوه من قواهم فى سبيل العمل طول سنتهم . وكثيرا ما رأيت الفرنجة فى هذه الاماكن الصحية على

شاطئ البحر حفاة عمارة معرضين بكل جسمهم للهواء وبرودة الجو أو حرارة الشمس جملة ساعات وليس عليهم الا تلك العانة المستعارة التي يغطون بها السبيلين ويسمون ذلك بعلاج الطبيعة أو علاج الهواء (Cure d'air). ولا غرابة اذا رجعت بنا المدينة الحديثة الى كثير مما كان عليه القدماء في بداوتهم الذي يسميه الجبلأ خشونة وتوحشاً . واذا فلا عبرة بما يقوله المخرفون او المتحاملون على الدين الاسلامي المتعصبون عليه من ان الاحرام هو سبب كثير من الامراض التي تعترى الحاج بمكة وعرفه ! ولو أنصفوا لنسبوا كل ما يقع لبعض المحرمين من البرودة شتاء والاحتقانات الدماغية صيفاً الى علته الحقيقية وهو الفقر الذي يموت منه يومياً آلاف من الناس على قوارع الطرق في عواصم الدنيا المتمدنة . ولقد شاهدت في بعض اسفارى بعاصمة من عواصم اوربا شاباً يموت من البرد والناس من حوله ينظرون الى ما يعترى جسمه من انفعالات الموت بين ضاحك منه وساخط عليه ! ! واذن فالمحرم الذي يحرم بثوب واحد يكون من عادته لبس نوب واحد والا فلا حرج عليه ان يلبس ما شاء من غير مخيط او يضع على رأسه مظلة او يلبس ما شاء من مخيط ويفدى عنه بما يساعد على حياة البائس والفقير



خروج الحجيج الى عرفة وافاضتها منها

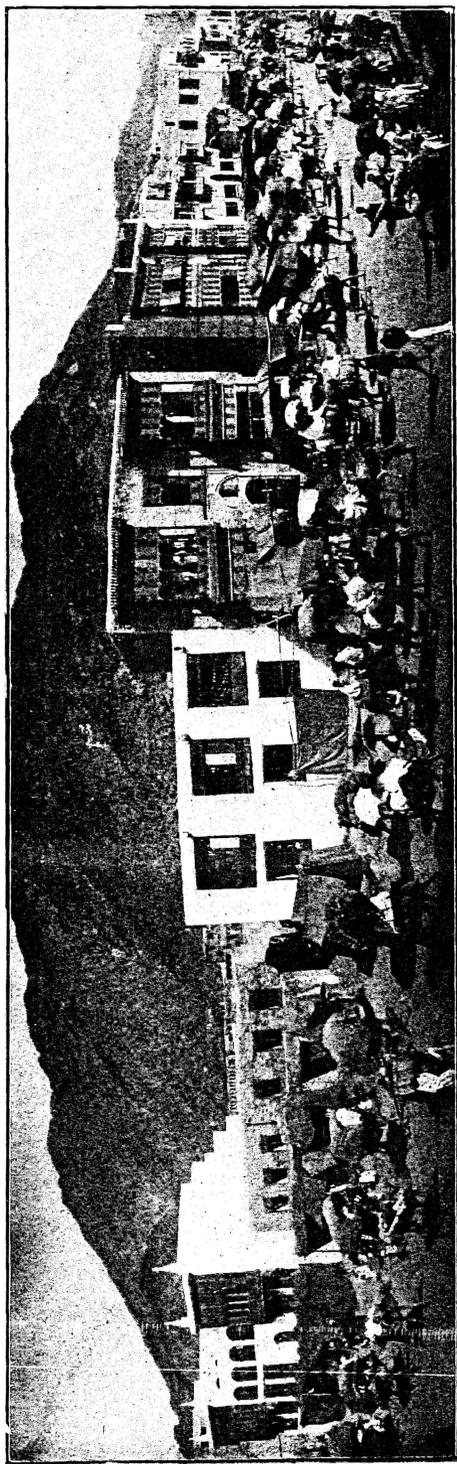
في السابع والثامن من شهر الحجة يتندى الناس في الخروج من مكة الى عرفة محرمين على جماهم أو حميرهم أو على اقدمهم ويتجهون الى طريق الشرق مارين بالملى ثم يسرون نحو الشرق بميل خفيف الى الجنوب بين جبلين في واد عرضه يختلف من مائة متر الى خمسمائة ، وحركة الناس فيه لا تنقطع في هذين اليومين . وفي نهاية مكة من هذه الجهة « البياضية » وفيها قصر الشريف عبد المطلب يحيط به بستان اغلب اشجاره من شجر السدر وهو على يمين السالك الى عرفة ، وبعد نحو ثلاثة كيلو مترات منه تجد

جبل النور على يسارك وقته عالية جدا قد اقيمت عليها قبة بيضاء ضاربة بنورها الى السماء ، وكان هذا المكان يتعبد الناس فيه قبل الاسلام ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتعبد به وأول ما نزل عليه الوحي فيه . ثم تنعطف قليلا نحو الجنوب ، وبعد نحو خمسة كيلو متر تصل الى منى ، فترى في مبدأ دخولك في طريقها العمومي على اليسار جمرة العقبة وهي ما يسمونه مثال ابليس الكبير : وهو حائط مبنى من الحجر ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار في عرض نحو مترين قد اقيم على قطعة من صخرة مرتفعة عن الارض بنحو متر ونصف ومن اسفل هذا الحائط حوض من البناء تسقط اليه حجارة الرجم (الجارم) الذى يقوم الحاج بعمليته عند الافاضة من عرفة . ولقد كانت منى (١) مكانا مقدسا عند عرب الجاهلية وكان بها لهم بيت لاصنامهم ، وهي الآن مكان متسع قد اقيمت فيه بيوت لسكن الحجاج فيها بالاجرة عند ذهابهم الى عرفة أو عودتهم منها ، وهي ملك جماعة من اشراف مكة واغنياهم . أما معظم الحجيج فانه يكون نجما بالفضاء الذى يحيط بها . وفي غير الموسم لا يكون فيها أحد غالباً . وفيها شارعان متوازيان على طول الوادى . وفي شارعها العمومي ترى مثالي الشيطانين الصغيرين واحدا في وسط الطريق والآخر على يمين السالك الى عرفة .

وبعد هذه المساكن ترى الوادى يتسع على طول اثنين كيلو متر وتشاهد به على يمينك مسجد الخيف ، ثم المصطبة التى تنصب فيها خيم الشريف والوالى مدة اقامتهما فى منى زمن الحج . ومن ثم يضيق الوادى ويسمى بوادى محسر ، حتى اذا وصل الى المزدلفة وهي على مسافة ساعتين من منى أخذ فى الاتساع . وهناك ترى على يمينك المشعر الحرام الذى يجب الوقوف عنده فى النزول من عرفة وفيه (٢) مسجد على جبل قروح عمره السلطان قايتباي ، ومن هناك يضيق الوادى ثانيا ويسمى بوادى عرنه (بضم العين وفتح الراء والنون) حتى اذا قرب من مسجد نمرة (بفتح النون وكسر الميم وفتح

(١) لا يبعد أن يكون العرب أخذوا هذا الاسم من جزيرة منا التى فيها هيكل بوذا قرب جزيرة سيلان .

(٢) الموجود من هذا المسجد الحائط الغربى (الذى هو جبهة القبلة) فقط .



قائدہ کجراج و ملی راہ منہ منی الی عہدہ

الراء) انفتحت ارجاؤه الى الشمال والجنوب . ومسجد نمرود (ويسمى مسجد عرفه) مسجد كبير قد احاطت به البواكي في جهاته الاربع من داخله وعمره قايئباى عمارة تشكر وهذا المسجد نصفه الغربى (أى الذى الى مكة) فى الحرم والنصف الآخر فى الحبل ، وبوسطه مجرى ماء يسير اليه زمن الحج من مجرى عين زبيدة . وبعد هذا المسجد بقليل الى الشرق ترى العلمين : وهما عامودان من البناء بعيدان عن بعضهما بارتفاع نحو خمسة امتار فى عرض نحو ثلاثة قد اقيما فى فضاء الوادى للدلالة على حدود عرفة ، وهناك نجد الجبل قد حاق على الوادى وقفله امامك الى الشرق بشكل قوس كبير ، وعلى طرف القوس من جهة اليمين الطريق الى الطائف على كرا . وهذا الجبل هو ما يسمونه عرفه وفى جهته الشمالية ترى صخرة عالية برزت عنه الى الغرب وتسمى جبل الرحمة وسفحه الجنوبي هو حد عرفة من الشمال ، وهى التى كان يقف عليها الرسول صلوات الله عليه فى حجه ليخطب فى قومه وهى مكان وقوف الخطيب الى الآن وفى أعلى جبل الرحمة منارة يعلق فيها ليلة عرفة مصابيح لارشاد السالكين اليه وفى اسفله مصلى يسمى مسجد الصخرات (يقال ان النبي صلى الله عليه وسلم صلى فيه) ، وبجوار هذا المسجد ترى مجرى عين زبيدة الذى سيرته الى مكة .



الى قوف بعرفه

عند وصول الحجاج الى هذا الوادى ينزل ركب المحملين بنخيامهم قريبا من جبل الرحمة يليها مضارب الحجاج على اختلاف أجناسهم . وعلى سفح عرفة من اعاليه الى جبل الرحمة ترى حجاج الاعراب محتشدين الى جوف الجبل بعضهم فوق بعض كالحجر المرصوص ، أما باقى الحجاج فانه ينصب الخيام فى بطن الوادى الذى يحشر اليه الناس حتى لا تكاد ترى فيه مكانا خاليا من واقف أو قاعد ، وجاهلهم وحيرهم مربوطة بجوارهم ، وترى الكل فى صعيد واحد حتى يتعذر على الانسان السير الى أى جهة أراد ولو لضرورة فى نفسه . ولو كان مولانا الشريف يأمر بتقسيم وادى عرفة الى

أحذية افقية يقسمها شارع راسي، ويخصص كل حذاء لسكنى جماعة من الحجيج، وحماهم من ورائهم ، وتوضع لذلك علامات من البناء لا يتجاوزها الحجاج في وضع مضاربهم ولا الجمالة في ربط جماهم ، ويمين لهذا النظام من يحفظه مع الدقة لكان له شكر الله والملائكة والناس أجمعين . وعلى كل حال ففي سعة الوادى ما يضمن لدولته اقامة الكل على الراحة التامة ، لان هذا التزامم إنما سببه القرب من مجرى الماء ومن السوق الذى تراه بجوار مسجد الصخرات (ويباع فيه بعض الاغذية الضرورية) . وربما كان لزامهم سبب آخر وهو خوفهم من الاعراب الذين يكون لهم من سعة هذا الرحاب عون على التهب والسلب . وبسبب هذا التزامم ترى الناس يضلون عن امكتهم اذا تركوها لامر ما ، ولذلك تراهم ينادون على بعضهم اما باسمائهم أو بالفاظ يكون قد اصطاح عليها أهل كل جهة حتى اذا سمعها واحد منهم أجابه بصوت عال ويقصد مصدر الصوت . وهذه الحركة لا تكاد تقطع مدة الاقامة بعرفة .

ويجدر بدولة مولانا الشريف (١) اصدار أمره الكريم بالناية التامة بتلاخظة فتحات مجرى عين زبيده وتعيين خدمة مخصوصين لها لا يدعون أحدا من الحجاج يعيث بها ويستحم فيها (وخصوصاً اولئك المجذومين الذين يفتسلون في الحوض الذى يسمونه بحوض المجذومين زاعمين أن فيه شفاءهم ، وهم بعملهم هذا إنما يضرون اخوانهم المسلمين بنقل العدوى اليهم) . ولا يعزب عن فكره السامى ان علماء البكتريولوجيا

(١) وياحبذا لو يأمر دولته بوضع طلمبات على فوهات مياه مجرى عين زبيده وخصوصاً في مكة وعلى بئر زمزم وتكون هذه الطلمبات كبيرة بحيث تكفي لحاجة الحجاج من جهة ، ومن أخرى تجعل ماءها بعيداً عن التلوث بانواع البكتريا التى تكثر منها الحمايات في الحجيج وتودى في الغالب بحياة الكثيرين منهم .

وعندى نصيحة للذين من عادتهم النناية بأمرماء الشرب : ذلك أنهم اذا أرادوا الحج أخذوا معهم ما يكفيهم من المياه المعدنية أثناء الطريق ، أما مدة وجودهم في مكة والمدينة فحسبهم غلي الماء المخصص لشربهم ، في طريق الصحراء على نلتزسفرى يتمصون الماء بواسطته عند الضرورة ولو اضافوا عليه من برمنجانات البوتا سا لكان احفظ لصحتهم . ويجب ان يستعدوا

البحاج في ميدان جبل عرفات في ١٠ محرم ١٣٢٠ هـ



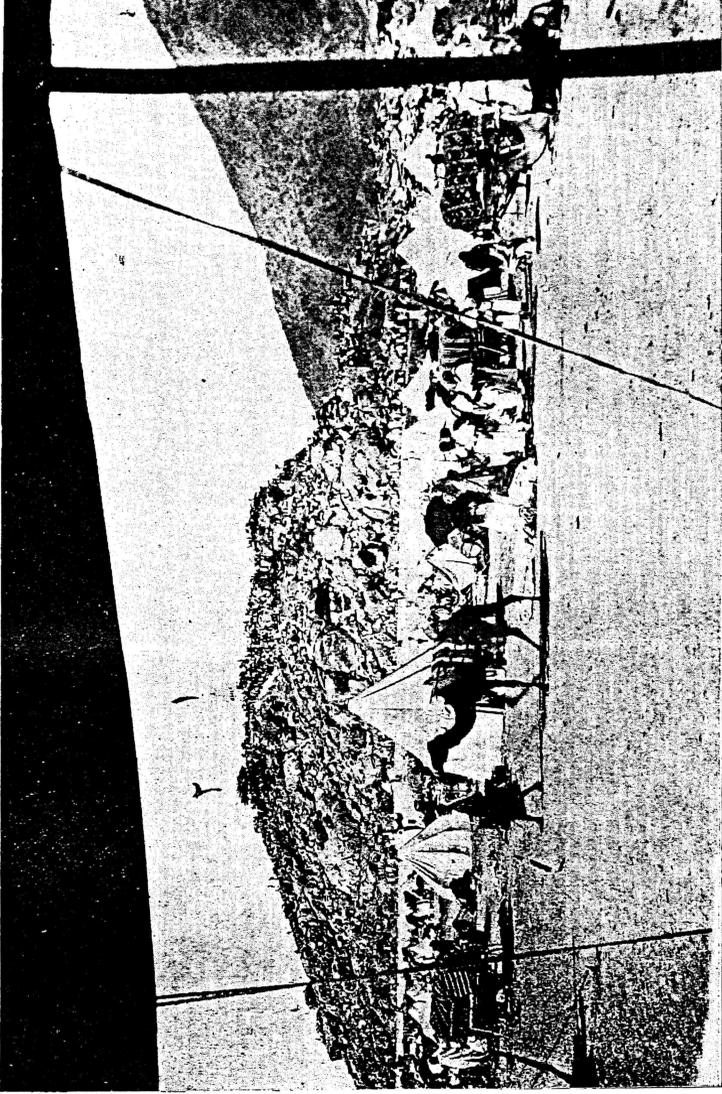
حقوق الطبع والنشر محفوظة باسم راسم اللؤلؤ ابراهيم فهد باشا امير سنج مصر في ١٠ محرم ١٣٢٠ هـ

ذهبوا الى أن الماء إنما هو أكبر موصل للعدوى وخصوصاً في وباء الكوليرا : نسأل الله تعالى السلامة منه لعباده .

ويوم الوقوف هو التاسع من ذى الحجة مع قليل من ليلة العاشر باتفاق المسلمين فاذا ثبت هذا اليوم عند القاضى بالصفة الشرعية وقف جميع المسلمين على اختلافهم في الجنسيات والمذاهب من غير أن يكون للشك تأثير عليهم ، الا الشيعة من الاعجام فانهم لو حصل عندهم أدنى شك في رؤية هلال الحجة ، بمعنى أنه لم يشاهده منهم العدد الجم ، وقفوا يوم التاسع والعاشر احتياطاً . وفي عرفة ترى الناس مشتغلين كل بشأنه ، وهم وان انفصلوا في هياكلهم فان قلوبهم مرتبطة ارتباط ذرات الجسم الواحد ببعضها . وبعد صلاة العصر يحرك المحملان بحرسهما الى منحدر جبل الرحمة ويصعد خطيب عرفة (وهو في الغالب قاضى مكة الذي يتعين من قبل السلطان) بناقته من طريق حلزوني الى صخرة في صدر هذا الجبل ، ويخطب نياحة عن السلطان خطبة يعلم الناس فيها مناسك الحج ويكثر فيها من الدعاء والتلبية ، ومن دونه مبلغون بأيديهم مناديل يشيرون بها في كل تلبية الى الواقنين دون الصخرة فيقول الكل « ليك اللهم ليك » بصوت يكاد يصعد بالاحشاء الى عنان السماء . فيالها من ساعة ترى الناس فيها قد تجردوا بالمرّة عن أنفسهم فلا يكادون يشعرون بما يحيط بهم من معالم الحياة ، وقد تغلب وجدانهم على وجودهم وظهرت روحانيتهم على جسمانيتهم ، حتى كأنهم في لباسهم الابيض الطاهر التقي ملائكة لله في هذا الوادى الذى يردد صدى أصواتهم وابتهالاتهم الى واجب الوجود ، الى الملك المعبود ، الى الواحد الاحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد ، ثم يعود اليهم صدى هذا الصوت فيحدث في نفوسهم هزة تدق لها قلوبهم وتضطرب منها أفئدتهم خشية من رب الارباب ومالك الرقاب ، فتسوخ النفوس في ظروفها وتكشم الجسوم على هياكلها من رهبوت هذا الملكوت ، وحشاشات قلوبهم تنصب من آفاق عيونهم أسفاً على ما اقترفوه من ذنوب وعيوب !! وهنالك تتلاحق الارواح الى التعلق بأستار رحمت رحمانها تائبة مستغفرة ضارعة اليه تعالى بقبولها في ساحة غفرانه مؤملة في عظيم كرمه

واحسانه ولا تلبث ان تتراجع وهي على يقين من قبولها في ساحة الرحيم الرحمن ، وقد
قر في نفوس ذويها حب الفضيلة و بغض الرذيلة وحسب الانسان من فضيلة الحج
هذه الحسنة الجميلة . ويستمر الناس على هذه الحال حتى اذا غابت الشمس في الافق
اطلق صاروخ من قبل الخطيب اعلانا بتمام الموقف ، وهناك تتحرك المحامل بين ضرب
المدافع وغرف الموسيقىات وأصوات الالبهالات وكثرة الدعوات وانهمال العبرات ،
ويكون كل حاج قبل ذلك قد حمل حموله واستعد للافاضة ، فتفر الناس مرة واحدة من
عرفات مسرورين هاتفين بهتاف الفرح والحبور حتى اذا وصلوا الى ذينك العلمين
خرجوا من بينها . وهناك ترى الزحام لا يوصف والناس في حركة هائلة الى المزدلفه
فاذا وصلوها نزلوا بها وأقام بها الحنفية الى ما بعد صلاة الصبح ، والشافعية الى ما بعد
نصف الليل ، أما المالكية فحسبهم من الافامة بها قدر ساعة يجمعون فيها حجارهم من
الحصى الموجود في أرضية واديها : وهي تسع وأربعون حصاة على قدر الفولة يتناولها
الحاج من رمال تلك الصحراء الواسعة ليرجم بها في منى التي ينزل اليها من ليلته . وأغلب
الحجاج يقلدون مالكا ويسرعون في النزول اليها حتى يجدوا لهم فيها مكانا يقيمون به
على راحتهم . وفي صباح النحر وهو يوم العيد الاكبر يكون عموم الحجاج وصلوا الى
منى . ويخيم الحمل المصري في شمال المصطبة التي فيها نخيم الشريف ، والحمل الشامي
الى جوار مسجد الخيف : وهو مسجد كبير ذو فضاء واسع مربع يحيط به سور متسع
والى حائطه الغربي رواق على طوله قام سقفه على أعمدة من البناء . وباب هذا المسجد
الى الشمال وفي وسط صحنه تجاه الباب قبة كبيرة اقيمت على مكان يصلي الناس فيه ،
وهو المكان الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبجوار هذه القبة مأذنة
صغيرة بناها السلطان قايتباي سنة ٧٨٤ . وبنى بجانب هذا المسجد دارا كان ينزل اليها
أمير الحاج المصري فاندثرت ولكن المسجد باق على حاله الا أنه يحتاج من
داخل سوره وخارجه الى عناية ذوي الشأن حتى يكون نظيفاً بعيداً عن عبث العابثين
ان لم يكن لموجبات الدين فلموجبات الصحة العمومية وخصوصاً في منى التي تكتب
فيها صحيفة الحاج النصحية وتساقى على أجنحة البرق الى جميع أقطار المسكونة . وبمجرد

منظر جبل عرفات



حقوق الطبع والنشر محفوظة باسم اسمعيل الابراهيم فونتاشا امير الحج المصري في اكتوبر سنة ١٣٢٥

وصول الحجاج الى منى يقصدون من فورهم جمره العقبة فيرمونها ويحرون ويحلقون أو يقصرون ثم يلبسون ملابسهم : وعندها يحل لهم كل شئ ما عدا النساء والطيب .
وذبايح قربان تذبح قريباً من حفرة في شرقي منى وتلقى فيها ويكون لها بعد الحج رائحة كريهة جداً ، ولو كانوا يأخذون ما يتراكم فيها من العظام مع ما يتخلف منها حول مكة ويبيعونه لاحدى الشركات بجدة ويصرفون ثمنه في تحسين طرق الحجاج ونظافة شوارع مكة لكان فيه فائدة كبيرة .

ويقيم الحجاج بمنى الى عصر اليوم الثالث عشر من الحجة ثم ينزلون الى مكة لاداء الركن الباقي من أركان الحج وهو طواف الافاضة والسعي لمن لم يكن سعى بعد طواف القدوم . ومن الناس من ينزل الى مكة أول يوم بعد رمي جمره العقبة لاستكمال جميع مناسك الحج ، ثم يرجعون من يومهم الى منى فيقيمون فيها مع اخواتهم ثلثي وثالث أيام التشريق يرجعون في كل يوم منهما الجمرات الثلاثة وفي عصر اليوم الثالث ينزلون الى مكة .

الرجم

الرجم في اصطلاح الحجيج رمى غرض مخصوص في منى بسبع حصيات في حجم الفولة وهذا الغرض يسمى جمره . والجمرات ثلاث جمره العقبة والجمره الوسطى والجمره الصغرى (ويسمىها العامة ابليس الكبير والوسطانى والصغير) . ولكل جمره مكان مخصوص (مذكور في وصف الطريق الى عرفة) ورميها واجب باتفاق المذاهب : فيرمى الحاج في أول أيامه بمنى (يوم الاضحية) جمره العقبة وحدها ، ثم يرمى ثلاثها في كل يوم من اليومين التاليين فيكون جملة ما يرميه سبع حصيات في سبع (٤٩ حصاة) ومكان الجمرات الثلاث تراه على الدوام غاصاً بالرامين فلا تصل اليه الا بمشقة عظيمة ، وكثيرا ما تشاهد بين هؤلاء الرماة اناساً يجمرون بنشف شديد ، ومنهم من يفلو في

ذلك فيرمى هذا الغرض برصاص طينجته كأنما يرمي عدواً ألدًا ، والكل يتخيل انه أنما يرمى ذلك الشيطان الرجيم الذي لا تخفى عداوته لبني الانسان ، فكأنما هم بهذا الرمي يشهرون عليه حرباً عواناً لما سبق من اغوائه لهم ، ويقطعون كل صلة بينهم وبينه .
وحيث أن الناموس الطبيعي يقضي بأن يكون كل معنى من المعاني مصدره المادة ، فهذا الرمي المادي يوصل بلا شك لمعنى دقيق جليل في ذاته هو تربية ملكة جديدة في شخص الرامي وهي مخالفة شيطان النفس والابتعاد عن مسالك الشرور .
والرجم أمر قديم في الامم : قال الله تعالى في سورة الشعراء في اجابة قوم نوح على نصابهم لهم « لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين » : وقال تعالى في سورة هود في جواب أهل مدين على نصيحة نبيهم شعيب لهم « قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وانا لنتراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بمعز »

وكان الرجم في بني اسرائيل ، وقد ورد في الآيات ٢٤ و ٢٥ من الاصحاح السابع لسفر يشوع ما نصه : « فأخذ يشوع عجان بن زراح والفضة والرداء ولسان الذهب وبنه وبناته وبقرة وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله وجميع اسرائيل معه وصعدوا بهم الي وادي عخور وقال كيف كدرتنا يكدرك الرب في هذا اليوم فرجمه جميع اسرائيل بالمجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم بالمجارة » .

والنصارى يرجمون مكان شجرة التين التي لعنها المسيح حينما أراد أن يأكل منها ولم يجد فيها ثمراً ، انظر آية ١٩ من الاصحاح الحادي والعشرين من انجيل متى (ومكان هذه الشجرة على طريق الذهاب من بيت المقدس الى نهر الاردن في الوادي الذي ينزل على يسار جبل الزيتون) .

والعرب كانوا يرجمون في الجاهلية من سخطوا عليه حياً وميتاً : فكانوا يرجمون الزانى المحصن حياً لشناعة عمله ونابعتهم عليه الشريعة الغراء ، كما كانوا يرجمون قبور من ينقمون عليهم : فهم يرجمون من القرن الاول قبل الهجرة الى الآن قبر أبي رغال في المغس (بين مكة والطائف) لأنه كان يقود جيش ابرهة الى مكة فأت في هذا المكان قبل وصوله اليها : قال جرير يهجو الفرزدق .

منظر منى حجاز بالحجر البوسني عني سنة ١٣٢٥



حقوق الطبع والنشر محفوظة باسم ابراهيم الازهرى قوتباشا امير الحج المصري في الحج سنة ١٣٢٥

إذا مات الفرزدق فارجموه كما يرمون قبر أبي رغال
والمسلمون يرمون قبر أبي لهب خارج مكة لأنه عدو نبيهم صلى الله عليه وسلم ،
ويرمون قبر أبي جهينة في طريق العمرة لأنه كان من حكام مكة الظالمين ، ويرمون
قبر يزيد بن معاوية في دمشق (١) لسوء سيرته وشناعة فعلته مع آل البيت رضوان
الله عليهم ، ويرجمون قبر مسلم بن عقبة (٢) في ثنية المشلل بين مكة والمدينة لأنه
فكك بأهل المدينة ولم يراع حرمة رسول الله في صحابته وجيرته .

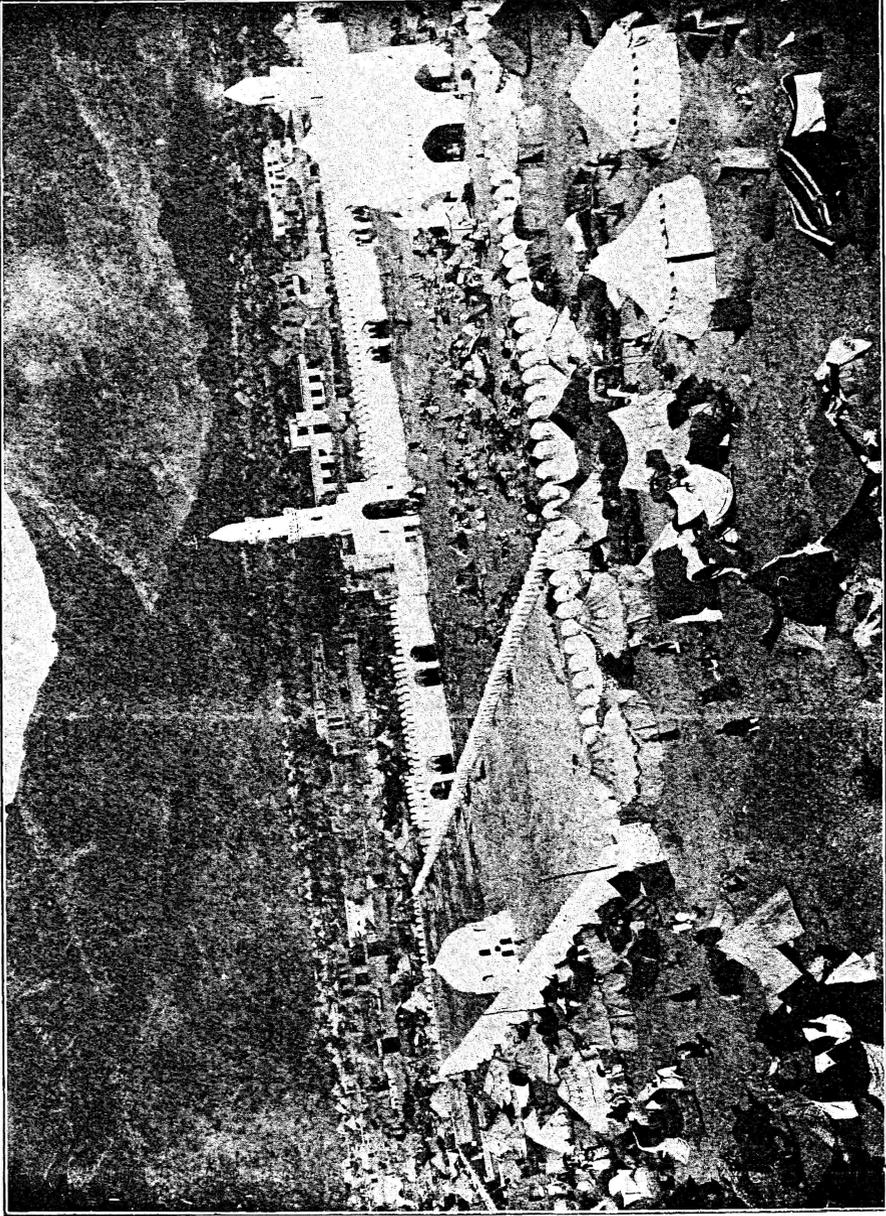
(١) قبر يزيد بن معاوية بدمشق الشام في حارة النحالية شرق مقبرة الباب الصغير
يفصل بينهما طريق . وهو مكان مسور يبلغ طوله نحو ثمانية أمتار في عرض أربعة وعليه
تل من حجارة الرجم يبلغ ارتفاعه نحو ستة أمتار ، وأهل دمشق يبغضونه . وبهذه
المناسبة أذكر لك أني زرت في هذه المقبرة قبر معاوية بن أبي سفيان وهو في قبة بسيطة
وقد دفن إلى جواره بعض التابعين ، وقبر عبد الملك بن مروان بجواره يحيط به سور
مهدم من الطوب الني* ولا سقف له !! وهناك مرّ بجيالي عظم ملكهم ونخامة
سلطانهم وكبير إمامهم وجيليل مظهرهم في حياتهم وهو ما لا ينطبق على ما نراه من حقارة
منازلهم الحالية التي لم تقم لها من مبدأ حكم العباسيين قامة !! سبحان من بيده الملك
يعز من يشاء ويذل من يشاء .

(٢) مسلم بن عقبة هو أعور بني مره سيره يزيد بن معاوية إلى مكة لقتال عبد الله
ابن الزبير وأمره أن يجعل طريقه على المدينة ، وكان أهلها قد نبذوا طاعته ، وقال له إن هم
أطاعوه تركهم إلى مكة وإلا حاربهم وأوقع بهم . فلما وصل إليها أقتلوا أبوابها في وجهه
وكانوا قد خندقوا عليها لما بلغهم تحركه اليهم . فدخلها عنوة في يوم الثلاثاء ٢٧ الحجة سنة
٦٣ وأخذ يقتل في صحابة رسول الله وتابعيه حتى قتل منهم نيفاً وأحد عشر الفاً ونهب
المدينة ثلاثة أيام : ويسمون ذلك اليوم المشؤوم ميوم الحره . ثم ارتحل عن المدينة قاصداً
مكة فمات في الطريق ودفن في ثنية المشلل . فأتت أم ولد ليزيد بن عبد الله ابن زمعه وكان
قد قتله مسلم فيمن قتل فنبشت قبره وصلبته على المشلل ورجمته ولا يزال قبره يرجم للآن .

الآثار في منى

يوجد في منى غير مسجد الخيف غار قريب منه في الجبل الجنوبي كان يتعبد فيه الرسول عليه الصلاة والسلام ، ونزلت فيه عليه سورة المرسلات (ويسمى بغار المرسلات) ويقصده الناس للزيارة والتبرك به . وفي الجبل الشمالى منها مغارة يقولون ان ابراهيم عليه السلام سكن فيها مع هاجر ، ويبلغ طولها ٤ متر وعرضها متران ونصف ، وعلى يمين الداخل فيها كهف نقر في جوف الجبل ، ومن خارجها صلى في مكان مذبح اسماعيل ، وبجوارها صخرة كبيرة في جوف الجبل فيها فلاح كبير يزعمون ان تلك السكين التي أراد ان يذبح بها ابراهيم ولده فلتت من يده رحمة بالذبيح ففاصت في هذا الصخر ففلحته وهذا الاعتقاد باق الى يومنا هذا ! ولو ادعوا ان هذا الفلاح انما هو ناشئ عن حادث طبعى ، واختاره ابراهيم مذبحا ليسيل فيه دم ولده حتى يسمع صوته في عالم السموات اعلانا بصدقه بامر الله وكامل طاعته له ، لكان أولى ، وبقرب هذه المغارة يقيم حجاج الهنود ولهم فيها اعتقاد هائل ، فتراهم هنا لك وقد فرشوا على الحصباء خارج خيامهم وداخلها مشطرات نيثة من لجم الاضحية و بعد جفافها يحتفظون عليها و يأخذونها معهم الى بلادهم هدية مباركة مقدسة لمن كان عزيزا عليهم . ولو علموا ان اجرهم من ذلك انما هو ما يصيبهم من الامراض التي تنشأ عما يحدث من ميكروباتها الضارة لكانوا القوا بها الى بطونهم من يومها خصوصا وسوادهم في حاجة اليها لكثرة الفقراء فيهم . وعلى كل حال فقراء حجاج الهنود في غاية من الوساخة ومن وسطهم تظهر الامراض والاوبئة وتفتك بهم فتكا ذريما ولا قدرة لهم على مقاومتها لان غالهم في سن الشيخوخة .





منہجہ نئی کے جو موضع القصباء سے شمالاً متصل ہے یہیں فریق شیعہ نے حجر الزبور
 حنفی الطبع و البشر محفوظ ہے ہم اس لئے آراہیم وقت شاہ امیر حکم الہی فی بحیرت ۱۲۶۰

خروج الجناب العالي الى عرفه

واقاضتها منها

في صباح يوم التروية خرج الجناب العالي من مكة الى عرفة وهو بملابس احرامه راكباً جواداً كريماً ، وسار في موكب رهيب ومن خلفه رجال معيته الكريمة من ملكيين وعسكريين يتقدمهم دولة البرنس كمال الدين والكل محرمون . وكان في رفقة سموه سعادة عبد الله بك نجل الشريف ومعه كثيرون من علية الاشراف وحضرة مكتوبجى الولاية وياوران دولة الشريف وفي مقدمة هذا الركب الميمون فصيلة من عساكر الحرس الخديوى السوارى بمزاريتهم تحفق عليها البنود ومن ورائها فرقة من جند البيشة على هجهم وهم يضربون نوبتهم ويوقعون عليها أناشيدهم ويحيط بالركب فرقة اخرى من الحرس . ولما تجاوز حفظه الله المعلي مرّاً على جنود الدولة وهي واقفة وقفه الاحتشام لتقديم واجب السلام والاعظام وطلقات المدافع تدوي في فضاء هذا الوادى احتفاء بمقدمه الشريف ، فقيام سموه تحية الشاكر وسار حتى اذا حاذى جبل النور وقف برهة مستقبلاً فيها هذا الأثر النبوي الكريم قرأ فيها الفاتحة ودعا الله تعالى بما شاء ، وما زال حتى وافى صيوان الشريف الخصوصي بمنى ، وقد كان خصص لجنابه العالي ، والى يمينه صيوان سموه الخصوصي يتلوه صيوان دولة البرنس ، ثم صواوين الشريف والوالي وحاشيتهم وكانت خيم المعية السنية وباقي الحاشية قد نصبت في الجانب الاخر من

الطريق على يسار السالك الى عرفة فنزل حفظه الله في صيوانه يحيط به الجلال
وتحفه الكرامة ، وقبل الزوال ركب وسار في حاشيته الكريمة الى مسجد
الخيف فصلى به الظهر ثم سار لزيارة دولة الوالدة بمنزل دولة الشريف الذي
جهز لاقامتها فيه بمنى ، وعاد سموه الى مقره بعد صلاة العصر ، وما زال
هناك والمحامل وجيوش الحجيج تمر بين يديه الكريمتين الى عرفة ، حتى
ركب حفظه الله بعد صلاة الصبح يوم الحجّة في موكبه الحافل قاصداً عرفة
وسار تحذوه العظمة والفخامة ، وفرقة الأعراب من أمامه تضرب نوبتها
ويوقعون عليها بنشيدهم الرخيم ، وأصوات الخلق فيما بين ذلك تملو بالتلبية
وراء التلبية وقد عرج في طريقه على مسجد نمره وبعد زيارته له سار الى عرفة
فوصلها في الساعة الرابعة العربية قبل الظهر ونزل الى الصيوان الذي أعده
لسموه دولة الشريف في الجهة الجنوبية من هذا الوادى والى جانبه صيوان
دولة الوالدة وخيم حاشيتها يتلوها خيم العمية السنية والى جانبهم غرباً صيوان
مولانا الشريف وخيم حاشيته وأمضى الجناب الخديوي يومه معتكفاً في
صيوانه وبعد صلاة العصر بنحو ساعة ركب جواده وسار والى يساره دولة
الشريف ومن خلفهما دولة البرنس وعطوفة وكيل الولاية وجم غفير من كبار
الإشراف ورجال الدولة حتى وقفوا حذاء جبل الرحمة وما زالوا واقفين هناك
حتى نفر الناس فنفروا معهم .

وكانت افاضة الجناب العالى حفظه الله من عرفات من الفخامة مما لم
يشاهد له مثل بالمرّة : فانه بمجرد ما تحرك الحملان سار حفظه الله والى جانبه
حضرة الشريف ثم من في معيتهما من الامراء والعظماء يحيط بالجميع سياج

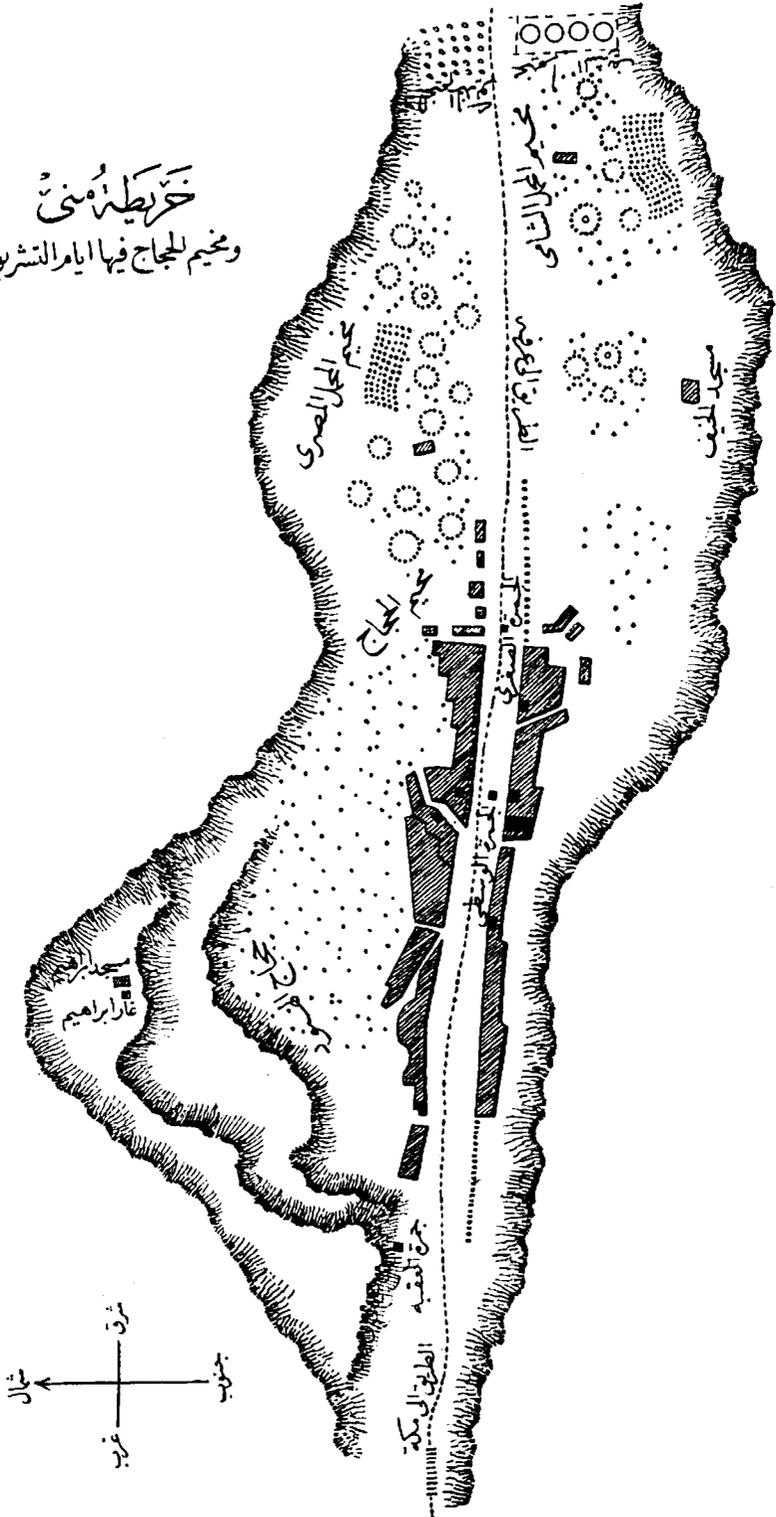
من الحرس الخديوى ، يتلوه آخر من حرس الشريف ثم انتظم الموكب فسار
وفي مقدمة الركب كوكبة من عسكر البيشة بهمجنهم ، وفي وسطهم فرقة منهم
تدق نوبتهم والباقي يتغنون بنغمات تدخل رئاتها في القلوب فتملؤها سروراً
وحبوراً ، ومن ورائهم شرذمة من عسكر الحرس ، يتلوها الجناب العالى
وحضرة الشريف ، يتلوها حاشيتها ، ومن ورائهما فرقة الموسيقى العربية
تعزف بنغماتها الشجية ، ثم رجال الاشراف من حضر وبدو ، وسار الجميع في هذا
الموكب الرهيب حتى وصلنا الى المزدلفة ونحن على غاية ما يكون من الراحة .
وكان موكب ذات الجلال والعظمة والدة الجناب الخديوى الاكرم
وصاحبات الدولة البرنيسيات يسير بعد ركب الجناب العالى ، وكان مما يأخذ
بالالباب بهاء وسناء ، وكانت جنود الحرس المشاة والخيالة تحيط بعرباتهم
يتقدم الجميع فرقة من عسكر الدولة وجند البيشة بمسيقاها يتبعها هواج
الحاشية ، وآلاف المشاعل في جوانب الركب تملأ الجو نوراً ، وغناء الضاوية
والخدم وزغرودة نساء الحجيج تزيد الاقئدة سروراً . وقد قطعنا المسافة من
عرفة الى المزدلفة في ساعتين ، كان الجناب العالى في اتناهما محل انظار الناس
على اختلاف اجناسهم ، والمصريون منهم يرفعون له كلما مر عليهم أصوات
الدعاء وعبارات الولاء . وكانت قد اعدت هناك الخيام ونصبت الصواوين
انزوله حفظه الله اليها مع دولة الوالدة وحاشيتها فقضوا فيها ليلة النحر في
صفاء وهناء . وبعد صلاة الصبح نزل في موكبه الى منى ، فرمى جمرة العقبة ،
وذبحت الضحايا الكثيرة بحضوره حفظه الله ، وتحمل (ابن ملابسه) ، ثم نزل
الى مكة بموكب حافل ومعه دولة أمير مكة ، فصليا العيد في الحرم الشريف

بالمقام المالكي ، ثم طافا طواف الافاضة . وتناول سموه طعام الغداء في دار الامارة ، وعاد بعد صلاة العصر الى منى في موكبه الفخيم .

أيام الجناب الخديوى بمنى والاحتفال بتلاوة فرمان الشريف بها

ما بزغت شمس يوم الجمعة ١١ ذي الحجة الموافق ٢٤ ديسمبر حتى التفت الجنود التركية والمصرية حول المصطبة الكبرى التي كانت عليها سرادقات سمو خديونا المعظم ودولة الشريف وسعادة وكيل الولاية ، يتقدم كل فرقة موسيقاها استعداداً للتشريفات بمحفلة تلاوة فرمان دولة الشريف . وفي الساعة الثانية العربية نهراً اصطفت رجال المعية السنية في الجهة اليمنى من الصيوان الكبير المعد للجناب العالى الخديوى . وكان دولة الشريف أرسل بعض حاشيته لمقابلة الوفد الحامل الممرمان والخلعة السنية ، ثم سار الى صيوان الجناب العالى وجلسا يتجاذبان أطراف الحديث ، حتى اذا وصل الوفد الى سلم المصطبة خف الجناب العالى ومعه مولانا الشريف نحو السلم ، واستقبلا الممرمان بتقبيله ثم قصد الكل الصيوان الخديوى وجنابه العالى في مقدمتهم . ولا يخف لك ما فى هذا الترتيب من المعنى الدقيق اللطيف الذى يشير الى علو مكانة جنابه الرفيع ، وان مقامه هنا هو المقام الاول ، وهنزه هو المنزل الأجل . جلس حفظه الله فى صدر المكان وعن يساره دولة الشريف ، ثم نائب الوالى

خَرَيْطَةُ مَنَى
 ونعيم للمجاج فيها أيام التشرية



ثم أنجال الشريف ثم عليه الأشراف، ومن خلفهم مشايخ القبائل العربية وصاحباً
الفضيلة قاضي ومفتي مكة وكثير من علمائها وأعيانها، ثم رجال العسكرية العثمانية
وفي مقدمتهم سعادة ناظم باشا قومندان قوة الحجاز . وجلس على يمين الجناح
العالي دولة البرنس كمال الدين باشا ثم اصحاب السعادة شفيق باشا وعزت باشا
وخيري باشا ثم موظفي المعية السنوية يليهم مستخدمو قوة المحمل الشريف
المصرى . وهناك توسط ساحة الصيوان عزتو مكتوب بحى الولاية وأخذ
في تلاوة فرمان الذي كان يمسك بطرفيه رجلان من التشريفية فتلاه
بالتركية ، وعندما أتى على لفظة الخلعة السنوية التي قدمها جلالة السلطان محمد
الخامس الى دولة الشريف فكها أحد المهندارين من غلافها الاطلسي وأبسه
اياها . وبعد تلاوة فرمان قام كاتب يد الشريف وتلا ترجمته المرسله
معه بالعربية : وخواها ان مولانا السلطان حفظه الله لما يعلمه في دولة الشريف ،
من اصالة الراى وعلو الكعب في حسن الادارة ، وكمال الدراية ، ومحاسن
الاخلاق ، وواسع المعرفة وكريم السجايا ، ومحامد الخصال ، ومعالي الفضائل ،
وجه لبدولته مركز الشرافة العظمي ، وهو يرجوه على الدوام مساعدة حجاج
بيت الله الحرام والقيام بكل ما فيه راحتهم وصحتهم مع تأمين الطرق وتسهيل
المواصلات والضرب على أيدي الخارجين من الاعراب عن الصراط السوى
المستقيم ، وثقت نظره الى الدقة في صرف المرتبات وتوزيع الصدقات على
أربابها بكل ضبط ، مع مساعدته لمأمورى الدولة من عسكريين وملكيين على
اداء وظائفهم . وكان كلما ذكر اسم كل واحد منهم ألبسوه كركا ، حتى اذا
تمت الخفلة أمر الجناح العالي فاديرت اكواب الشربات على الجميع ، وبعد

شرب القهوة انصرف الشريف مودعا من الجناح السامى بكل تجلّة واحترام.
ومما يجمل بنا ذكره تلك الألقاب التي وردت في هذا الفرمان موجهة
من قبل صاحب الخلافة العظمى الى دولة الشريف حتى تعرف مكانته السامية :
« جناب الامين الامجد ، الأجل الاوحد ، المقتفي آثار أسلافه الأشراف
من آباءه الغر صناديد آل عبد مناف ، وأجداده الحميدى السير الجميل
الاوصاف ، فرع الشجرة الزكية النبوية ، طراز العصبة العلوية المصطفوية ،
المتنمى الى أشرف جرثومة علا عنصرها ، والمنتسب الى أنفوس أرومة غلا
جوهرها ، زبدة سلالة الزهراء البتول ، عمدة آل بيت الرسول ، المحفوف
بصنوف عواطف الملك الأعلى من أعاظم وزراء سلطنتنا السنية ، الحامل
النیشان المرصع الاقتنار العثماني والمجيدى ، وزيرى سمير الفطانة أمير
مكة المكرمة الخ »

وعلى هذا يجدر بنا ان نسوق اليك شيئا من الألقاب التي كان يكتب
بها الى أمير مكة في عهد الدولة الجركسية : فقد ورد في صبح الأعشى في
رسم المكاتبه الي أميرها هذه العبارة « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي ،
الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، العضدى ، النصيرى ،
الذخري ، العونى ، المقدمى ، الأوحدي ، الظهيرى ، الزعيمى ، الكافلى ،
الشريفى ، الحسينى ، النسبى ، الأصيلى ، الفلانى (الحسينى مثلا) ، عز
الاسلام والمسلمين ، سعد الامراء فى العالمين ، جلال العترة الطاهرة ، كوكب
الاسرة الزاهرة ، فرع الشجرة الزكية ، طراز العصبة العلوية ، ظهير الملوك
والسلطين ، نسيب أمير المؤمنين ، لا زال حرمة أمينا ، ومكانه مكينا ،

وشرفه ببيض له بمجاورة الحجر الأسود عند الله وجهاً ويضئ جيناً ، صدرت هذه المكتبة من المجلس العالي تحمل اليه سلاماً تميل اليه الركائب الخ .
ومنه ترى ما كان وما يكون لمركز الشرافة العظمى من جليل المقام وعظيم الاحترام لدى الملوك والسلاطين . وليس هذا بغريب في بابة فحسب هذه الاسرة فخراً ان عائلتها اشرف مملكة اقدم اسس لآش يفتم في العالم

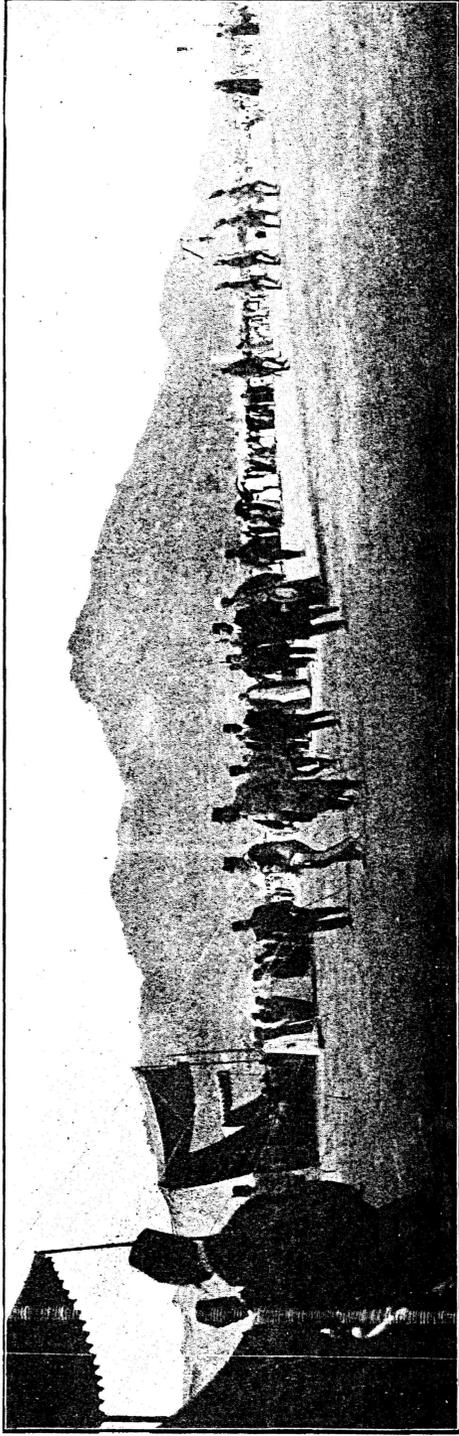
(١) لان هذه الاسرة الشريفة تصعد حلقات سلسلتها من غير شك الى نينا محمد صلي الله عليه وسلم . وكل فرع من فروع هذه الشجرة الكريمة النبوية ، يترك الوالد منه الى ولده من مبدأ الاسلام الى يومنا هذا ، نسبه الى هذه العترة المباركة ، اربنا مينا لابضاهيه عنده في منزلته شئ بالمره . ويوجد كثير من هذه الفروع في بلاد الاسلام وعلى الخصوص بمصر التي كانت محط رحال آل البيت رضي الله عنهم ، ولكل فرع سلسلة نسب توصاهم الى أحد سبطي النبي صلي الله عليه وسلم ، فيقولون : السادة الحسينيون ، أو الحسينيون مثلاً . وهذه النسب مسجلة في دفاتر مخصوصة عند نقيب الاشراف ، ولاربابها مراتب تصرف اليهم سنويا في مواعيد يعلن عنها في الجرائد اليومية . ومن هذا تعلم من غير شك أن نسب هذه العائلة بوصوله الى النبي صلي الله عليه وسلم يصعد الى اربعة عشر قرناً تقريباً .

وحيث ان النسابين والمؤرخين قد حققوا بالاجماع ان نسبه عليه الصلاة والسلام يصعد الى عدنان فلا يمكن ان يكون هناك أي شك في تحقيقهم ، لان الانتساب كان من الخصائص التي امتازت بها العرب على سائر الامم ، وهو من خصائصهم الى الآن ، وكما كان انتسابهم الي جد اعلى (اعني كما كانت حلقات سلسلة نسبهم اكثر) كان مجدهم اعظم ، واصلمهم اكرم . وقد اجمع المسلمون من مبدأ الاسلام الى يومنا هذا على صحة هذا النسب العالي وهم يحفظونه عن ظهر قلب من نعومة اظفارهم ، وهاك هو : محمد بن عبدالله بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن حكيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وحيث انه من الثابت في التاريخ أنه كانت لعدنان واقعة مع مختصر في مبدأ القرن السابع قبل المسيح ، فتكون المسافة بين حلقة السلسلة الحالية والحلقة العدنانية نحو ٢٦

وبعد تلاوة فرمان خرج سمو أفندينا الخديو حفظه الله مع دولة الشريف الى رصيف المصطبة ، وفي أثرهما جميع رجال المية السنية ورجال الشريف والدولة وموظفو المحمل الشامي ، حيث استعرضت جنود القوة الحجازية يتبعها حرس المحمل الشامي ، ثم الحرس الخديوي يتبعه حرس المحمل المصري . أما الترتيب والنظام في القوتين الاخيرتين فقد كانا مما دهش له جميع المنفرجين من ملكيين وعسكريين وخصوصاً رجال الدولة ، حتى أن رئيس قوة الحجاز رأى أنه لا يحسن سكوته عن الاعتراف بذلك ، وأبدي أندهاشه من النظام العسكري المصري . وكان دولة الشريف وسعادة وكيل الولاية يبديان اعجابهما مما شاهداه ، وشكرا للجناب العالي الخديوي غنيته

قرنا . واذا جازينا النسابين الذين اوصلوا نسب عدنان باسماعيل بن ابراهيم ، وقالوا ان عدنان بن اد بن ادد بن الهميع بن سلامان بن بنت بن حمل بن قidar (نابت) بن اسماعيل كانت المسافة بين الحلقة الحالية من هذا النسب الكريم والحلقة الاسماعيلية أكثر من سبعة وثلاثين قرنا .

على اننا لو وقفنا بنسب هذه الاسرة الشريفة الى الحلقة النبوية فانها تكون اعرق الاسر (العائلات) الموجودة علي ظهر البسيطة حسبا ، واقدمهم نسباً : لان الاسر التي يحتمها التاريخ في أوروبا وبجملها الفرنجية عامة وبمظمون شأنها مجرد اصالتها في حسبها ، وعراقتها في نسبها ، لم تظهر الا بعد أسره الاشراف بمكة بقرون عديدة ، اذ لا يخفى ان اسرة البربون (Bourbon) التي هي اقدم أسرة أوربية ، والتي تشعب حكمها في فرنسا واطاليا واسبانيا ، لم يتبدى تاريخها الا في سنة ٩١٣ بعد الميلاد ويتلوها أسرة هابسبورج (Habsbourg) التي لها الحكم الآن في النمسا ويتبدى تاريخها من سنة ٩٥٤ ميلادية ثم أسرة السفواي (Savoie) التي منها ملوك ايطاليا الجاليون وتبدى من سنة ١٠٢٧ ثم أسرة ملوك آل عثمان وتبدى من سنة ١٢٨٧ . ثم أسرة قياصرة الروسيا وهي أسرة رومانوف (Romanov) وتبدى من سنة ١٥٤٧ ميلادية .



اجتہاد العالمی انجمن دینی و ہنر و صنعتی کارکنان کی تنظیم

الكبرى برقى حكومته السنوية . ومما يذكر بالمنة للجناب العالي انشاء ذلك انه لاحت منه التفاتة فرأى عسكر علي بن دينار (سلطان دارفور) ، مع رئيسهم الذى أتى بحملهم ، وراء صفوف العساكر من بعد ، فارسل فاستحضر رئيسهم ، وبعد أن لطفه وحياه بما يليق بكرمه ، أمره حفظه الله بأن يسير بجنده في هذا الاستعراض ، فسار يتقدم رجاله الذين كانوا يحركون حراهم على نغمة الموسيقى كأنهم يحركون الى حرب أو طعان .

وفي نهاية الاستعراض قصد الجناب العالي صيوانه ، وبعد ما استراح قليلا ابتدأت التشريفات العيدية لجنابه الرفيع : فتقدم العسكريون يتلوهم الملوكيون من رجال المعية السنوية ، وغيرهم ممن حضر لاداء هذا الواجب من وجهاء المصريين ، ثم موظفوا المحمل الشريف ، وتشرف الكل بلثم راحته الكريمة ، داعين بطول العمر وكمال السعود والرفاهية ، ومهنتين بفريضة الحج الشريف . ثم تلا ذلك العدد الجلم من الأشراف وعظماء مكة وغيرهم من كبار الحجيج ، وكانوا يفتدون على سموه بواسطة دولة الشريف ، فيقدمهم الى جنابه العالي تارة أحد انجاله الكرام واخرى أحد رجال تشريفاته أو ياورانه ، وكان حفظه الله يقابل الجميع بصدر رحب ، وثرع باسم ، ووجه باش ، مما جعل الكل يخرج من حضرته داعياً شاكراً . وفي أثناء هذا كانت تعزف في أطراف المصطبة موسيقات الحرس الخديوى ، والمحمل المصرى ، والشامى ، وموسيقى القوة العسكرية الموجودة بمكة ، والى جانبها الزمار البلدى ، تتخلل نغماتها طلقات المدافع وهتاف الحجيج باصوات السرور والجور من كل جانب بما لا يمكن وصفه .

وبعد تمام التشریفات قصد الجناب العالی صیوان الشریف لرد الزيارة وتقديم واجب التهانى ، فاستقبله دولته من خارج الخيمة بكل ما يمكن من واجبات التبجيل والتعظيم ، وأجاسه فى صدر المكان وجلس عن يسار سموه . وهنالك دخل رؤساء الديوان الخديوى يتبعهم جميع الموظفين المصريين عسكريين وملاكين تهنئة دولته ، وكان الجناب العالی حفظه الله يقدمهم لسيادته واحداً واحداً كلاً باسمه ، ويعد شرب الشربات انصرفوا الى أماكنهم وتوجه الجناب العالی محاطاً برؤساء معيته الكريمة الى خيمة وكيل الوالى ، فاستقبله بناية الاجلال والاحترام ، وبعد أخذ المرطبات وشرب القهوة توجه حفظه الله الى صيوانه ومكث فيه يستقبل وفود المهتئين الذين كانوا يتقدمون اليه بواسطة دولة الشریف أو بعض حاشيته .

وبعد الظهر زار دولة الشریف ومعه عطوفة وكيل الوالى مسكر المحمل المصرى ، فقبولا بما يليق بمقامهما من الاحترام بين اطلاق المدافع وعزف الموسيقى بالسلام الشاهانى . وبعد صلاة العصر ركب الجناب العالی ومعه دولة الشریف فى موكبهما الفخيم لرى الجمرات ثم عادا الى مقرهما . وفى المساء كان الجناب العالی الخديوى قد أعد وليمة فاخرة لسيادة الشریف ومعه ثلاثون مدعواً من عظماء قومه ، وبعد صلاة العشاء حضر المدعوون يتقدمهم سيادة الشریف فاستقبلهم الجناب العالی بما جبل عليه من الايناس ، وكان رجال التشریفات الخديوية يقومون بالخدمة اللازمة . وبعد ما أكلوا مالذ وطاب هنياً مريراً رفعت الموائد وجلس القوم للسمر ساعة من الزمان ، خرجوا بعدها من الحضرة الخديوية شاكرين لكرمه ذاكرين لفضله داعين مبتهلين الى الله



تسم الخجائب العالی الخدیوی و منکان معتدلت میر ملکین و پیرن عم میرکاج مصر و صبا ابینی

بان يكثر من أمثاله في امراء المسلمين وملوكهم . وكانت في أثناء هذه الحفلة موسيقى الحرس الخديوى تشف أسمع الحاضرين وسهام الألعاب النارية تشق كبد السماء فتزيدها بدراريها زينة على زينتها ، وسواقها النارية تنثر في فضاء الارض تبرها المتلهب فيزيدها نوراً على نورها . وكان آلاف المتفرجين من عرب وعجم ومغاربة ومصريين وسودانيين وأتراك وجاوه وهنود وغيرهم فرحين مبتهجين مهللين مندهشين لهذه المظاهر البديعة التي لم يسبق لها نظير في منى بل وفي جميع هذه الديار . وكان أكثرهم دهشة من سبق له الحج قبل هذه السنة : وحقيقة فان هؤلاء هم الذين يحسون بالفارق بين الحج في السنين الماضية ومظاهرة في هذه السنة المباركة . وما زال الناس في سرور وجبور الى نصف الليل وانصرفوا وكلهم داع بغزة الاسلام ونصرة امرائه . وقد أمضى الجناح العالي يوم ١٣ الحجة في تراور مع دولة الشريف ووكيل الولاية واستقبال بدض الزائرين ، وبعد صلاة العصر نزل الى مكة في موكبه الفخيم .

وبالجملة فقد كان سموه بمنى محطاً للرحال ، ومكانا لتحقيق الآمال ، ومنهلاً للخيرات ، ومصدراً للحسنات ، وكان صيوانه على الدوام غاصباً بالزائرين من عطاء الحجيج على اختلاف أجناسهم .



مواكب الشريف

يركب دولة الشريف في مواكبه الرسمية على النظام الآتي :

تتقدم فرقة من الخيالة والقراية ثم جماعة من المهجانة من عرب البيشة ثم بعض السياس يتلوهم الجنائب : وهي جملة افراس عربية يتلو بعضها بعضاً ، يقود كلا منها سائسان واحد الى اليمين والآخر الى اليسار ، ومن وراء الافراس بعض البغال ، وعلى الكل الرخوت الذهبية ، ويعقب ذلك عربية يقودها زوج من الهياض ، ومن خلف العربية بمسافة خمسين متراً دولة الشريف علي فرس مرخوت يحيط به الخدم والحشم وغيرهم من الخنزجية (الخزندارية) ، ومن على يساره مائلا الى الورا قليلا حامل الشمسية على حصانه : وهي شمسية كبيرة من الحرير العالي المزركش بالقصب ، والكتنير المذهب ، وقطع التبر المثقب (التثر) مع النصوص الجميلة ، ولها وضع خاص بها ، تكاد تكون نصف كرة منتظمة قطرها نحو متر ونصف وقامها من المعدن الابيض ويطول حتى يرتكز في ركاب حامله أثناء السير ويثبت في الارض امام صيوان الشريف اشارة على وجوده في تخيمه وهذا يعني عن رفع العلم عليه . (واستعمال هذه الشمسية للملوك والامراء في بلاد الشرق من زمن بييد ، وكانت تسمى عند الخلفاء الفاطميين بالمظله ، وحاملها كان من كبار النوم وله مكانة مخصوصة ، ويسمى بحامل المظله .)

ويسير من وراء الشريف الجهم الغفير من السادة الاشراف يتلوهم اعيان مكة على خيلهم أو حميرهم والكل بالابسهم الرسمية ونياشينهم ، يتخلل ركابهم الخدم والحشم والعبيد ، ومن خلفهم ضاربو النوبة وهم موسيقيون عربون راكبون على خيلهم يضربون بالزمار البلدي والقرزان ، يحيط بهم عرب البيشة على هجنهم وهم يتفنون من وقت الى آخر باغنية حماسية على نغمة الموسيقى ، ولا يزال الموكب حتى يصل الى المكان الذي يقصده دولة الشريف . ونظام هذه المواكب عادة قديمة في ملوك الشرق ، وقد كانت تركب فيها على المثال المتقدم الخلفاء من العباسيين والفواطم وملوك الجراكسة

وغيرهم مما تراه مبسوطا في المقريزى وغيره . وقد رأيت في تاريخ السودان لشقير بك في الكلام على دارفور ، ان أميرها على بن دينار يركب في احتفالاته الرسمية بما يقرب من هذه المواكب واليك نص عبارته تحت عنوان ركوب السلطان « وقبل الظهر بساعتين يركب السلطان جوادا مزركش العدة ، وامامه العساكر الحاملو الاسلحة النارية مشاة ، ومن ورائه الخييان راكبين الخيول وبينه وبين الخييان بعض الجياد بسروج الرهط كاملة العدة يقودها السياس خلفهم صفا واحدا ، وعن جانبي السلطان نفر من المشاة يتناوبون حمل مظلة واسعة تظله وتظل جواده ، وهي مصنوعة من نسيج متين مطرز بالتصب ومبطن باطلس مختلف الالوان كل شقة بلون تتدلى من اطرافها شراريب قصب ولها يد طويلة من خشب متين مغطاة بنسيج ملون كل شبر بلون هـ » .

سفر الحجيج من مكة

بعد النزول من عرفة يستريح الحاج في مكة قدر عشرة أيام يجهز نفسه فيها للسفر الى المدينة المنورة ، وأولى بلده ان كان سبق بالزيارة قبل الحج أو شغله عنها شاغل ، فينزل مع القافلة الى جدة ومنها الى حيث يريد . وعلى كل حال فمن عشرين الحجة تكون مكة في حركة هائلة بالجمالة وجمالهم التي تكتنظ بها شوارعها فتراها على الدوام في تلك الآونة مجهزة للحمل غادية رايحة ليلا ونهارا في طرق مكة بشقادفها (١) ومحقاتها وسحلياتها ، لان هذا هو الموسم الوحيد الذي يستمد منه هؤلاء الاعراب حياتهم بواسطة هذه الجمال التي هي رأس مالهم الوحيد بل هي حياتهم بجميع معانيها : فهم من البانها

(١) الشقدف عبارة عن سريرين من الخشب وقاعدتهما من الجبال على مثال العنجريب وعلى حافة كل سرير من الجنب الخارجي والخلف شبكة من عيدان الأشجار بحيث إذا ضم السريران الى بعضهما على ظهر الجمل بمجال متينة يكونان قبة يغطونها في الغالب بشيء من الاكلمة المغربية أو التركية فتقي الراكب من الشمس والمطر ، ولو كانوا يغطونها في الشتاء

ولحومها يأكلون ، ومن أوبارها وجلودها يلبسون ، وبروثها وبرها يدفنون ، وهي مركبهم ومحملهم في هذه المسافات الواسعة الشاسعة التي لا يمكن غيرها من جنس الحيوان (١) أن يقوم بالمأمورية التي تقوم هي بها في وسطهم . ولذلك يجدر بنا ان نذكر لك كلمة عن فلسوجيتها :

الجمل

الجل (٢) سفينة الاسفار في القفار وله قدرة على احتمال مشقات الحياة الصحراوية ، خلقه الله مقوس الظهر لاحتمال الاثقال ، وجعل خنقه واسعا مدورا طريا حتى لا ينزلق على الاحجار ولا يسوخ في الرمال ، يحتمل العطش أيهما (وزعم بعضهم أنه يحتمله شهرين)

بشيء من المشمع كانت الفائدة أكبر وأعظم . والشقدف يسع نفرين ويمكنهما أن يناما فيه كما يمكن أن يجلس فيه الراكب على راحته بواسطة مخدات صغيرة خفيفة يضعها على ما يحب . والمخفة هي كرسيان من الخشب إذا ضما الى ظهر الجمل جلس فيهما راكبان على مثال جلوسهما على الكرسي ووجهما الى رأس الجمل ، وأغلب ما ترى المخفات في الركب الشامي أما السحلية فهي سرير من اسرة الشقدف يشد على ظهر الجمل مستعرضاً ويجلس فيه نفران وهو في الغالب من غير مظلة ويركبه الفقراء من الناس وخصوصاً من الهنود الذين يحتملون حرارة الشمس .

(١) يوجد غير الجمل في مدن الحجاز وخصوصاً في مكة والمدينة كثير من الحمير الحساوية (الحصاوية) المتينة ويؤتى بها اليها من بلاد الحسا في شرق بلاد العرب وهي مع ما هي عليه من السرعة في السير تحتمل المشي في هذه الصحراء ثلاثة أو أربعة أيام متتابعة ويمكنها أن تمشي في اليوم نحو مائة كيلو متر من غير أن ترى عليها أثر كبيراً من التعب . وغالب هذه الحمير لا يخلو جلدها من البرص . ويوجد هناك أيضاً بغال متينة يؤتى بها اليها من بلاد الشام على الخصوص والحيل في هذه المدن قليلة وهي تحتمل أيضاً مشقة السفر هناك أياما متوالية وجنسها ليس بالجلد لان الجنس الطيب محصور في جهة نجد ولا يفرطون فيه إلا باتان غالية .

(٢) وجمال الحجاز صغيرة ضئيلة في الغالب والتي لقبائل حرب منها هي المتعوده على الحمل . أما التي لغيرها من القبائل وخصوصاً البعيدة عن مكة والمدينة فأنها غير معتادة على الاحمال ويغانى ركاها مشقة جسيمة وخصوصاً ركاب الشقادف .

وذلك لان القدرة الالهة جعلت له اربع معدت لهضم الغذاء ، يعقها تجويف كبير يخزن به الماء ، فاذا نفذ ما فيه رجعت اليه عصارة مائة من الاوعية الكثيرة التي حوله مما يأتى اليها من رشح البدن (وتقدر بعشرين لترا) . ويساعده على احتمال العطش انه كغيره من المجترات له خاصة اخراج الغذاء من معدته الي فيه ، بواسطة ضغط عضلات المعدة على بعضها ، فتقلص وتطرد الغذاء الى فمه فيلوكه . ومن هذه العملية تنبته غدد الفم واللسان والزور فتفرز من اللعاب ما يلطف من غلته ويخفف من عطشه . والجلل يحمل الجوع أيضا أيا ما متعددة بتغذيته من الدهن الذى فى سنامه ، ولهذا المزية الكبرى استخدم فى الحروب من زمن بعيد جدا ، ولفرق الهجانة المصرية فى فتوحات السودان شأن يذكر فيشكر . وغذاء الجلل فى بلاد الحجاز أما من الحشيش أو نوى البلح أو اللبن ، وقد رأيت بعضهم يلتمه الثريد المصنوع بمرق اللحم . والعرب يقولون ان أنثى الجلل تفرق من جميع جسمها أما الذكر فانه لا يفرق الا من دوماته وهى ماين أذنيه ، والبدو يشبعون فتيلة قديمجتهم بمرق جاملهم فتصير سريعة الاشتعال بمجرد ضرب الزناد عليها .

الطريق الى المدينة

تقوم قوافل الحجاج من مكة الى المدينة المنورة فيسيرون فى واحد من اربع طرق بحسب تبعية المقوم والجمالة اليها . وهذه الطرق هي : — السلطاني — والفرعي — والغاير — والشرقي .

والطريق السلطاني هو أحسنها سيرا وأكثرها ماء ، فاذا قامت القافلة منه خرجت من باب العمرة وسارت الي الشمال الغربى وتمر على المحطات الآتية :
وادي فاطمة — وفيه نهر ماء عذب يأتى من جبال الطائف وفيه مزارع كثيرة ويسكن فيه عرب الاشراف من (ذوى حسين) ويسكن فى المنطقة التى بينه

وبين مكة الى بحرة بنو لحيان .

عسفان — مأوّه قليل وفي طريقه عقبة لا تسع الا جملا جملا ، والعرب التي تسكن في هذه الجهة بشور (بشر) وحرمان .

خليص — بها بئر التغلة ومأوّها غزير ويسكنها قبائل زيد .

القديمه — (القضيمة) قرية على البحر ومسكنها اكواخ صغيرة ومأوّها من الحفر التي يخزنون فيها ماء الامطار ، واهلها من زيد ويشغلون في الغالب بصيد البحر ومنها يتجه الطريق نحو الشمال .

رابغ — وهي قرية على البحر الاحمر وفيها قلعة بها بعض الجند العناني ومأوّها من الحفر والآبار واهلها من زيد . ويأتي الى مياهها بعض السفن الصغيرة لمشتري ما يصيده أهلها من الاصداف وغيرها وينزلون اليها خفية كثيرا من الدخان وغيره من الاشياء المنوعة .

مستوره — مأوّها غض (ومنها طريق الى بدر الى الصفراء يسمونه الملف) ، ويسكن هذا الطريق قبائل صبح في بدر ، والاحامدة في الصفراء .

بئر الشيخ — وتسكنه قبائل صبح . والمياه علي طول هذا الساحل لا ترغي الصابون .
ديار بنى حصاني — مأوّها غض ويسكنها صبح ، والحوازم .

الحمراء — وهي قرية بها نهر عذب وفيها بساتين ونخيل ويكثر فيها البرتقال والليمون والموز ويزرع بها كثير من الحضر كالقثاء والبطيخ وغير ذلك ، ويسكنها الحوازم ومنها ينثني الطريق الى الشمال الشرقي .

الجديده — وهي قرية مأوّها عذب وبها قبر ولي الله سيدي عبد الرحيم (١) البرعي المصري ، ويسكنها قبائل الحوازم والاحامدة . ومنها يميل الطريق قليلا نحو الشرق بئر عباس — ويسكنه جانب من الحوازم وصبغ والاحامدة ومأوّها قليل ، ومنها يميل الطريق الى الشرق قليلا .

(١) وهو المقصود بقول بعض الشحاذين في أغنيتهم « يا سعد قل للبي عبد الرحيم منحاش » ولعل المرض دعه في طريق المدينة فمات ودفن بهذا المكان وله ديوان شعر مطبوع

بئر درويش — ويسكن هذه الجهة قبائل الاحامدة والزحله (بكسر الزاء وفتح الحاء).
آبار على — ويسكنها قبائل عوف وعمرو وماؤها عذب وهي على مسافة نحو خمسة
كيلو مترات من المدينة المنورة ، ويترك فيها القوافل شقادهم وسحاليهم
حتى لا يدفعوا عليها قوشانات في دخولها المدينة ومن يريد ان يدخلها
بمحملة دفع عليه الرسوم المعتادة من جيبه . وربما طلب منه الجمال اكثر
من اللازم فليتدبر .

— الطريق الفرعى —

والطريق الفرعى يتدى من رابع متعجا الى الشمال الشرقى ويمر على المحطات الآتية:
وادي حرشان —
نقر الغار — وهو محجر ضيق منحدر تمر منه الجمال جملا جملا ويسكنه بنو سالم .
بئر رضوان — وماؤه عذب .
ابى ضباع — وماؤه عذب ويسكن فيه بنو عوف .
الرياض — (وادى سرحان) وماؤه عذب وشجره كثير ويسكنه بنو عمرو .
الغدير وفيه مجرى ماء
وادي المعظم — ماؤه عذب
بئر الماشى — ماؤه حلو ويسكنه عوف
آبار على —
المدينة .

— طريق الغاير —

وطريق الغائر يتدى من رابع أو من مستوره ويقطع جبل الغاير الى الشمال
وهو اقل هذه الطرق مسافة . فاذا وصل المسافر الى الغاير صعد من عقبة عالية
تشرف على هاوية عميقة طريقها ضيق جدا بحيث لا يسع الا دابة دابة وهذا

الطريق خطر في صعوده وهبوطه وخصوصاً على الركب ، ومع ذلك تسير فيه الدواب بسهولة لأنها متعوده عليه ، ومسافة الصعود الي ظهر هذه العقبة لا تقل عن ست ساعات . ويسكن الغابر ومنحدراته (١) قبائل الابهية ومسروح وهما اشر العرب على الحجاج . وهذا الطريق يسمونه الطريق المدنى ، لان أهل المدينة يستسهلونه في حجهم لقربه ، فيركبون هجنهم أو حميرهم أو خيلهم ويسرون فيه قوافل ، قوافل . ولهم منازل ينزلون فيها حيث يكون الماء ويقيمون بها ريثما يأكلون ويستريحون ويصلون ثم يستأنفون السير الى مكة . وكثير من الحجاج الاقوياء الخفاف الاثقال وخصوصاً من المصريين يصحبونهم من المدينة الى مكة ، او من مكة الى المدينة عقب ايام التشريق مباشرة وينتظرون بالمدينة حتى اذ جاءت القوافل اليها انصرفوا معها الى ينبع .

وكل حارة من المدينة تكوّن قافلة تسير تحت زعامة شيخ هذه الحارة ويسمون ذلك ركبا فيقولون « ركب فلان حضر الى مكة أو قام منها في يوم كذا » وكذلك الحال في زيارة أهل مكة للمدينة المنورة قبيل شهر رجب .

— الطريق الشرقي —

والطريق الشرقي يخرج من مكة من باب المعلى ويتجه الى البياضية ثم يسير في طريق شمالي طريق منى ويتجه الى الشرق ويمر على المحطات الآتية :
بئر البارود — ماؤها عذب .

وادي الليمون — ويكثر فيه شجر الليمون والنارج والليمون الحلو ويزرع فيه البطيخ والخضراوات وفيه ماء جار ينزل اليه من جبال الهدى يسير في مجرى مبني الى بساتينه وغياضه ، ومنها يتجه الطريق نحو الشمال .

الحفائر — (الضريبة) مياهها عذبة وقرية من سطح الارض .

بركة سمرة — لا ماء فيها مدة الصيف .

بركة المسلح — (حارة) ماؤها غزير وعذب وبساتينها كثيرة .

(١) جل القبائل الموجودة في هذه الطرق الثلاثة (بطون من حرب)

- الحبيط — (الضيعة) .
سفينة — (صفينة) وبها نخل وآبار عذبة .
السورجية — .
الحجرية — والماء يبعد عنها بنحو ربع ساعة .
غرابية — .
الغدير -- (الحنك) ماؤه عذب .
سيدنا حمزة — .
المدينة المنورة —
وعربان هذا الطريق من الزبود (١) واللبية (٢) وعتيبه (٣) ومطير (٤) والرحلة (٥) وهم ابعد الاعراب عن الحضارة .

نظام القوافل

قلنا ان الحجاج لا يخرجون من مكة الى المدينة الا في ركب القافلة التي تكون جمالتها من أهل الطريق الذي يسبرون فيه ، وغالبا ما تكون جمال الحاج تابعة لجمال واحد وهو الاحسن ، أما لو كانت تابعة لجمالين فتكون مشغولته اكبر وتعبه بينها اعظم .

(١) والزبود شعبة ينسبون الى سيدنا زيد ومن عوائدهم أنهم لا يختنون بل يسلخون جلد عاتمهم وقضيبهم ويموت من جراء ذلك منهم خلق كثير . واطفال مكة يبرونهم بذلك (٢) الابه مشهورون بالعدو والحيانة .

(٣) هما من اكبر قبائل بلاد العرب قوة وبنمة وأكثرها عدداً وأمتها شجاعة ، وأغلبهم لا يلبس الا المزر ونساؤهم على جانب عظيم من الشجاعة وقد بلغ من العتبية أو المطيرية انها تمسك بذيل الفرس الذي يجرى ويجرى معه ثم تضغط على ذيله بيدها وتقذف بنفسها فوق ظهره ! وهي كذلك تركب الجمل في عدوه !

(٥) وعرب الرحلة لا يقيمون في محل واحد بل تراهم كما يشبر اليه اسمهم متتولين وراء الكلا من مكان الى آخر .

وعلى كل حال فعليه ان يجتهد في تخفيف احماله واثقاله . فاذا كملت شحنة القافلة نهضت الجمالة بجملهم وأخذوا يقطرونها في بعضها قطارا أو قطار بن بجوار بعضها ، وفي المقدمة يكون غالبا اكبر الركب وجاهة وعصية . وجمال كل رجل تسير من خلفه مقطورة في جملة ، ومنهم من يرى تقدمها على جملة حتى تكون على الدوام تحت نظره خوفا عليها من عبث العائنين . والجمال عندهم ينقسم الى قسمين جمال الشداف وبركبه اثنان ومعهما اللازم من فراشهما ومؤتنتها اليومية ، وجمال الحمل ويقال له العصم يحمل المتاع ويركب فوقه رجل واحد أو رجلان ان كان المتاع قليلا . واجرة العصم في الغالب ثلثا أجرة جمال الشداف الذي يكون من الجمال المتينة القوية حتى يتيسر له حمل ما فوقه . وليس لهذه الاجرة من رابطة بل يقدرها الشريف كل سنة (وربما كان باتفاقه مع الوالى) ، وينادى بها المنادى في الاسواق . وعليه فالاجرة تكون على حسب اهوائهما وتحت رحمتها بضيوف الله : ولذلك تراها كالترمومتر ترتفع وتخفض على نسبة مطامع ولاة الامور بمكة . ولقد كانت اجرة جمال الشداف في هذه السنة (١٣٢٨) ست ليرات عثمانية من مكة الى المدينة الى ينبع ، أما قبل الدستور فقد بلغت ١٣ جنيهاً مصريا ونصفاً ، كانت تؤخذ من الحاج في مكة بواسطة المطوف ، وهذا عدا ما كان يصيبه من الجمال في طريقه من طلبهم زيادة على الاجرة المذكورة مدعياً بأنه لم يصله شئ من اجرته . وعليه فاذا كان الحماكون في بلاد العرب من الاخير البيعدين عن المطامع كانت الجمالة على اخلاقهم ، والعكس بالعكس (والناس على دين ملوكهم) .

والمطوفون بعد ان يتفقوا مع الجمالة على حمل حجاجهم يسافرون الى المدينة في الغالب في قافلتهم بحجة المحافظة عليهم وكثيرا ما يغزر الجمالة بضعاف الحجاج فيأخذون الاجرة منهم ويخبرونهم بأن الجمال خارج البلد ويرجونهم في أخذها من هناك حتى يوفروا عليهم دفع القوشان (كلمة تركية معناها المكس) وهي عوائد تأخذها الحكومة على الجمال الخارجة من مكة أو جدة أو المدينة أو ينبع ، وأظنها ريبالان عن كل جمال ، فاذا خرجوا أعطوهم جمالا ضعيفة ضئيلة ينالهم منها مشقات جسيمة ، وكثيرا ما يتركونها ويسبرون على أقدامهم مسافة الطريق جلاها أو كلها .

والعاقلة لا تنتظم عادة الا بعد أول محطة حيث ينظم الجمالة جهالهم ويرتبون قطاراتهم التي لا يخالفونها طول سفرهم .

والجمالة في الغالب نحيفو الجسم رفيعو الساقين قصار القامة يكاد ان لا يكون في جسمهم عضل بالمرّة أما عظمهم فهو الحديد أو الكُرّ صلابه، ولهم قدرة على العدو بحيث لا يلحقهم فيه أحد ، ولقد رأيت رجلا منهم يمدو وراءه جمل شارد حتى تعلق بذيله فعاقه عن الجري ثم أمسك بزمامه . أما ملابسهم فهي قيص عليه حزام من الجلد به عادة سكين طويل أو سيف صغير وفي يدهم عصا غليظة قصيرة وعلي رؤوسهم تلك الطاقة (الكوفية) (١) التي يلفونها باشكال مختلفة . وبعض عرب الشروق يستعملون غير الطاقة شيئاً من الخوص يشبه البرنيطة ان لم يكن هو هي ويسونها الظلة .

وبعض الجمالة يلبس نعلا في رجله تقيها من حرارة الارض وحصاً بها . أما نظافة ملابسهم فلا يمكنني أن أقول لك عنها غير انها اذا اتصلت بجسومهم فلا يخلعونها مطلقاً حتى تخلع هي عنها وهذا لا يكون الا اذا اكل عليها الدهر وشرب ، والمترفون منهم يغيرون ملابسهم كل سنة مرة في موسم الحج ، وبعضهم يلبس عليها عباءة من الصوف أيام الشتاء تقيهم شدة البرد يسمونها مشلحاً ، ولون هذه الملابس كلون الجبال أو الرمال : فتراها صفراء قائمة أو حمراء طوية ، وربما كان اختيارهم لهذه الالوان حتى لا تری بسبولة من بعد بل يشكل فيها الأمر على الرائي، وفي ذلك ما لا يخفك من الفكرة التي أساسها الحبث والعدر ! ! وربما اخذ من هذا تغطية الاستحکامات الجديدة في اوروبا بطبقة ترابية تشبه أرض المنطقة المحيطة بها . وبعض كبراء الحجيج يعطون جمالتهم عباءة من الجوخ الاحمر فيفرحون بها فرحاً عظيماً وتقع في نفوسهم موقعاً حسناً ويتباهون بها على أقرانهم .

والجمالة يلحفون للحجاج بعد الابطعاد عن مكة في السؤال ويغلظون لهم في الاقوال فترى أصواتهم هنا وهناك قائلين لركابهم (جرجوش - هلالا - سكر - جرش) . فيجيبه هذا الحاج أنت أخذت، ويقول الآخر ما بقي شيء أو مافي معنى ذلك ، ويكثر بينهم

(١) اظن ان تسميتها بهذا الاسم نسبة الى الجهة التي كانت تعمل فيها وهي الكوفة .

الاخذ والرد الذى ينتهى بأخذ الجمالة ما يريدون .
وعلى طول الطرق ترى كثيرا من حجاج الفودر (التكرور) مشاة باطفالهم وكثيرا
ما ترى الام حاملة طفلها فى شبه كيس ملتصق بظهرها بحيث لا يظهر منه غير رأسه ،
وعلى رؤوسهم بعض أمتعتهم وفى أيديهم صفيحة أشبه بالكشكول يضعون فيها غذاءهم
واذا كانت لهم حاجة الى السؤال سألوها ركاب القوافل بلطف وأدب وما رأيتهم يطلبون
غير الماء لانه يصعب عليهم حمله وخصوصا فى مدة الصيف الذى تجف فيه القرب وتنشف
الركايا . فاذا مرت القافلة قرب بيوت قبيلة من القبائل وجدت كثيرا من الأعراب
ينادون على البطيخ الكبير بقولهم برطيخ وعلى صغيره بقولهم الخريز وأصلها قربوز بالتركية
وينادي بعضهم الماء الماء ، خبز خبز . الثمر ، الفجل . فاذا قربت من ديارهم وجدت
شرذمة من أولادهم يحيطون بك وأيديهم ممدودة للطاء وهم يتغنون بقولهم : يا حاج
سلامات ، يافدى سلامات ، يا بوا سلامات ، ان شاء الله سلامات ، ان شاء الله عرفات ،
ان شاء الله ركات - وبعضهم يقول ، حج حجيج (حج الحجيج) بيت الله : والكعبة
ورسول الله الخ .

وكأني بهم والقامة تهضم فى ا كفهم والحسنة تضيق بين أصابعهم لا يعرفون الحسنة
الا وقت امتداد يدك بها اليهم ، فاذا انقضت حركتها صارت كأنها ما كانت !!
وللجمالة أغنية يتغنون بها فى طريقهم وهي فى الغالب على النغمة العراقية والرومية
التي أخذوها عن حجاج الأتراك والشوام . وجالهم ترناح الى هذه الاغنية وتسمع لها
فنتسيها لحظة ما هي فيه من التعب والعناء . وهذه الاغنية لا يكاد يعرفها من يسمعا
لأنها أقرب الى الرطانة منها الى العربية ، على انها لا تخلو من معانى دقيقة لطيفة وأغلبها
غرامية تمثل حكاية عن محب ومحبوب أو عاشق ومعشوق ومنها ما هو مدح فى المطايا
ودونك شيئا منها :

« يا حبيبي لو ترى حالى والى جرى لى بعد فرجك (فراقك)
والله ما نبت عن بالى ولا نسيت الحصافة ذاك »

« يا سيد وايش غمرتك في دائرة الحفا والشوك ، يارهيف ، يامرود العين
ياريت خدي فيجسم نعلين . — الله يحاسبهم كما حاسبوني ، كما رموني بجوف الوجيدة
(الوقيده) وأنا حي . »

« لو اهني بالحج واوفى جهاره ، واجف (واقف) على العيرات ساجدين مع الربيع ،
(الجبل المرتفع) صبح أربع تسمى شعيب الخضارة ، مع مثلهن يمسى بوادي الربيع ،
مع مثلهن كل تهنى بداره ، وأدى النعيم اللي عذوجه (عذوقه) مهابيع . »

« يا لله يا راد كل غريب بلاده والذوق (النوم) بعد الجسا (القسوة)
(يعني التعب الشديد) ، حمت اليمين والشام وكل دايره جيت من وراها ، لى فى
اليمين سيد ولى فى الشام باشا ، ان جيت عند اللي فى لمن (اليمين) ييجى (يبنى)
يلكنى ، وان جيت عند اللي فى الشام ييجى يحكنى . »

وصغار الحجاج من المصريين لهم أغنية يتغنون بها فى طريقهم وعلى الخصوص
نساؤهم . وهى لا تخرج عن ذكر الطريق للحج وذكر البيت وعرفة وزمزم ،
وخصوصا ذكر النبي عليه الصلاة والسلام . وكلها عبارات بسيطة ليس فيها شئ من
المعاني العالية نذكر لك شيئاً منها :

« أنا أمدح محمد ، والحسن والحسين والقاسم أحمد ، بلغ العاشقين يارب زيارة
محمد ، مدح باشتياق أنا ما أمدح الا النبي ، يا هنا اللي اتوعد .
يا ليلة ان برزوا وبأوا لبره ، وبات قلبي فى حزين ، ويطلب من الله يرجعوا
سالمين ، بنصره من الله ، يا هنا اللي اتوعد . »

وان جيت حبيبي يا وبور وان جيت حبيبي ، لا كنسك وأرشك وبالشمع أيدك ،
مروق بنحوه يا بحر ، يا بحر مروق بنحوه ، لا يمسك عكار ، ولا ريج بدوخه ، تحت
ظل القلوع أبو شال وجوخه ، فى رابع نوى الاحرام ولبس احترامه ، يا نهار الهنا يوم
خلوه يفك احترامه ، يا فرح قلبي يوم طلوع الجبل ، والخطيب على الجبل ، والمبلغ
يرقى ، يا فرح قلبي ساعة التفره ، وفرحت عيوننا ونزلنا بفرحه ، وفوتنا من بين المعلمين

كان الفجر لايج ، يوم دخولنا منى ونصبنا الخيم وذبحنا الذبايح ، وافكرنا العيال وبقى
الدمع سايل ، وبعد ثلاث أيام حملنا لمكة ، وطفنا طواف الوداع وبرزنا ، والجمال
حملنا ، وعلى أبو ابراهيم سرنا ، وصلنا قبة المصطفى والاعتاب زمرد ، حول مقام النبي
قال الطواشي منين يا جماعه ، زوروا النبي زوروا واطلبوا الشفاعة .

ووقت تحميل القافلة وتنزيلها تكثر السرقات من الجمالة انفسهم ، وقد يتفق جمالك
مع جمال آخر فيحضر في هذا الوقت الذي يليك فيه بصريخه وصياحه في حين ما
الاخر يقض على عفشك ويسرق منه ما تصل اليه يده ، حتى اذا هدا روعك شعرت
بما تقص من متاعك . وهنا لك يكثر الصياح فيقول هذا : خرجي ، ويقول الاخر :
ملايسي ، وغيره يصيح : لحافي وهكذا ، وبمدهرج ومرج من غير فائدة يسكت الصائحون
شاكين أمرهم الى الله ، ويشغلون بجهيز شؤونهم . وليست الجملة قاصرة على هؤلاء
بل ترى الصراخ من أنحاء القافلة تبامها فهذا يصيح قائلا : يا حاج فلان ، وذلك ينادى
يا حاجة فلانه ، وآخر يقول اندر ، وغيره يوم بانه يشاهد الحرامي فيقول : شايك ،
وآخرون يشغلون بنصب خيامهم فيدق هذا بمطرقه ، ويتصارخ الاخر مع جاره الذي
زحزحه عن مكانه ، وهو في أثناء ذلك يزعم مع الذي من ورآته لانه يراحمه على محله ،
وتسمع فيما بين ذلك اصوات الاعراب هذا يقول : الحطب الحطب ، وآخر يقول : الماء
الماء ، وهكذا ، وما هم الا سارقون ما تصل اليه أيديهم ويفرون من حيث لا يشعربهم احد.
وبالجملة فتستمر هذه الجملة صاعدة في هذا الفضاء الى عنان السماء نحو ساعة من الزمان ،
أغنى ريثما ينزل الحجاج حمولهم ، وينصبون خيامهم ، ويمهدون فراشهم بين رحالهم ،
ويحيطونها بشقادفهم التي تلتف بها جماهم وجمالهم . وهنا لك يبدأ هذا في جلب الماء
بنفسه أو بواسطة جماله وآخر يستقضى الحشب ، وغيره ينصب القدر لطبخ بعض الاغذية
الجافة كالمدس والارز أو اللحم المجيز (وذلك في المحطات الصغيرة التي لا تطول
الاقامة فيها أما المحطات الكبيرة فيدشرون منها اللحم الطري الذي يذبحه بعض اعرابها)
وبعد العشاء يشربون قهوتهم وينامون بعد ان يعطوا الجمالة عشاءهم ، والرفقاء من الحجاج

يتناوون السهر على حراسة عفشهم ، ومن يسهر منهم تراه على الدوام يصرخ بكلمات الاضطراب والازعاج كقولهم ، «شايك» « ابعده » « لا تقرب » وهكذا . والحجاج يقضون حاجتهم بين رحالهم في الغالب ، ومن ابتعد عنها لا بد أن يكون معه أنيس يحرسه عند اشتغاله بنفسه ، والا فإنه لا يحرم واحدا من الاعراب ينقض عليه ويضربه في رأسه بمصا يابسة قصيرة تخمد معها انفاسه !! وهنا لك إشاحة من ملابسه أو يكتفى بقطع كره من حزامه أو من ذراعه . فاذا استغيبه صحابته قاموا للبحث عنه فيجدونه أما فاقدًا للحياة فيوارونه التراب على حاله !! وأما فاقدًا للشعور فيأخذونه ويقومون بشأنه ، وقليلًا ما ينجو من هذه الضربة . وعلى كل حال فالناس في القافلة تراهم جلوسا قياما نياما مع ماشيتهم وخدمهم وجالهم وتبعهم بلا فارق بين الجميع ، بل ترى السيد على الدوام يبالغ في السؤال عن خدمه والاهتمام بشأنهم حتى لكانه يتقرب بذلك منهم، وفي هذا الطريق تتحقق مسألة السادة الصوفية (سيد القوم خادمهم) . وقد يقطع الجمالة بعض الجمال من القافلة اثناء سيرها ، ويتظاهرون باصلاح حملها حتى اذا ابتعدت القافلة عنهم أوقفوا بركابها وهم يستغيثون ولا يعاينون، وسلبوهم متاعهم وكثيرا ما يجهزون عليهم ويفرون بمجالهم الى حيث أرادوا

وبالجملة فركب القوافل لاضمانه له بالمره ، وهو بين يدي المقومين والمطوفين كالطيرة الضعيفه في يد الطفل ان شاء اكرمها وان شاء اهان عليها المصائب والمتاعب من كل جهة لانهم طبعا في هذا الفضاء ، ارباب الحكومه والقضاء ، وهم الذين يفصلون فيما عسى ان يقع من الحجاج من الشغار أو الصغار الذي هو شأن الطبقة السافله منهم على الدوام : اذ لا تسمع منهم على طول الطريق الا عبارات نأفة أو مشاجرات اساسها شئ لا قيمة له بالمره ربما ادت الى أخذ البعض بخناق الآخر ، وذوو العصية منهم هم الغالبون . أما اذا كان الشجار بين بعض الحجاج والجمالة ، فان كان الحاج ضعيفا احتل الاهانة لأول مرة والا دافع برفع لسانه ويده بسرعة يعقبها رد فعل بالاعتذار اليهم والاستكانة لهم . ولا يعدم الحاج المتشاحن في هذه الحال من اخوانه من يعنفه على شجاره مع الجمالة منتصرا اليهم لا بلسان الحق ولكن بعبارة المتي والمداهنة اللذين

اساسهما الجبن والنفاق والعياذ بالله ، مما يجعل روح ذوى الاحساس الرقيق تتردد بين حناجرهم وخواصرهم ! واذا فن يريد بنفسه خيرا فعليه ان يصم اذنيه ويربط لسانه عن أمثال هذه المهاترة ، فترتاح روحه ويطمئن قلبه وان كان ضميره فى ألم مستمر .

وعلى كل حال فيجب ان يكون الناس فى طريق القافلة كلهم عيوننا نحافظ على حياتهم ومتاعهم . وعندى أنه يجب على حجاج كل قافلة ان تكون لهم بصيرة على انفسهم : فيرتبون أمورهم ويتخبون لقافلتهم رئيسا منهم قبل قيامهم من مكة . وهذا الرئيس يرتبهم فى خارجها ، فيعين منهم خفراء بالنوبة يقومون بحراسة القافلة فى أثناء سيرها وفى اقامتها ، فاذا حدث حادث فى القافلة أثناء المشي أوقف سيرها ونظر فيما فيه صالحها . وهذا اظنه أولى من تسليم زمام أمرهم الى مقومهم . وما على حكومة الحجاز اذا رتبت لكل قافلة خفراء من العسكر تقوم بحراستها فى نظير رسوم مخصوصة تقاضاها من ركاب القوافل ، فذلك يكون فيه شيء من الضمان للحجاج اللهم الا اذا صادفوا منه ضعفا على ابالة .

من غص داوى بشرب الماء غصته فكيف يصنع من قد غص بالماء على انا سمعنا ونحن نكتب هذه الكلمات ان حكومة الحجاز مهتمة بتسيير السكة الحديدية بين مكة وجدة . فاذا تحققت هذه الامنية سهل على الحجاج الطريق الى الحرمين الشريفين بواسطة السكة الحديد . وهنا نرجو الحكومة الحجازية ان لا تجعل هذه السكة ضيقة مثل السكة بين الشام والمدينة حتى لا تصادف شيئا يعوق سرعة سير القطارات عليها والله تعالى يوفقها بمنه وكرمه الى ما فيه الخير العام .



سفر الجناب العالى

من مكة الى الوجه

أمضى الجناب العالى بمكة يوم ١٤ الحجة وهو يستقبل زواره ، ويفيض نضاره ، على البائسين ، والمحتابين ، بعضهم بواسطة رجال المعية السنية وبعضهم بواسطة حضرة مأمور التكية الذى احيل عليه البحث في الالتماسات الخاصة بالمرتبات اليومية او الشهرية . وفي ظهر ذلك اليوم أمر حفظه الله فسارت حملة الحاشية الكريمة الى بحره ومعها كثير من فقراء الحجاج المنقطعين مصريين وغير مصريين ممن صدرت الارادة السنية بتسفيرهم الى بلادهم بناء على التماسهم على نفقة الخاصه الخديوية . ثم قامت في عمتها حملة دولة الوالدة فوصلت حفظها الله بحجرة فى منتصف الساعة الثالثة بعد الغروب .

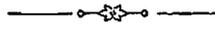
وبعد صلاة العشاء طاف الجناب العالى طواف الوداع ، وركب سموه وفي ركابه الفخيم من بقي فى خدمته من رجال معيته ، وبمجرد ما خرج من باب مكة وجد دولة الشريف وحضرات وكيل الوالى وكثير من الاشراف والكبراء قد اجتمعوا لوداعه ، وساروا فى موكبه ساعة شاكرين له همته السامية ، وآدابه العالية ، مكررين آيات الثناء على فضائله وفواضله . فشكرهم جنابه العالى مودعا . وسار وفى خدمته اصحاب السيادة أنجال الشريف ، وسعادة مكتوبى الولاية والشريف ناصر الذى تعين من قبل الشرافة العظمى مهمندارا لجنابه العالى مدة وجوده فى ارض الحجاز ، ووصل ركابه العالى بسلامة

الله الى بحرة في منتصف الليل . وامضى فيها يوم ٢٧ ديسمبر ، وبعد صلاة العشاء ركب الى جده .

وكان حفظه الله كلما مر في طول الطريق على طاية ، وجد عسكرها نزلوا من طوابيهم ، لاداء واجب التعظيم ، وضرب نفيهم منبثا للطاية التي بعدها بقرب تشريفه اليها . ولما اقترب من جدة وجد سعادة قائمقامها وحضرات قومندان عساكرها مع كثير من اعيانها في انتظار تشريف جنابه العالي ، وسار الكل في ركابه حتي وصل الي سلم الكورنتينة في نحو منتصف الليل . وهنا لك سلم عليهم سموه شاكر الهم عنايتهم وآدابهم ، وركب الزورق البخارى الى وابور المحروسة مع بعض رجال معيته . وكانت دولة الوالدة قد سبقت اليه مع حاشيتها ، أما باقى رجال الحرس والمعية السنية فمقد نزلوا الى وابور الرحمانية الذي كان في انتظارهم .

وفي صباح يوم ٢٨ ديسمبر قابل الجناب الخديوى في بخته اصحاب السيادة انجال الشريف وسعادة قائمقام جده وحضرات قومندان عساكرها ، ثم قناصل الدول الموجودين في هذا الثغر ، وكانوا قد حضروا بصفة رسمية لتوديع جنابه العالي ، فشكرهم سموه على آدابهم ، وارسل تلفرافات الامتنان والشكران الى جلالة السلطان ، ومقام الصدارة العظمى ، ودولة الشريف ، وحكومة الحجاز ، على ما لاقاه حفظه الله من كمال العناية منذ حضوره الى هذه الاراضى المقدسة . وفي هذه الاثناء كان ينظر حفظه الله في أوراق حكومته التي أتت الى جده مع آخر بريد ، وبعد ان اصدر أوامره السنية في الشؤون الهامة ، أمر حفظه الله فسارت مركب المحروسة وقت الظهر

تماما قاصدة الوجه : وهي ميناء في ساحل بلاد الحجاز على البحر الاحمر ، وتبعد عن جده شمالا بمسافة ٢٤٠ ميلاً فوصلها ركابه العالى ظهر يوم ٢٩ ديسمبر ، وفي يوم ٣٠ وصلت مركب الرحمانية ، وهناك أخذ في اجراء الاستعداد اللازم لسفر سموه برآ من الوجه الى محطة البدايع للسفر منها الى المدينة المنورة بطريق السكة الحديد الحجازية .



الوجه والسفر منها الى المدينة المنورة

الوجه قرية على عرض ٢٦ درجة و ١٤ دقيقة وطول ٣٦ درجة و ٢٧ دقيقة ، وفيها نحو أربعين بيتاً صغيراً . وعدد أهلها لا يزيد عن خمسمائة نفس كلهم تقريباً عائلة واحدة تسمى عائلة البديوى ، ويشرف على القرية تلة من ورائها ، عليها قلعة حصينة ، وفي هذه القرية على صغرها ثلاثة مساجد يقصدها في أيام الجمع كثير من العربان التي في ضواحيها من قبيلة بلي . وكان للوجه اهمية عند ما كان يمر عليه ركب المحمل مدة سفره على البر : فقد كانت تنصب فيه الاسواق وتفرق فيه العوائد على العربان . أما الآن فحياة أهله من صيد الاسماك وتجارة السمن والاصواف التي تأتي اليه من وراء الساحل ، والقمح الخشبي الذي يؤتى به من داخل البلاد . واغلب تجارته مع السويس ، ومنها تقوم اليه في كل خمسة عشر يوماً بوسطة على احدى مراكز الشركة الخديوية . ولقد كانت هذه القرية مدة وجود الجناب العالى بمياها على اكل ما يكون من معالم الافراح : فكنت ترى الرايات الحمر على بيوتها وعلى سوارى

فلايكها ، والعلم العثماني كان يخفق طول هذه المدة فوق قلعها . وفي الليل كانت القرية تلوح كأنها الثريا زهاء وبهاء لمصباح الزينة التي كانت على دورها ، وخصوصاً دار القائمقام والقلمة . وبالجملة فقد كانت البلدي في حركة هائلة لم ترها طول عمرها .

ومن سنة ١٣٢٧ للهجرة رجع المحمل المصري الى الوجه من جدة لتأدية واجب الزيارة بالطريق الحديدي من محطة العلاء . وسبب ذلك تعرض عربان الدرب الطويل ودرب ينبع له بغير حق . ولعلمهم يرجعون عن غيرهم فيعود الى مجراه الاصيل (١) .

وفي يوم السبت الموافق آخر شهر ديسمبر نزل الجناب الخديوي الى البر ، وكان في انتظاره حضرة قائمقام الوجه وسليمان باشا ابو رفادة شيخ قبائل بلي والمتعهد بمحمة الركاب العالي ، فركب حفظه الله المهجن مع حاشيته وسار الى جهة الشرق في ركب حافل من علية عربان هذه الجهة ، وفي مقدمتهم نحو خمسين نفرا من عرب عقيل على هجنتهم (وهم جند للدولة من العرب مثل جنود البيشه) وفي أيديهم مزاريق مرفوع عليها العلم العثماني ، وعلى رأسهم ضابط برتبة صاغ قول أغاسي ، وامامهم فرقة منهم تضرب نوبتهم بالقرزان على طول الطريق . وما زال حفظه الله سائرا بموكبه وفي خدمته حضرة قائمقام الوجه وبعض مأموري الدولة هناك في واد يقال له ابو عرايش حتى وصلوا بمد مسيرة اربع ساعات ونصف الى ماء يسمى رأس حرامل ، وفيه

(١) خصوصاً وقد يظن أن الحاج الشامي سيتخذ طريق الوجه الى المدينة وهو لا يحتمل ركب الحملين .

مكان يسمى الرحبة . وقد كانت حملة الخيام سبقت اليه واستعدت فيه لقدمه الشريف ، نزل الي سرادقه ومن في معيته كل الي خيمته .
أما دولة الوالدة حفظها الله فقد ركبت مع صاحبات السمو والعصمة كريمة الجناب العالى ، ودولة البرنيس فاطمة هانم افندى ، ودولة والدة البرنيس نازلة هانم افندى حلیم ، وبعض حاشيتها عربات صنعت بصفة خصوصية للسير في طرق الجبال يجر كل واحدة منها ثمانية من الجمال ، ومن ورائها تختروانات تحملها البغال ، على جملة اشكال ، حتى اذا تبين من هذه استرحن في تلك . وكان خلفهن هوادج لمن كان في معيتهن من القلقوات ، يتلوهن باقى حملة الركاب الخديوى من حرس وخدم وحشم ، يتقدمهم رجال المعية السنية . وما زالت هذه الحملة سائرة حتى وصلت الى المكان الذى فيه المخيم الخديوى في مسافة عشر ساعات .

وفى يوم أول يناير ركب سمو الجناب العالى بعد صلاة الفجر وسار بركبه في وادى السر سر حتى نزل في مخيمة بوادى ابى القزاز ، وبه ماء يسمى باسمه ، ومسافة السير اليه على نحو اليوم السابق .

وفى هذا الوادى يكثر شجر العشار والشرارة (نوع من السنط) والقريظة (نوع من الحلفة يرتفع عنها وتأكله الابل) والدوم والاراك (السواك) ، وكذلك يكثر فيه نبات العوسج والخروع والضرمه (تشبه الحلقه الا انها قصيره) والرمت (نبات كالشيخ) وانخرمه (مثل البتونيا) والسيال والخنظل وله عندهم فوائد كثيرة وخصوصاً في قطرانه الذى يستخرجونه منه) . والعرب يدقون خشب السيال مع الخنظل ويعملون منه شريطا يضرّبون

عليه بزنادهم فيورى ناراً ، وهم في غنى به عن الكبريت .
وفي يوم ٢٠ يناير ركب الجناب العالى بعد صلاة الفجر وسار بموكبه الى مكان يقال له مسيل النجد ، وفيه ماء اسمه البدا ومن هنا تبدأ الارض في الارتفاع نحو الشرق ، فنزل فيه حفظه الله وقطع اليه المسافة مع ركبه في مثل الايام السابقة . وقد وجدنا هناك أورطة من سوارى الجيش العثماني كانت قد أتت لحرس جنابه الرفيع من قبل الدولة العلية ، وكانت تريد السفر الى الوجه لانتظار سموه بها والسير منه في ركابه العالى فلم تتمكن لانها كانت تظن ان سموه يشرفها بعد هذا التاريخ .

وفي يوم ٣ يناير سار ركب الجناب العالى في وادى النجد ومعه فرقة من خيالة الدولة حتى وصل الى خشم سلع ، نزل به وبات فيه مع باقي ركابه ، والمسافة اليه كالمسافات السابقة . ويكثر في هذا الوادى شجر العشار والطلع (نوع من السنط) والماء فيه قليل .

وفي صباح اليوم الرابع من يناير ركب حفظه الله بعد صلاة الصبح وسار صاعداً من عمبة سلع (ويسمونها البوق لانها على شكله) الى شرفة النجد في أرض صخرية يكثر مدرها ، ويضخم حجرها ، ويصعب السير فيها على الخيل والبغال ، والحمر والجمال ، بل وعلى النساء والرجال ، حتى ان أحد السوارى الترك كان يسرع فيها بجواده فانقلب به وارطم رأسه بحجر فانكسر وأخذ الدم يتدفق من أم ناصيته ومن وجهه وأذنه بما فقدمه هذا الرجل شموره وكاد يموت حتف أنفه ، لولا ان الدكتور الحسنى طيب الحرس الخديوى كان قريباً منه ، فقدم بنفسه عن راحلته وتبعته باجزخانتى الخصوصية

فضمنا جراحه ، واشممناه بعض المنعشات التي افاقته لوقته ، وركب جواده بين اخوانه الذين تلاحقوا اليه وهم شاكرون لرجال الجناب العالي عنايتهم به واستعدادهم لمثل هذه الطواريء ، ذاكرون لهم حسن خبرتهم وعالي همهم . ولقد شاهدت في الجبل الذي كان على يسارنا بعد مدخل البوق أركتابة بالخط الكوفي محفورة حفرا بسيطا في صخرة مشرفة على الطريق ، قرأت منها هذه الكلمات : « بسم الله ما شاء الله باسم الله . . . المستنصر بالله » واني لا ادري اذا كان ذلك كتب في مدة المستنصر بالله الفاطمي في مبدأ النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة ، وقما وقع بمصر ذلك الغلاء الفاحش الذي بلغ فيه ثمن الاردم القمح مائة وعشرين دينارا والذي أكل الناس فيه بعضهم بعضا: اذا لا بعدان يكون هجرها في ذلك الوقت جماعة الى المدينة المنورة، وساروا من هذا الطريق وقيدوا تاريخ مرورهم، والاشارة لعله هجرتهم؛ بذكر باسم الخليفة لذلك العهد. كما يصح ان يكون ذلك حصل في مدة المستنصر بالله العباسي الخليفة ببغداد في نحو سنة ستمائة وثلاثين هجرية، على مدة الملك الكامل صاحب مصر ، والذي خلف صلاح الدين الأيوبي في محاربه للصليبيين، حيث لا يبعد أنه سير في هذا الطريق فرقة من عياكره (١) لترود الطريق من الشام، الى بيت الله الحرام وبيت نبيه عليه الصلاة والسلام، خصوصا بعدما كان الافرنج قد ملكوا أيله (العقبة) واجلام منها صلاح الدين في سنة ٥٦٦ هـ

وبعد ذلك أخذ الوادي في الانفراج حتي تخيلنا انه اقل امامنا . ولم نزل سائرين فيه الي الشرق حتي وصلنا الى مدخل بين جبلين شاهقين احمرين

(١) وربما كانت هذه البعثات هي التي سهلت طريق البر لحج شجرة الدر .

(لون كربونات الحديد) تتخللها طبقات قائمة سوداء أو صفراء تتقابل مع بعضها في موازاة واحدة في الجبلين بما يحكم معه الرائي لأول وهلة أنهما جبل واحد قد تمزق عن بعضه بحادث طبيعي ، ويسمون سلسلة هذه الجبال حرّة العوير قال الشاعر :

واشرق اجبال العوير بفاعل اذا خبت النيران بالليل أو قدا
﴿ وقال أيضاً ﴾

حتى وردن ركيّات العوير وقد كاد الملاء من النكتان تشتعل
والعوير احدى لأبتي المدينة اللتين حرم عليه الصلاة والسلام ما بينهما
فقال « حرام ما بين لابتها » وفي الصحاح « أمهما حرتان تكتنفانها ». ويظهر ان
نيران هذا الجبل البركاني كانت تظهر أحيانا من قبل وبعد الاسلام ، والعرب
تعرف ذلك كما قال القطامي في شعره السابق من قصيدة يمدح بها يزيد بن معاوية ،
ويسمون نارها بنار الحجاز وقد ورد ذكرها في الحديث الشريف .

وفي الظهر وصلنا الى رأس الحرة ، وهي قمة عالية سوداء تشرف على
واد ضيق فرشت ارضه بحجارة صوانية حمراء وصفراء ، وفي جهته الشمالية
ممر للسيول فيه بعض شجر الطرفاء ونبات الأرتطى (تأكله الابل) ، ويكثر
في هذا الوادي البعثران الذي يعطره بروائح الزكية . ومازلنا سائرين في هذا
الوادي الضيق ونحن في شدة ما يكون من الحر حتى نزلنا منه الى واد متسع يسمى
وادي الدهيث ، وليس فيه ماء ، ولكن يكثر فيه شجر الفضا وهو نوع
من الطرفاء ناره شديدة يضرب بها المثل ، وصعدنا منه الى وادي بوبلي
(ابي بلي) وهو واد حصاؤه كثيرة ، ومدراته كبيرة ، وزلته كالبطيخ في

حجمه ، وفيه يكثر شجر الشراة والسنط . ومن هنا يأخذ الطريق في العلو ، والجبال في الدنو ، وقد ضرب لونها الاحمر الي السواد ، واخذت تتجزأ الي اشلاء هرمية ذكرتنا بمصر التي تجت صورتها الي افئدتنا ونحن في سبيلنا الي الله تعالى ورسوله باجل صورة ، وانغم مثال ! وهل هي الا وطننا العزيز الذي بحبته يكمل الايمان ، ويرضى الدينان ؟ نعم ذكرنا هذا الوطن العزيز ونحن في ركاب مليكه ، وفي خدمة هذا الروح الامين الذي منه حياته ، وفيه خيراته ، وبركاته ، نعم ذكرناه في هذه القفار ، التي ترسل عليها الشمس شواظا من نار ، يشوى وجوه السفار . نعم ذكرناه ، وذكرنا رياضه وغياضه ، ونحن نسير في ارض نبتها المدر ، وغرسها الحجر ، وثمرها الصخر ، وزهرها الوعر ، ومساكنها الفقر ، وساكنها الفقر ، ونسيمها لهيب الحجر ! نعم ذكرنا مصر وذكرنا نيلها ، وظلالها ، وليس هناك ماء الا ما يتصبب عرقا من جسومنا ، حتى لكأنها شماع باستور ، أو مرشح شوق ، وليس من ظل الا ظل عوسجة أو طلحة يكاد يلهب من شدة ما يحبط به من الحرارة في شهر يناير ! نعم ذكرنا مصر هنا وذكرنا أهلها وما فيهم من اخلاق قويمه ، وعواطف كريمة ، وسجايا سليمة ، وآداب لا يصل اليها الاعراب !!!

ومازلنا سائرين في هذا الوادي حتى وصلنا الي مضيق دخلناه فوجدناه كثير التعاريج ، يلتوى على بعضه كطريق الثعبان ، وأرضه غير معتدلة ، وفيها ثنيات كثيرة ، صادفت العربات فيها مشقات كبيرة . وينتهي هذا الطريق بعقبة كؤود صخرية في أرضها تنوءات حمة يصعب السير فيها على كل من مر فيها !! لذلك انتظر فيها الجناب العالي حفظه الله لمساعدة قافلة الركب الخديوى ، في

المروءة، وبمحسن نظره الثاقب وهيمته العليا، مرّ الركب جميعه منها على أحسن حال ، وسار الى مخيمه الذي نصب في مكان اسمه النجوة وراء هذه العقبة التي تدعى قبيلة بلي ان جدها مدفون فيها .

وفي صباح يوم ٦ يناير ركب الجناب العالي وتبعته عربات دولة الوالدة وباقى حمالة الركاب الخديوى وسار حفظه الله في هذا الوادى الذي يسمونه وادى حلاوة . ومن هنا أخذت الجبال تقطع أشلاء على جانبيه حتى انتهينا الى مفرق بين جبلين فصعدنا اليه بمنحدر رملى يبلغ ٣٠ فى المائة ، ونزلنا من الجانب الآخر فى واد واسع أرضه رملية خشنة ذات لون أحمر . وما زال حفظه الله سائراً بهذا الوادى حتى نزل منه الى وادى العلا الذي يسير من الشمال الى الجنوب ، ويكثر فيه شجر الطرفاء ونبات الحمض (تأكله الابل) وان كانت أرضه مسبخة ، وفى وسطه محطة البدائع التي وصلها حفظه الله فى الساعة العاشرة صباحاً ، حيث كان فى انتظار ركابه العالي ، سعادة محاسبى المدينة المنورة وحضرات مدير وخازن دار الحرم الشريف ، والبكباشى فؤاد بك الذى تعين مهنديراً لجنابه الفخيم ، وأصحاب السيادة الشريف شحات وكيل امانة مكة فى المدينة المنورة ، والشريف محسن والشيخ عبد الله شيخ ناحية العوالى ، والشيخ إبراهيم أسعد شيخ خطباء الحرم المدينى ، والسيد حسن أسعد ، والشيخ يحيى الدقتر دار امام الحرم الشريف ، وعزرتو حضرة صالح بك وكيل ادارة السكة الحديد الحجازية ، وحضرات قائم مقام محطة العلا وشيخ عربانها وقاضياها وشيخ مشايخ عربان عترة وشيوخها وشيخ قبيلة بنى سليم (من حرب) .
وبمجرد ما شرف الركاب العالي تقدموا جميعاً نحو سموه بواجب التحية

والتعظيم ، وهنثوا جنابه الفخيم ، قدومه بسلامة الله . فشكرهم حفظه الله ، وسار معهم الى صيوانه الخصوصي . وكانت قد اصطفت على طريقه فرقة من الجند البيادة العثماني وأمامها حضرات ضباطها لاداء واجب السلام . وبعد أن استراح جنابه العالى قليلا استقبل وفود المهثين بما جبل عليه من اللطف والايناس ، فخرج الكل شاكرآ ذا كراً ما لقيه من سموه .

وأمضى حفظه الله ذلك النهار بالبدايع بين توارد آى التهاني من كل جهة ، واصدار الأوامر بالاحسانات على فقراء هذه القبائل ، وخصوصا من كان في ركابه العالى منها ، كما أصدر أمره الكريم بتوزيع الكساوى على من كان في خدمة الركاب الخديوى من الضاوية والسقائين والعكامة والفراشين والخيمية ، وبالجملة فقد كان يوما كله حسنات ودعوات وابتهالات بحفظ جنابه الفخيم وبعد ظهر ذلك اليوم أمر حفظه الله بسفر الحرس السوارى الخديوى وبعض بلوكات البيادة الى محطة الملا لانتظار عودة جنابه الرفيع بها ، كما أمر بتجهيز قطار مخصوص لجانب من الحرس والخدمة وبعض رجال المية السنية ومعهم الخيام والصواوين اللازمة لنصبها في المدينة المنورة . فسار هذا القطار اليها مساء ذلك اليوم . أما قطار الجناب العالى ودولة الوالدة فقد تحرك من البدايع صباح يوم ٧ يناير . وما زال القطار الاول سائراً في واد يسمونه وادي الحمض لكثرة مابه من هذا النبات حتى وصل صباحاً الى محطة الجداعة وهناك استوقف لان السيول كانت قطعت جسر السكة على بعد كيلو مترين منها . وقد اخطر الجناب العالى تلفرافياً بهذا الحادث ، ولكنه حفظه الله بمجرد وصوله الى محطة هدية (قبيل الغروب) ، اوقف قطاره هناك ، وسار بالقاطرة الى محطة

الجداعة التي تبعد عنها بنحو عشرين كيلو متراً ، وبعد أن تقدم الى القطع ورآه بنفسه عاد قائلاً (ليس من الممكن اتمامه قبل يومين) ولذا أمر سموه بتأخير القطار الاول الى محطة هدية ليكون الكل في حماه ، حفظه الله .

وهدية مكان به محطة مبنية بالحجر الاصم الازرق على شكل قلعة صغيرة في محيطها مزاعل لتكون مكان دفاع للعمال ، وسط هذه الجبال ، اذا لزم الحال . وبجانبا بناء كبير عليه أحواض من الحديد لتستقي منها القطارات ، ويصعد الماء اليها بواسطة آلة رافعة تدار بالبتروك كما هو الشأن في جميع المحطات الرئيسة في هذا الخط . ومن خلف هذا البناء عشب بعضها بالحجر وبعضها بالطوب النيئ يسكنها عمال المحطة وبعض العساكر المحافظين على السكة الحديد . وعلى جانبي الطريق الحديدي ، فوق ذروة الجبل الشرقي والغربي ، قلعان يصعد الى كل منهما قره قول من عسكر الدولة لحماية المحطة ويقيم بها طول النهار ، وينزل في المساء الى سكناء من هذه العشب ، وهناك يصنعون الخبز لأنفسهم وقد رأيناهم يعملونه بحال نظيفة . وهو أشبه شي بما كانوا يسمونه بالصامولى عند العساكر المصرية .

ولقد أمضينا جميعاً ليلتنا بعربات السكة الحديدية مشمولين برعاية الجناب العالي الحديوي حفظه الله . وما أسفرت شمس يوم ٨ يناير حتى أخذ الكل يستعد لهذا العيد السعيد الذي هو عيد مصر الحقيقي ، ولكنه حفظه الله رأى عدم تكليف عبيده المخلصين بما لا تسعه حال هذه البادية ، وعندها اجمع الرأي بتكليف هذا العاجز بكتابة كلمة اخلاص رفعناها الى أعتابه السنية وها هي بنصها :

ولي النعمة ومليك الامة ،

انا لندرجو أن يسمح لنا سيدنا ومولانا بأن نردد في هذا اليوم السعيد الذي هو عند مصر والمصريين أكبر عيد ، صدى صوت رعيتك حينما كانوا وأينما وجدوا ، في ابتهالهم الى الله تعالى بحفظ شخصك المحبوب ، الذي استولى بفضله وكرمه على الارواح والقلوب . نعم نرفع لاعتابكم السنية ونحن هنا في هذه البقعة الطاهرة ، بين يدي الله تعالى ورسوله ، ما تكنه ضمائرنا لذاتكم العلية ، من صادق الاخلاص والعبودية . نعم نرفع لسموكم ما بين جنوبنا من أفئدة كلها صدق وولاء لجنابكم العالي ، حتى اذا تشرفت بتقبيل الأعتاب الكريمة ، تضرعت الى الله تعالى بأن يحفظ هذه الطامة العباسية تاجاً على مفرق الزمان ، وأن يجعل من فضلها ونوالها نعمة في عنق كل انسان .
مولاي ،

لقد بارحت دار ملكك ، وخرجت الى الله تعالى ورسوله ، فأبى الا أن يظلك السحاب في هذه القفار ، وأن تفسل طريقك الامطار ، وتنبت مع خطاك حياة هذه الديار ، بعد أن قضت سبع سنين لا ضرع فيها ولا نبات : وهل هذا أيها العزيز الا برهان الله الاكبر بقوله لك يورده لعباده ؟
وبعد ان أتممت حجاج المبرور ، وسمعت سعيك المشكور ، يمت شطر رسول الله المصطفي . فملوت متن البحار ، وامنطيت صعب القفار ، ثم ركبت سنام البخار ، حتي اذا كنت على مرحلة منه صلى الله عليه وسلم ، أراد من فضله وكرمه ، ان ينفع بك في حرم حبيبه كما تقع بك في حرمة ، فأنزل الغيث مدرارا ، وسير البحار أمطارا ، وأسأل من سيولها أنهاراً ، اوقفك في طريقك

لحظة شمت فيها نيل بلادك يسعى بين يديك ، ليروى بفيضه مواطن اقدامك ،
في هذه البرارى التي يشهد اهلها بانهم لم يروا مثل سنتهم هذه في خيرها
وبرها . وهل تريد يا مولاي دليلا غير هذا يعبر لك به رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، بانك قدمت عليه وعلى قومه خير مقدم ، ونزلت منه في المكان
الاول المحترم ??

وانا لنسأل الله تعالى بعد تمتك بزيارة السيد المصطفى ان يردك الى
بلادك ومن معك من آل بيتك الاكرمين في اكمل صحة وأتم عافية ،
تكلمواكم عين الله تعالى وترعاكم عين رسوله ، كما نرجوه جل شأنه ان يشكرك
معنا على نعمتك التي نسير في بمبوحاتها ، وان يحمذك على نوالك الذي نتفياً
في ظلاله ، وان يجزيك عنا خير الجزاء .

وقضينا هذا اليوم المبارك في وسط هذه الفلاة ، التي لم تر في أرضها
أرأ لذي حياة ، اللهم الاعمال الطريق الحديدى . فيا الله من هذه البلاد التي
لا ترى بها من جنوبها الى شمالها ، ومن غربها الى شرقها ، غير صحراء حجرية ،
وجبال صخرية ، ونفود رملية ، واحقاف من بحار الرمال ، تسوخ فيها الاقدام
كما تسوخ في الماء ، لولا أنها تخلص من هذا بسهولة ولا يدين لها على الحركة
في تلك ! يا شكرانك ربي وحمدانك على نعمتك التي انعمت على عبادك في
جميع الاقطار والامصار ! فلقد جعلت في طبيعة ارضهم ما يكفل لهم حياتهم :
فليس من أرض حتى في منازل الثلوج ومراقد الجليد الا وفيها فصل ينبت
فيه النبات ، وتقدم لاهلها به شيئاً من لوازم الحياة ، الا هذه الارض التي
اسكنت في جوفها من ذرية خيلك ، فاقام بها بيتك ، وقام بنوه بشرف

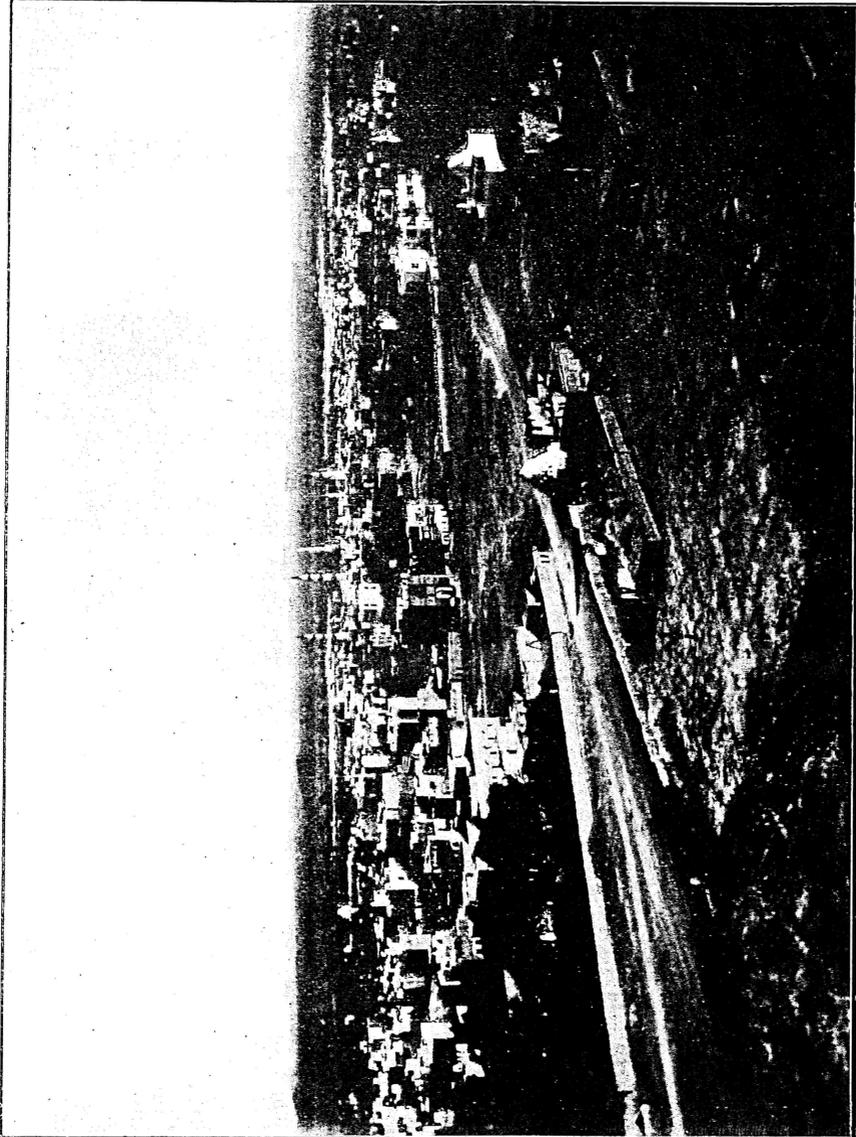
خدمته ، فهوت اليهم قلوب زائريه من العرب ، الى أن اصبح يأتيه الناس من كل فج ، حتى اذا ارسلت من ذريتهم الطاهرة ، وسلاتهم العاطرة ، نبيك الامين ، ورسولك الامي الذي هجر الى هذه الديار أهله ووطنه ، ليتمكن من القيام برسالتك ، والدعوة الى طريقتك ، ضرب الكفر ضربة لم تقم له بعدها قائمة . وسار على أثره الشريف صحابته والقائمون بخدمته بخلافته ، فقام شأن الاسلام واستولى المسلمون في أقل من ربع قرن على ملك الرومان ، واليونان ، والفرس ، وبلغوا سويداء الهند ، ومجاهل افريقيا ، وصحارى بلاد المغرب . لذلك كان من الواجب الطبيعي الذي لا مندوحة عنه ان فرض على المسلمين الحج لبيت الله على ما كانت عليه ملة ابراهيم ، شكراً له عز وجل على ما هداهم الى هذا الدين القويم الذي أتقدم من همجيتهم الاولى ، وفك ما كان في رقابهم من سلاسل المظالم وما كان في أرجلهم من قيود الذلة والهوان . وما زالوا كذلك حتى امتد ملكهم في القرن الثاني من بلاد الصين شرقاً ، الى مدينة پواتيه (Poitier) قرب باريس غرباً . وبالجملة فقد جمعت حكومتهم بين دفتيها ملك الرومان ، واليونان ، والفرس ، والمصريين ، والاشوريين ، والبابليين ، والفينيقيين ، والقرطاجيين ، والبربر ، والفرنجة ، وغيرهم ، واستمرت دولتهم الطويلة العريضة نحو سبعمائة سنة وهي كالمشكاة تنير دياجير المعمورة بنبراس المدينة الصحيحة التي من أجل أنارها ، وهو مالا ينكره عليه اعداؤها ، رقي الاخلاق ، والاخذ بناصر الفضيلة التي انما هي عمار الكون ، ونظام الوجود .

فيا لله من كان يظن ان هذه الفيافي والقنار يخرج من جوفها هذا النور

الذي اضاء الكائنات ، وتلك اليد القوية التي ضربت على أيدي المظالم التي كانت تسقطها الملوك على رؤوس رعاياهم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً في القرون الوسطى؟ من كان يظن ان أحقاف هذه الرمال ، وأجلاف تلك الجبال ، تنشئ هذه المدينة التي يرفل في مجوحها العالم أجمع؟ هذه المدينة التي خدمت العلم خدمة تذكّر فتشكر: نعم خدمت العلوم الطبية ، والكيمياء ، والطبيعية ، والفلكية والنباتية والرياضية ، حتى أن فرنسا كانت تستمد من مدرسيهم ، كما هو الحال في الممالك الشرقية الآن مع أوروبا!! ولقد بلغ من عمران الدولة العربية في الشرق والغرب ما لا يبلغه عمران أي دولة قبلها . انظر الى الأمويين في دمشق والاندلس ، والعباسيين في بغداد ، ترى من رقيهم في الصناعات ومعارج العرفان ما لا يقوي الا فرنج على انكاره ، ودونك كتاب مدينة العرب (Civilisation des Arabes) تأليف « جوستاف لوبون » فانك ترى فيه المعجب والمطرب . فهل تريد بعد ذلك كله برهاناً على صحة دين الاسلام ، وحجة على حقيقة من اهتدينا بهديه وانهجنا سبيله ؟

لذلك كان من اللياقة ، ان لم نقل من الواجب ، التوجه لزيارة هذا النبي المصطفى ، الذي قضى حياته جميعها في سبيل خدمة الانسانية العامة ، واناة سبيلها المذلّمه بمشكاة هذا الدين المتين ، دين الحرية ، دين الاخاء ، دين المساواة ، دين العدالة ، دين الفضيلة دين الحياة الصحيحة .

وفي ظهر اليوم التاسع من يناير وصل الخبر باستعداد الخط . فأمر حفظه الله بمسيرة القطار الاول فقام من محطة هدية في الساعة الثامنة عهري ولما وصل محطة الجداعة (وهي في الكيلو ١١٥٦) سار الهويّنا



منظر عمومي للمدينة المنورة

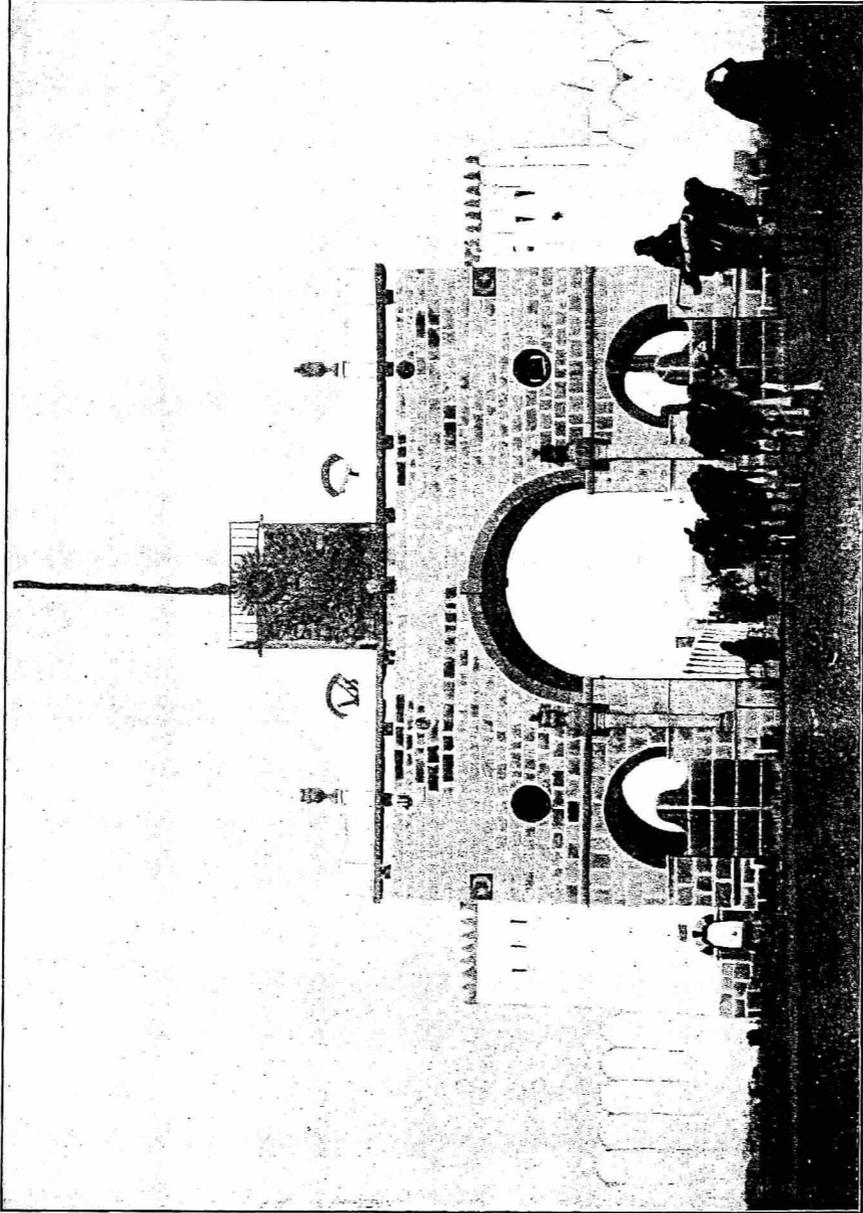
حتى غادر مكان القطع الذي كان طوله نحو ألفي متر ، والذي أبلت في اصلاحه
عساكر الدولة التي استدعت اليه من المدينة بلاء يذكر فيشكر . ومياه هذا
السييل كانت آتية من جبال الطائف بما يدل على كثرة الامطار التي نزلت في
تلك الجهة ونزل منها مجار كثيرة الى مكة والمدينة والطريق الذي بينهما .

واستمر القطار سائرا في وادي النعام الذي يتدنى من مجرى السيل ،
ويكثر فيه شجر السنط ، ومرّ على محطة النعام ثم محطة عنتر وفيها قلعة قديمة
على قمة الجبل الغربي ، ولعلها كانت على طريق الحاج أيام سيره على البر ويسمى
الجبل بهذا الاسم ولا أدري لهذه التسمية من سبب ، غير أن ديار عبس كانت
شمال المدينة مع شرق ، وربما كان هذا الوادي من منازلها أو كان لها فيه
واقعة باسم بطلها الذي كان يعيش في القرون الاول قبل الاسلام (وكان عليه
الصلاة والسلام يسرّ بحديث الناس في سيرته) . وما زال القطار سائرا حتى وصل الى
محطة الحفيرة والتي عصا التسيار فيها للمبيت بها . أما الجنب العالي فقد بات في المحطة
التي قبلها وتسمى محطة البوير . والمحطات من هدية الى المدينة المنورة لم تكمل
عملية البناء بها ، وكان العمل فيها جاريا على قدم وساق ، وكان يعمل فيها كثير
من المصريين وأغلبهم من مديرية قنا وجرجا ، وكانوا في شدة الفرح بمقدم
مليكم المحبوب . وكانت العساكر على طول السكة الحديدية يقفون في كل محطة
لاداء واجب التعظيم للجنب العالي الخديوي من البدائع الى المدينة . وقد
كان عدد العساكر بهذا الخط قبل تشریف الركاب العالي ثلاث اورط عثمانية
للمحافظة عليه ، فزادوا عليها أربع اورط قبل تشريفه أيضا للمحافظة على ركابه
الفخيم ، فيكنت تراهم منتشرين هنا وهناك وفوق الجبال على طول السكة .

ومازلنا حتى مررنا على القطع الثاني الذي كانت أحدثته السيول في الجسر قبيل المدينة المنورة بنحو خمس كيلومترات. وهناك شاهدنا قبة سيدنا حمزة رضي الله عنه ، ثم أهلة ما ذن الحرم الشريف . وعندها أخذت الاعناق تتناول ، والابصار تتجاول ، في هاتيك الارجاء ، مستطلعة أنوار القبة الخضراء . حتى اذا تجملت لنا بفخامتها امتلأت القلوب أفراحاً ، والصدور انشراحاً ، والعيون قرة ، والافتدة مسرة ، وزاولت الارواح أن تخرج عن نظامها ، وتطير من من جسامها ، الى نور الانوار ، وسيد الابرار ، ومصدر سعادة العالمين في جميع الامصار ، لولا أن الجسوم كانت تتعلق بها ، ناهضة بركابها ، ضاربة أباطوابورها ، مهللة ، مكبرة ، داعية ، مليية .

نعم نعم كنت ترى الأرواح ترفرف بظروفها ، والقلوب تزحف في تجاوبها ، لتسبق الركاب ، الى ذلك الجنب . وهناك كنت ترى نفس الجنان ، وحقيقة الوجدان ، يتطيران ، من اطراف اللسان ، في صورة تيمات خالصات ، وتسليمات سنيات ، الى سيد الكائنات . وجميع الحواس مهيأة الى التمتع بهذه المنة الكبرى والنعمة العظمى ، والعين تفتخر عليها بشرف سبقها الى هذه السعادة التي لا نهاية لها ممتنة عليها بأنها هي التي زفت اليها بشرى الوصول ، الى غاية المأمول .

وما زال القطار حتى دخل بين بساين المدينة ونحليها الغربية .
واخذ يسير بنا الهويينا حتى وصلنا الى محطة المدينة المنورة في الساعة الخامسة عربي نهارا ، وكان العدد الجم من الاهالي نساءً ورجالا على جانبي الطريق الحديدي الى المحطة التي اكتظت ساحتها بوفود الناس على اختلاف

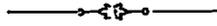


باب الغزيرة (الباب الرشادي) بالمدينة المنورة

طبقاتهم وفي مقدمتهم سعادة علي رضا باشا محافظ المدينة وقومندان عموم القوة العسكرية الموجودة بها ، ومعه كثير من المأمورين العسكريين والمكيين الذين كانوا يقومون بأمر النظام العام استعداداً لمقدم الجناب العالي الخديوى . وكانت عاية القوم على رصيف المحطة يتقدمهم حضرات شيخ الحرم ونائبه ونقيب الاشراف وصاحبها الفضيحة قاضى ومفتى المدينة .

وفي الساعة السادسة تماماً ضربت المدافع ايذاناً بوصول الركاب العالي فتشارفت الاعناق ، وتمادت القامات لمشاهدة القطار من بعد ، وما زالت الابصار تلمحه حتى وقف في رحبة المحطة (لان رصيفها ما كان كمل بناؤه) وهنا لك صعد سعادة المحافظ الى صالون الوابور لتأدية واجب الاعظام ، وتبلغ جنابه العالي سلام الدولة العلية ، وتهانى الحكومة المحلية . ثم صعد شيخ الحرم ونقيب الاشراف ، وبعد واجب السلام نزل حفظه الله من القطار وسلم على اعيان المدينة الذين قدمهم حضرة المحافظ الى جنابه العالي واحداً بعد الآخر ، وسار ومن خلفه سعادة المحافظ ودولة البرنس كمال الدين ورجال معيته السنية يتلوهم شيخ الحرم واعيان المدينة المنورة بين صفوف العساكر التي كانت تؤدى التعظيم ، وموسيقاها تضرب السلام الخديوى ، فدخلوا من باب العنبرية وهو باب عال مشيد يبلغ ارتفاعه نحو عشرين متراً منقوش بالليقة الذهبية ويسمونه الآن بالباب الرشادى يتمنا باسم صاحب الخلافة العظمى . وما زال الكل سائراً حتى وصلوا الى الصيوان انخصوصى الخديوى الذى كان قد نصب في مقدمة خيام حاشيته الكريمة داخل سور المدينة الكبير . وهناك استقبلهم جنابه العالي بكرمه وايناسه كما استقبلوه بصنوف تحياتهم وتهانيمهم .

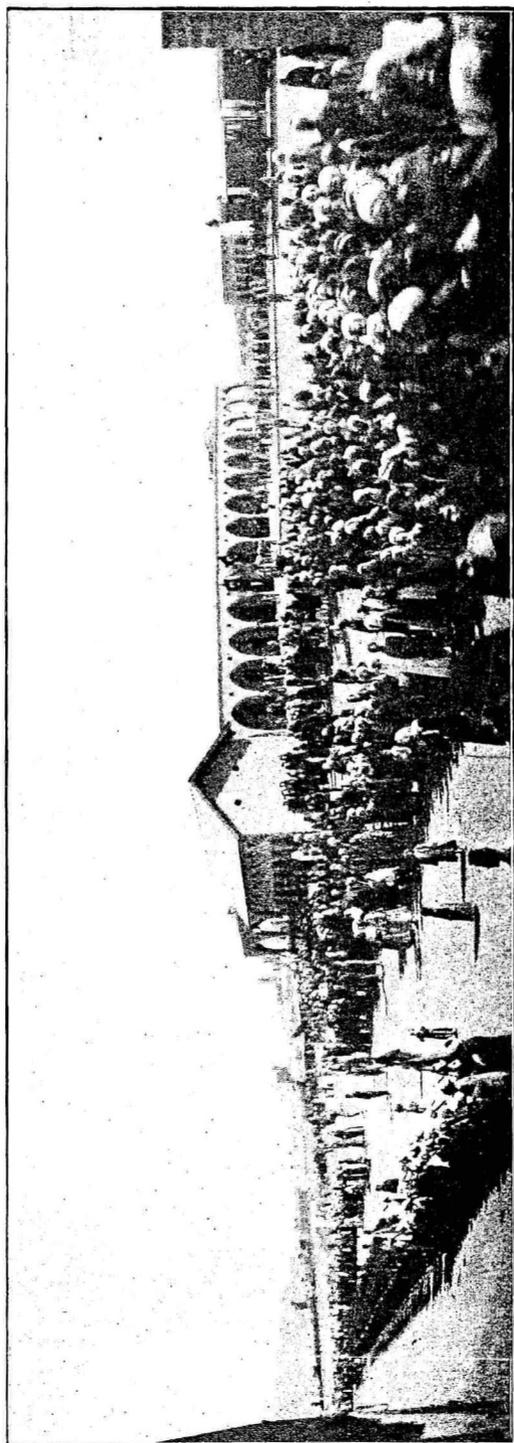
ولقد كان الصيوان الحديوي حافلاً بكبراء القوم ، وكانت رؤساء المعية السنية يقدمون اليهم كل ما فيه راحتهم ، وهنا لك قام الشعراء والخطباء ، هؤلاء يرتلون أي الثناء والدعاء وأولئك يصوغون التهاني ، في اسلاك المثلث والمثاني ، حتى كان يحيل الينا أننا بين وفود العرب على الرشيد ، في يوم عيد. ومما يذكر من آداب القوم أنهم لما فرقت عليهم السيكرات اكبروا اقام على التدخين ، وبعد ساعة انصرفوا شاكرين ، وبكرم الجنب الحديوي متحدئين.



الجنب العالى الحديوى بالمدينة المنورة

بعد ان استراح الجنب العالى من عناء السفر ، امتطى صهوة جواده بعد صلاة العصر ، وقصد الحرم الشريف لأداء واجب الزيارة ، ومعه دولة البرنس وفضيلة الاستاذ المفتى وسعادة محرم باشا وبعض رجال المعية السنية ، فدخل حفظه الله من باب السلام وبعد تأدية الزيارة وضلاة المغرب بالحرم الشريف ، ادى واجب الخدمة بالمقصورة الشريفة ، ثم قصد زيارة دولة الوالدة وكانت اقامتها مدة وجودها بالمدينة في بيت شيخ الحرم الذى هو دار عثمان ابن عفان رضي الله عنه ، ثم عاد حفظه الله الى مقامه في معسكره .

وقد كنت توجهت الى الحرم مع بعض اخواني من المعية السنية ، وكان يبعد عن مخيمنا الذى كان بجوار باب العنبرية بنحو ثلث ساعة سيراً على القدم ، فدخلنا كالعادة من باب السلام ، وصلينا ركعتين في الروضة الشريفة تحية للمسجد ، ثم خرجنا الى الرواق القبلى واتجهنا الى المقصورة الشريفة ، وتمثلنا



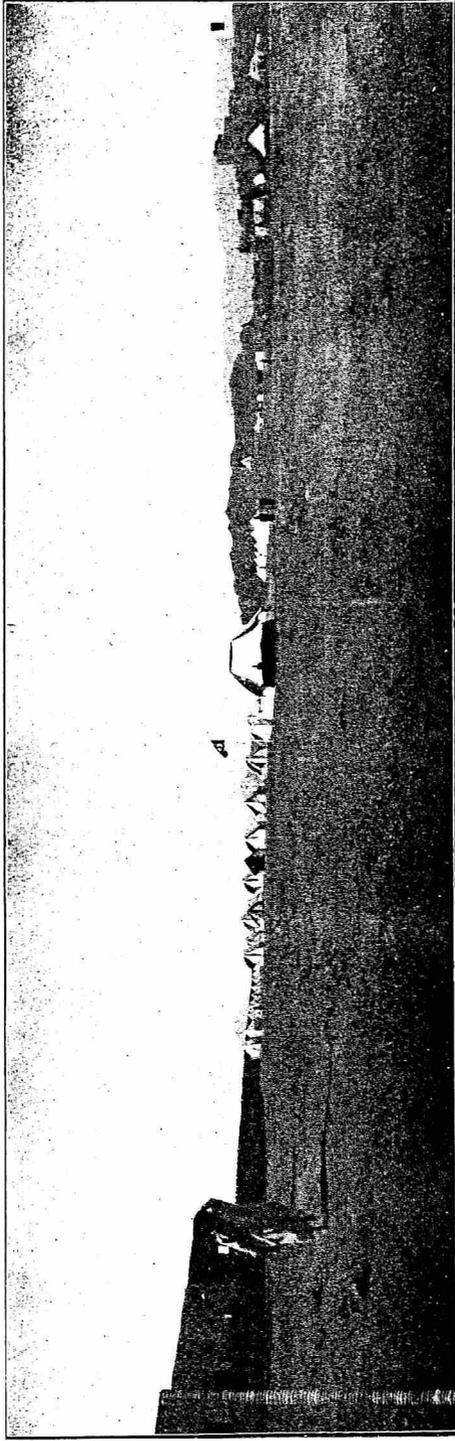
استقبال الجنرال العالى النجدي بحطّات كركميد المدينته المنورة

بمنتهى ما يمكن من الخضوع والاستكانة امام أول باب منها تجاه مسمار من الفضة جعل امام الكوكب الدرّى الذى وضع فيما يحاذى الوجه الشريف . هنا لك وقفت النفس بالمرکز الذى يذبغى لها تلقاء هذا الجلال وهذه العظمة : فكنت ترى الروح بمجموعه ، والقلب بخشوعه ، والطرف بدموعه ، واللسان بخضوعه ، ترفع عبارات السلام ، الى سدة سيد الأنام . وبعد ان دعونا الله بما شاء الله ، انتقلنا الى مقام سيدنا أبي بكر بالشباك الذى يليه ، فسلمنا ودعونا ، ثم انتقلنا الى مقام عمر بجواره ، فسلمنا ودعونا ، ثم أتجھنا الى حائط المقصورة الشرقي ووقفنا بباب فاطمة ، فسلمنا ودعونا ، ولست فى حاجة لان أردد القول بأن جلالة المكين ، ونخامة المكان ، لهما على الانسان ، مهما كان ، تأثير يقف به فى موقف الخاضع الخاشع . وعلى كل حال فالكل يرى نفسه فى موقفه هذا قد وصل الى غايته ، وبلغ منتهى سعادته .

وكان الجناب العالى مدة وجوده بالمدينة المنورة يكثر من الصلاة فى الحرم . ولا اذكر أنه انقطع عنه فى صلاة الفجر والعصر والمغرب والعشاء . وكان حفظه الله يؤدى شرف (١) خدمة اسراج القناديل فى الحجرة الشريفة مساء ، واطفائها صباحا ، طول مدة الاقامة بها . ولقد سعدنا بالدخول فى معيته السنية الى هذه المأمورية الشريفة غير مرة : فكنا اذا صلينا المغرب لبسنا

(١) هذه الخدمة يقوم بها الامراء والعظماء وغيرهم من اعيان المسلمين فى زيارتهم للرسول عليه الصلاة والسلام . ولا تكون الا بتصريح من شيخ الفراشة النبوية الذى يصدر فرمانا لمن يتشرف بالانتظام فى سلك هذه الخدمة . ومن عادة هؤلاء الامراء ان ينيبوا عنهم ، فى أثناء المدة التى يكونون بعيدين فيها عن المدينة ، اناسا من أهلها يقومون بادائها عنهم فى مقابل مرتب يرسلون به اليهم سنويا .

فروجيات بيضاء، وشددنا عليها احزمة، ولفنا على رؤوسنا عمامة على نظام خدمة الحجرة، ثم تشرفنا بالدخول، من باب البتول، وبعد مرورنا على حرم السيدة الزهراء، دخلنا من باب في غربه الى الحجرة الشريفة بقدم متمس، وطرف منخفض، وقلب خافق، وقواد مضطرب، ومثال متأذب، ووجدان متغلب، وروح ينكمش خضوعاً، ونفس تذوب خشوعاً، وحشاشة تصيب دموعاً، وألباب ترفع لاعتاب ذلك الجناب، آيات السلام، بكل اجلال واعظام. وبعد ان أدنا ما يسره الله تعالى من شرف الخدمة. خرجنا من باب في الجهة الشرقية، الى حجرة السيدة فاطمة رضي الله عنها، فقرأنا ما تيسر من القرآن، ثم بارحنا المكان، والجنان واللسان، لا يستطيعان، تصوير ما كان. وغاية ما كنا نشعر به انما هو قوة تجددت في روحنا الذي امتلأ سرورا وحبوراً، وراحة تمددت في وجودنا كنا نرى فيها كل يمن وسعادة. وفي يوم الثلاثاء بعد صلاة النجر في الحرم الشريف، أدى الجناب العالى خدمته بالحجرة الشريفة، ثم قصد زيارة البقيع وهو مقبرة المدينة، فابتدأ بزيارة قبة سيدنا عثمان بن عفان وهي في الشرق، ثم قبة سيدنا الامام مالك وهي في وسطها، ثم قبة سيدنا ابراهيم ابن النبي صلى الله عليهما وسلم، ثم قبة زوجات الرسول عليهن رضوان الله، ثم قبة سيدنا العباس وسيدنا الحسن بن علي في الزاوية القبيلة الغربية بالبقيع، وهي أنخم القباب الموجودة به ومقصورة سيدنا الحسن فيها نخيمة جداً وهي من النحاس المنقوش بالكتابة الفارسية، وأظن أنهما من عمل الشيعة الفارسيين. ثم زار حفظه الله كثيراً من قبور الصحابة والتابعين والصالحين. وبعد الظهر زار التكية المصرية وأثنى على ما مورها لما رآه من



ميمم الجحاب العى الى المدينة المنورة

حسن نظامها، ثم ركب حفظة الله وقصد دار الحكومة العثمانية ليرد الزيارة الى سعادة محافظها فاستقبل بما يليق بمقامه العالي من مظاهر الاجلال والاعظام .
وفي يوم الاربعاء بعد صلاة الفجر واداء الخدمة في الحجرة الشريفة قصد الجناب العالي زيارة مسجد قباء مع بعض رجال معيته السنية ، ثم عاد حفظة الله قبيل الظهر الى المسجد الشريف ، فصلى الظهر فيه ، ثم رجع الى مخيمه وأمضى بقية النهار في استقبال زائريه من رؤساء المدينة وأعيانها .

وفي يوم الخميس أدى الخدمة على حسب عادته ، ثم قصد زيارة سيدنا حمزة ، وكان السيل قد قطع طريقه على زائريه ، ولكن ذلك لم يوقف همّة جنابه العالي عن تنفيذ عزيمته ، فدفع بجواده في الماء الذي كان على ارتفاع نحو متر ، قاصداً عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخطى بزيارته ، ووصل الى بغية ، ولا غرو فعزائم الملوك ملوك العزائم .

وفي يوم الجمعة بعد اداء جنابه السامي خدمته بالحجرة الشريفة صباحاً رجع الى المعسكر الخديوى ، واستمر الى قبيل الظهر في استقبال زائريه . ثم قصد الحرم الشريف لصلاة الجمعة ، وبعدها زار دولة الوادة ، ثم قصد منزله الشريف وأمضى يومه في توزيع الصدقات ، واسداء الاحسانات ، والنظر في ترتيب المرتبات ، لذوى الحاجات ، من أهل المدينة والمجاورين ، مصرين وغير مصرين وكان في أثناء ذلك يصدر أوامره الكريمة بتجهيز حملة ركابه العالي للسفر الى تبوك في اليوم التالى . وبالجملة فقد كان حفظة الله مدة اقامته بالمدينة محط الآمال ومكان الاعظام والاجلال ، من جميع الطبقات وكانت . وسيتى المحافظة الحربية تحضر يومياً نهاراً وليلاً أمام الصيوان الخديوى وتشنف الاسماع بنفاتها الشجية

الحرم الملهدي

الحرم الملهدي وهو مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، واقع في وسط المدينة بميل الى الشرق ، وهو لطيف الشكل ، جميل المنظر ، على هيئة مستطيل .متوسط طوله من الشمال الى الجنوب مائة وستة عشر مترا وربع ، وعرضه من الشرق الى الغرب من جهة القبلة ستة وثمانون مترا وخمسة وثلاثون سنتيمترا ، ومن جهة الباب الشامي ستة وستون مترا . وينقسم في وضعه الى قسمين المسجد والصحن : والمسجد يبتدئ من قبلة عثمان أى من الحائط القبلي الى الصحن من جهة ، وفي طول ما بين باب الرحمة وباب النساء من جهة اخرى . وهذا القسم جميعه مستقوف وفيه المقاصير التي اقيمت على ارتفاع نحو اثني عشر مترا على عمد من الصوان المكسو بطبقة من المرمر الموشى بماء الذهب . والقسم الثاني وهو الصحن ، ويسمونه الحصوة ، شكله مستطيل الى الباب الشامي ويحيط به من جهاته الثلاث ، أروقة ثلاثة فيها أعمدة تحمل قواصير رفعت عليها قباب تناطح السحاب !

وعدد جميع أعمدة الحرم الشريف بما فيها الملتنقة بمحاطئه يبلغ ثمانية وثلاثة وعشرين عامودا . وفي مدخل الباب الشامي المدرسة المجيدة ، وفيها كتابان لتعليم القرآن على الطريقة القديمة في ريف مصر ، لولا أن القرآن لا يحفظ فيها عن ظهر قلب بأجمعه (١) . ويوجد في الدور الثاني كتاب يقال انه يدرس فيه غير القرآن المجيد شئ من الحساب . ولهذا المدخل باب للحرم من الداخل يسمونه باب التوسل ! والى جانبه من جهة الغرب محل للاغوات المحصنين لخدمة الحرم الشريف ، وفيه ميضاتهم وامكنة راحتهم . والى جواره مخزن الزيت المحصن لتنوير الحرم ، ثم باب لمدرسة (على ما

(١) لم يوجد في بلاد العالم الاسلامي من يحفظ القرآن بأجمعه عن ظهر قلب إلا مسلموا مصر أما باقي الجهات الاخرى فيقرءونه في المصاحف . لذلك ترى لفقهاء المصريين في البلاد الأخرى وخصوصاً في الاسنانة مكانة مخصوصة كلها اجلال واحترام .



باب السلام باحرم المذني

أظن) وهذه الابواب الثلاثة فى الرواق الشمالى . وفى وسط الصحن بميل الى الشرق حظيرة صغيرة سورت بدرزين من الحديد ، وفيها بعض نخل صغير نبت حول نخلة عالية ، يقال انه كله أثر نخلة كانت فى هذا المكان للسيدة فاطمة رضى الله عنها . وقبلى هذه الحظيرة بئر ماؤها لذيد اسمها بئر النبي وبعضهم يسميها زمزم المدينة، ومن وراء هذه الحظيرة اقيمت شبكة من خشب الشيش على طول الرواق الشرقى اشارة الى انه مخصص للنساء ، ففيه صلاتهن واقامتهن فى الحرم . وفى جنوب هذا الرواق دكة للاغوات المخصصين لخدمة الحرم الشريف : وهى مصطبة مسطحة نحو ١٢ مترا طولاً فى ٨ متر عرضاً وترتفع عن الارض بمسافة نحو اربعين سانتى مترا ، وكانت فى عهده صلى الله عليه وسلم مكاناً لاهل الصفة (١) وهم قوم من العفاة والمتقاعدين كان يصرف اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ما كان يقوم بجياتهم من غداء وكساء وكان منهم أبو هريرة وأبو ذر الغفارى رضى الله عنهما : وتجاه هذه الدكة من الجنوب دكة اخرى أصغر منها متصلة بالمقصورة الشريفة من جهة الشمال ، وكان يتهجد فى مكانها النبي صلى الله عليه وسلم . ويفصل بين الدكتين طريق الى باب جبريل شرقاً ، وعلى يمين الداخل منه دكة صغيرة يجلس عليها شيخ الحرم ، والى جوارها مخزن للادوات الخاصة بالمقصورة الشريفة التى توجد فى الجهة القبلىة الشرقية من الحرم . والروضة الشريفة فى غرب المقصورة الشريفة : وهى مسافة ما بين القبر الشريف ومنبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه لقوله « ما بين قبرى (٢) ومنبرى روضة من رياض الجنة » ، وهى تبلغ اثنين وعشرين متراً طولاً فى نحو خمسة عشر عرضاً . ويفصل الروضة عن زيادى عمر وعثمان اللتين فى جنوبها ، بدرزين من النحاس الاصفر ارتفاعه نحو متر .

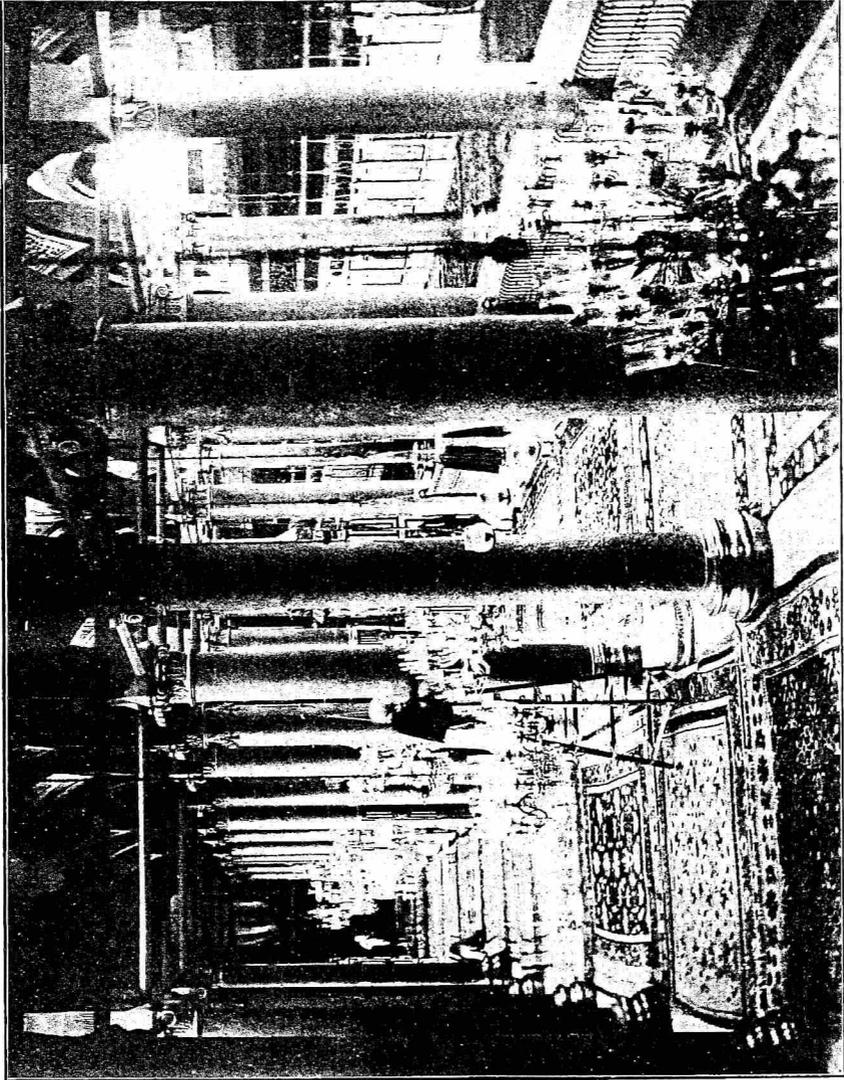
والروضة على الدوام غاصة بالناس لشرف مكانتها . وفيها مما يلي هذا الدرزين

-
- (١) وكان بالمدينة غير الصفة دار تسمى دار القرى أو دار المضيف كانت توجد فى الجنوب الغربى للمسجد وكانت مخصصة أيامه صلى الله عليه وسلم لزول ضيوفه اليها .
- (٢) وفى رواية اخرى : ما بين بيتى ومنبرى الخ .

ربعات قرآنية كثيرة ، وعدد كبير من المصاحف المختلفة الحجم ، منها ما هو بحروف الطبع ، ومنها ما هو بخط اليد الجميل ، والى جانبها نسخ كثيرة من دلائل الخيرات ، وكل ذلك موقوف عليها للقارئ من الزوار . وفي غرب الروضة الشريفة قبلته صلى الله عليه وسلم ، وهي آية من آيات الله في كمال بهجتها ، وجمال صنعها ، وهي على استقامة المقصورة الشريفة من جهة القبلة ، وضعها عليه الصلاة والسلام يوم الثلاثاء الموافق نصف شعبان من السنة الثانية للهجرة عندما أمره الله تعالى بالصلاة الى الكعبة المكرمة . والى غرب القبلة المنبر الشريف (١) ، وهو من الرخام المنقوش بالليقة الذهبية الفاخرة وعلى غاية في الجمال ودقة الصناعة ، ارسل هدية من السلطان مراد الثالث العثماني الى الحرم سنة تسعمائة وثمان وتسعين للهجرة ، فوضع في مكان المنبر الذي كان به لقايتباي ، وهو نفس المكان الذي كان به منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومما ينبغي الاشارة اليه انا صلينا الجمعة في المسجد النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والتحية ، وكان الزحام شديدا ، وبعد أن زار الخطيب المقصورة الشريفة واستأذن للخطبة ، من الخنصرة النبوية ، على حسب عاداتهم حضر لابسا قاروقا يسمونه كودبان (٢) ، تحف به الاغارات من كل جانب ، ثم صعد المنبر ومال الى جهة

(١) وكان صلى الله عليه وسلم يخطب على جذع نخلة ثم عمل له منبر من خشب الازل مركب من ثلاث درجات أو اربع ووضعه في مكان الجذع الذي دُفن في شرق المكان الذي كان فيه حذاء عمود القبلة الغربي . وكان معاوية اضاف درجتين على هذا المنبر فاحرق في حريق المسجد الاول الذي حصل في سنة ٦٥٦ وما بقي منه وضع في صندوق ودفن جوار الجذع ، ووضع مكانه منبر من عمل الملك المظفر صاحب اليمن ، ثم استبدله بغيره الظاهر ببيرس ، ثم غيره الملك المؤيد بأخر احرق في الحريق الثاني سنة ٦٨٦ هـ ، وعمل بدله الملك قايتباي المنبر الذي نقل الى مسجد قبا (ولا يزال به الى الآن) بعد ان استبدلوه بالمنبر الحالي

(٢) وقد رأيت الخطيب في المسجد الاقصى يلبس مثل هذا القاووق في الخطبة وهو من لباس القرن العاشر الهجري في الدولة التركية .



الروضه الشريفه ويا بلينا غرامنا من حرم النبوي

اليمين اعنى الى المقام الاشرف الاقدس النبوي ، وبعد أن سلم بغاية الادب ، حمد الله ، وجعل خطبته كلها مبنية على سرد كثير من الاحاديث الشريفة في موضوع الحج والزياره ، وضرورة توحيد القلوب ، وتقوية الوصلة والرابطة بين أفراد المسلمين . وكان يستند في نصائحه على أحاديث نبوية : فكان يقول مثلاً ورد عن فلان عن فلان عن نبيكم هذا ، ويشير يده الى الحجره الشريفة ، ثم يسرد الحديث ، فكان لخطبته تأثير على القلوب لا يمكن تكيفه ولا توصيفه .

ويوجد بالحرم نحو خمسين خطيباً ، يتولى الواحد منهم خطبة الجمعة مرة واحدة في السنة ، طبقاً لترتيب مخصوص لا يتعدونه .

ولهؤلاء الخطباء وكلاء كثيرون يتناوبون الخطبة عند غياب الخطيب . أما الذين يقومون بحراسه الحجره الشريفة والخدمة فيها فهم الاغاوات ، وأول من رتبهم للخدمة فيها نور الدين الشهيد ، وكانوا اثني عشر ، واشترط أن يكونوا من حملة القرآن الكريم وحفظته ، وجعل عليهم شيخاً منهم . وزادهم يوسف صلاح الدين الايوبي اثني عشر آخرين . ومن ثم أخذت الممك والساطين تزيد في عددهم الى الآن وقد وصل عددهم الى اكثر من مائة شخص ولهم أوقاف مخصوصة ومراتب تأتيهم سنوياً من الاستانة وغيرها ، ولهم دور بالمدينة يسكنون بها . وللحرم غير الاغاوات عدد كثير جدا من الخدمة وأغلبهم من غير مراتب ويعيشون من خيرات ذوى البر والاحسان . والقاعدة في خدمة الحرم الشريف : ان من يموت منهم توزع وظيفته ومرتبته على أولاده جميعاً : فاذا مات الخطيب مثلاً وكان مرتبه مائة قرش تعين بنوه في مركزه ووزع مرتبه عليهم وتولى العمل مكانه اكبرهم وهكذا باقى الخدمة : لذلك ترى مراتب الكل غير كافية بمعاشهم .

والحرم مفروش بأنواع السجاد العجمي الثمين ، وفيه شئ كثير من الابسطه المصنوعة بفوريقه هرکه الشهيرة ، وخصوصاً في الروضة الشريفة . وبالجملة فهو آية من آيات الله في نظافته ، ولطافته ، وحسن بهائه ، وروائه حتى أن الذى يدخله لا يود أن يارحه مطلقاً .

وله خمسة أبواب ، وهي باب السلام ، وباب الرحمة ، في الغرب . والباب المجيدي في الشمال ، وباب النساء ، وباب جبريل ، (أو باب البقيع) ، في الشرق . وتقتل هذه الابواب كلها بعد صلاة العشاء الى قبيل الفجر ، وهو سنة من عهد عمر رضي الله عنه . ويوجد بجوار باب الرحمة وباب السلام من الخارج حنفيات للوضوء من عمل السلطان عبد المجيد كما توجد امكنة للحاجة على بعد منها

أصل الحرم المدني وعمارته والزيادة فيه

الحرم الشريف يحتوي الآن على مسجده صلى الله عليه وسلم ، وعلى بيت عائشة التي دخل عليها فيه في الشهر السابع للحجرة ، وعلى حجرات زوجته رضي الله عنهن ، مع الزيادة التي زيدت فيه . وكان يحيط بمسجده الشريف في مدته صلى الله عليه وسلم مساكن زوجته ، وأصحابه رضي الله عنهم ، فكانت مساكن أزواجه في الجهة الجنوبية وفي بعض الشرقية من الحرم ، وكان يفصل بينه وبينها طريق عرضه خمسة أذرع . وكانت دار أبي أيوب الانصاري ، ودار عثمان بن عفان رضي الله عنهما ، في جهة الشرق ، ولا تزالان موجودتان الى الآن ، وان كانت صورتها قد اختلفت عما كانت عليه في صدر الاسلام . وفي زاوية دار عثمان المقابلة للحرم الشريف حجرة فيها شباك عليه لوحة من الخارج مكتوب فيها «مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه» ويسكن شيخ الحرم عادة في هذه الدار .

وكانت منازل (١) آل عمر رضي الله عنهم الى جنوب المسجد الشريف ، وبجوارها من الغرب دار العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم دار مروان ابن الحكم وكانت على يمين الداخل من باب السلام ، وكان في غرب المسجد دار أبي بكر رضي الله عنه ، والى جوارها شمالا مما يلي باب الرحمة دار عبد الرحمن بن

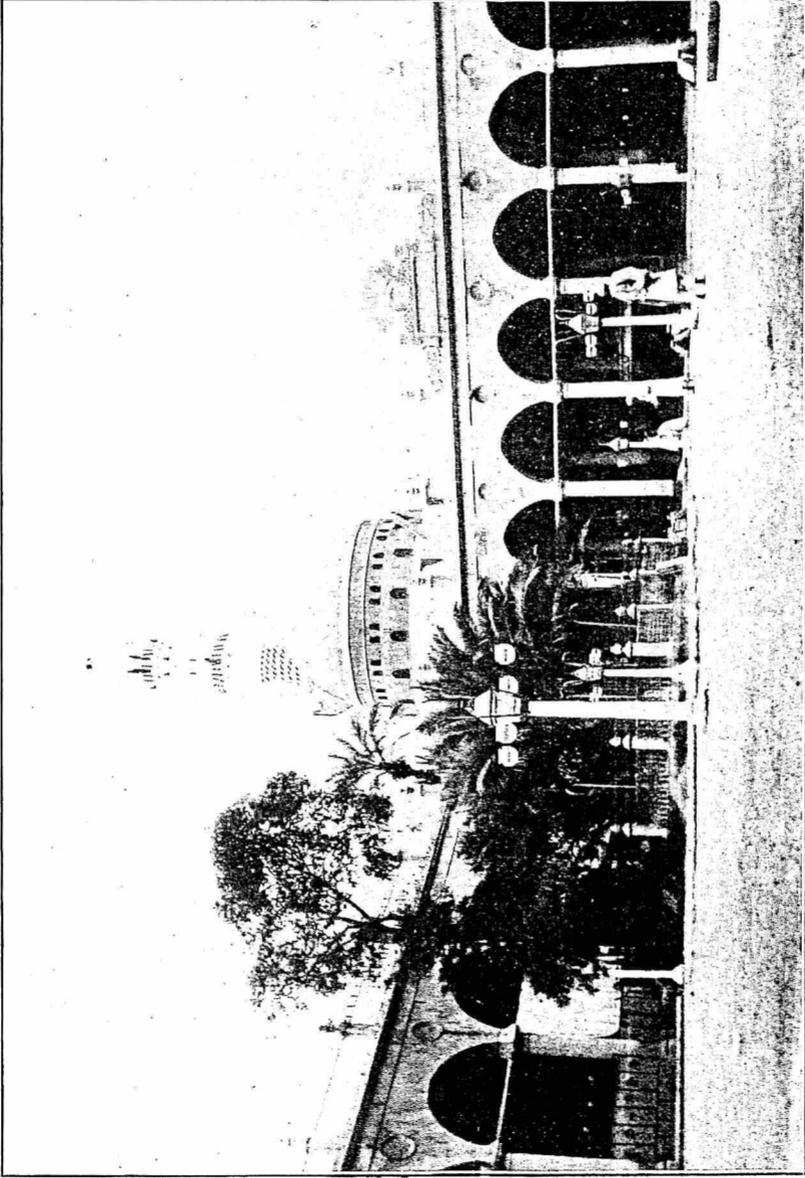
(١) ويوجد إلى الآن بستان ملاصق للحرم في اتجاه الحجرة الشريفة من جهة القبلة جعل حرماً له وبه باب في خارجه مكتوب عليه « ديار آل عمر » .

عوف . وهذه الدور كانت لما فتحت على المسجد ، فقال صلى الله عليه وسلم « لا يبقين في المسجد خرقة الا خوخة ابي بكر » فسدت جميعها الا خوخته رضى الله عنه : ولا يزال في جدار المسجد شمال باب السلام باب صغير (لحزن تجاه المقصورة الشريفة) يمثل هذه الخوخة ، وموضوع عليه لوحة كبيرة مكتوب فيها الحديث المذكور بخط غاية في الجمال . وأول من جدد في عمارة المسجد النبوي عمر رضى الله عنه ، فبنى حوائطه وغير بعض أساطينه ووسع فيه قليلا . أما عثمان فتد زاد فيه الى قبلته الجنوبية ، و بناه بالحصى والحجارة . وفي سنة ثمان وثمانين أرسل الوليد بن عبد الملك لعامله على المدينة عمر بن عبد العزيز ، فزاد في المسجد شرقاً وغرباً وجنوباً ، وادخل فيه حجرات أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وبنى له أربع مآذن ، وفرش أرضه بالرخام ، ووشى حوائطه بالفسيفساء (الموازيك) ، وكسا سقفه بالذهب ، وجعل أساطينه من المرمر . ثم زاد فيه المهدي العباسي سنة مائة وستين ، وقام بعمارته أحسن قيام ، ثم عمره الخليفة المستعصم ثم الظاهر بيبرس . وفي سنة ست مائة وثمان وسبعين أقام الناصر قلاوون قبة الحجر الشريفة ، ولم يكن لها قبة قبل ذلك . ثم عمره الاشرف برسباى سنة ثمان مائة واحد و ثلاثين ، ثم الظاهر برقوق سنة ثمان مائة وثلاث وخمسين . وفي سنة ست وثمانين وثمان مائة انقضت صاعقة على المسجد فأحرقته جميعه بحال مريعة لم ير الرأى ون مثلبا ، ولم يمكن أهل المدينة أن يقوموا في وجه النار التي لم تكن تبقى على شئ في طريقها ، الا انها لم تمس الحجر الشريفة بشئ بالمره !! وبمجرد ما بلغ هذا الخبر السلطان قايتباى ملك مصر ، أمر في الحال بأن ينقل الى المدينة جميع عماله الذين كانوا يشتغلون في الحرم المسكى ، وما زالوا يشتغلون مهمة فائقة في الحرم المدنى حتى أموه على أحسن هندام ، على هذا القوام الحالي ، وبنوا الحجر الشريفة على الفخامة والجمال اللذين تراهما عليها الى الآن ، وأقاموا على القبة الشريفة قبة اخرى أعلى منها ، وبنوا في الجهة الغربية من الحرم على شمال الداخل من باب السلام مدرسة عظيمة وأوقف عليها قايتباى الاوقاف الكثيرة وتسمى بمدرسة قايتباى الى الآن . وقد رأيت له باباً كان ارسل من مصر أثناء هذه العمارة ووضع على باب السلام ، واما وسع هذا المدخل في عمارة

السلطان عبد المجيد نقلوه الى الباب المجيدى : وهو من الخشب الثمين المغطى بالقطع النحاسية المنقوشة أو المكتوبة ، بل هو من الفخر ما يرى الناظرون من الصناعة المصرية القديمة التى قبرت من عهد بعيد !! وفى سنة ٩٨٠ عمده السلطان سليم الثانى ، وبني فيه بين المنبر الشريف ومدرسة قايتباي قبة جميلة وشاها بالفسيفاء المنقوشة بماء الذهب وكتب اسمه على ظهرها بالخط الثالث الجليل ، يشاهده السالك من باب السلام الى الحجرة الشريفة . وفى سنة ١٢٣٣ بنى السلطان محمود القبة الشريفة ، ثم أمر بترميمها ودهانها باللون الاخضر فى سنة ١٢٥٥ ، ومن ثم سميت بالقبة الخضراء . وفى سنة ١٢٧٠ أمر السلطان عبد المجيد خان رحمه الله بعمارة والزيادة فيه الى الشمال ، فكان ذلك وتمت عمارته على ما هي عليه الآن ، وشاه بالثقوش والزخارف التى تفوق حد الوصف ، وكتب على جداره مبتدئا من باب السلام الى الشرق ، سورة الفتح بالخط الثالث المجرف ، وفى السطر الذى تحته سورة أخرى بخط ارفع منه ولكنه اكثر تعليقا ، ومن تحته سطر آخر اصغر من الذى فوقه فيه اسماء النبي صلى الله عليه وسلم ، وقصيدة البردة مكتوبة فى محيط قباب المسجد ، وفى الزوايا التى ترتكز عليها هذه القباب اسماء الله ورسوله وآله وبعض صحابته . وكل ذلك مكتوب بخط غاية فى جماله وحسن تنسيقه ، وكال وضعه : وحسبك انه أثر ذلك الخطاط الشهير المرحوم عبد الله بك زهدى الذى اوفده السلطان عبد المجيد الى المدينة لهذه الغاية ومكث فيها بضع عشر سنين يعمل فى بيت رسول الله بما آتاه الله من احكام فى صناعته ونبوغ فى مهنته . وليس هناك أثر (١)

(١) رأيت عند صديقي الفاضل الشيخ مصطفى الحريرى الخطاط الشهير بمصر لوجه مأخوذة بالفوطوغراف من خط المرحوم عبد الله بك زهدى على باب فى الحرم المدنى فيها هذه الابيات

مفتاح باب الله طه المرئى	بجر المكارم ملجأ الطلاب
سلطاننا عبد العزيز لجابه	ليفوز بالآمال والآراب
وغدا لسان مقاله متمشلا	اذ كان خادم هذه الاعتاب
ان الوسائل للملوك بابهم	ووسيلتي العظمى بهذا الباب



منظر الحرم النبوي من داخل الصحن والكعبة الشريفة
وبستان الشيمية فالتمتة رضة الدعسها

يذكر لمن بعده من الملوك سوى ما ادخل اليه من اسلاك النور (١) الكهربائي في زمن السلطان عبد الحميد ، وابتدأت الانارة به في الحرم الشريف رسمياً في يوم الإحتفال بافتتاح السكة الحديدية الحجازية بالمدينة المنورة في ٢٥ شعبان سنة ١٣٢٦
والمقصورة الشريفة من نحاس أصفر غاية في حسن الصناعة ، عملت في مدة العماره التي قام بها قايتباي في سنة ٨٨٨ ، ولها باب على الروضة الشريفة يسمى باب الرحمة أو باب الوفود ، والى جانبه من جهة الجنوب شباك يفتح عليها يسميه الحجاج شباك التوبة ، وهو الذي يذكرونه في قسمهم «وحياة النبي الذي وضعت يدي علي شباكك» ، ولها أيضاً منفذ الى جهة القبلة في المواجهة الشريفة ويفتح عند الامور الهامة للدعاء والاستغاثة .

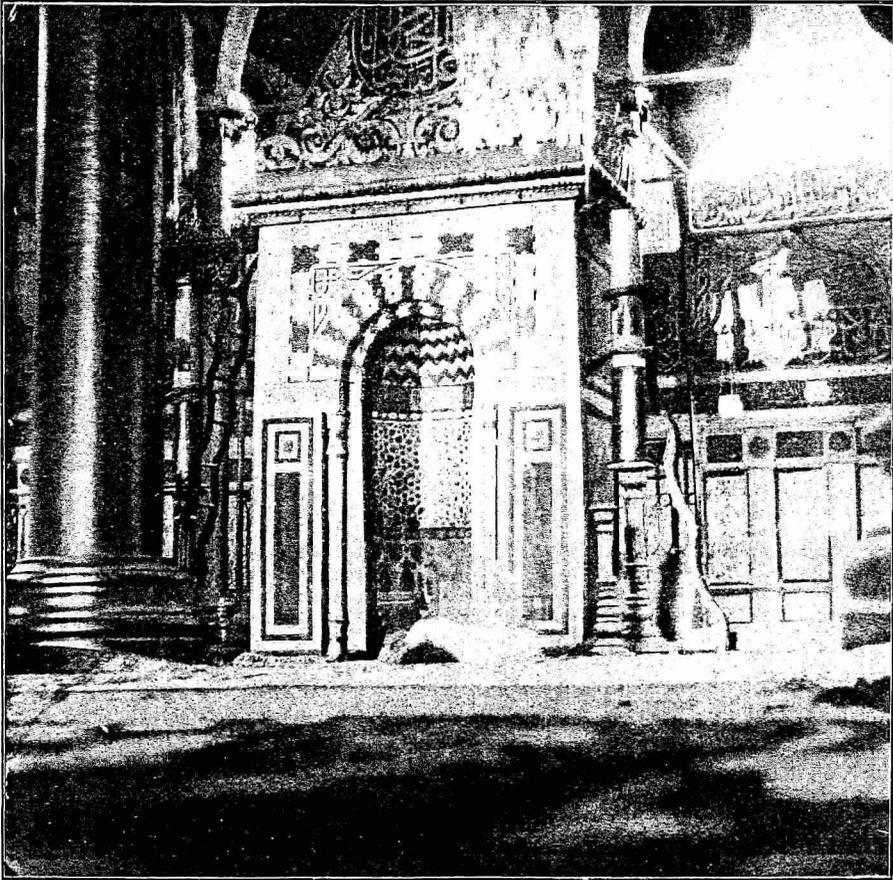
ويتصل بهذه المقصورة من جهة الشمال مقصورة السيدة فاطمة ، وهي على استقامتها من الغرب ، وتدخل عنها بمسافة متر ونصف من الشرق .
وطول المقصورة النبوية الشريفة من ضلعها الجنوبي والشمالى ١٦ متراً ، ومن الشرقى والغربى ١٥ متراً . وفي زواياها الأربعة اعمدة مزوية عظيمة ، بنيت من الحجر الصلد على ارتفاع السقف ، وعيها ترتكز قواعد القبة الشريفة . أما مقصورة السيدة فاطمة الزهراء فطولها من الجنوب ١٤ متراً ونصف ، ومن الشمال ١٤ متراً فقط ، ومن الشرق والغرب نحو سبعة امتار ونصف . وهي تتصل بالمقصورة الكبرى من الداخل بيايين ، احدهما الى الشرق والآخر الى الغرب ، قد اقيم فيما بينهما ضريح على المكان الذي دفنت (٢) فيه السيدة فاطمة على قول الكثيرين . وفي داخل المقصورة الكبرى الحجرة

(١) ومدة زيارتنا للمدينة كان الحرم الشريف منارا بالزيت والشموع على عادته لان المهندس الكهربائي المخصص لمباشرة الآلة التي تنير الحرم كان اصيب منها بما افقده الحياة فاوقف عملها الي ان يستحضر لها مهندس آخر من الاستانة !!

(٢) وكانت وفاتها بعد وفاة أبيها صلى الله عليه وسلم نحو شهرين ويقول بعضهم انها دفنت بقبتها المعروفة الى الآن باسمها في الزاوية الغربية القبليّة من البقيع .

الشريفة ، وهي المكان الذي توفي به رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم الاثنين ١٢ ربيع أول سنة ١١ للهجرة ودفن فيه عليه الصلاة والسلام في اليوم التالي : لقوله صلى الله عليه وسلم « ما قبض نبي الا دفن حيث قبض » ، ورأسه عليه الصلاة والسلام الى الغرب . ولما توفي ابو بكر في ٢٢ جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة دفن الى جانبه من جهة الشمال ، ورأسه الى قدمي الرسول عليه الصلاة والسلام . ولما طعن عمر رضي الله عنه استأذن من عائشة ان يدفن مع صاحبه ، فأذنت له ، فلما مات يوم الاربعاء ٢٧ الحجة سنة ١٣ للهجرة دفن الى جوارها ، ورأسه محاذية لمنكبي أبي بكر رضي الله عنهما . وقد اقيمت على هذه القبور الثلاثة مقصورة من البناء على شكل ذى خمسة اضلاع ارتفاعه اكثر من ستة أمتار . وأول من ابنتى هذه المقصورة عمر بن عبد العزيز في عمارته للمسجد ونزل بأساسها الى غور بعيد ، وجعلها على الشكل المزور المتقدم حتى لا تكون مثل الكعبة في تريعها خوفا من أن يتخذها الناس قبلة لهم . وكانت الحجرة الشريفة تسع قبرا رابعا ويزعمون أنه مكان قبر عيسى عليه السلام بعد نزوله من السماء في آخر الزمان ??? وقد قيل فيه لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة لو أتيت المدينة وأقمت بها فإن مت دفنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه رضي الله عنهما . فقال والله لان يعذبني الله عزّ وجلّ بكل عذاب الا النار أحب الى من أن يعلم أنى أرى نفسى لذلك أهلا ! فانظر الى درجة ادب الرجل وتنسكه مع ما كان فيه من سعة الملك الذى حلق على أطراف المعمورة بأجمعها رضي الله عنه .

وفي سنة ٥٥٧ بلغ نور الدين زنكي أن الصليبيين الذين كان مشتغلا بمحاربتهم كانوا يعملون لسرقة الجثة الشريفة ، فأمر باحاطة بناء الحجرة الشريفة بينا آخر ، نزل بأساسه الى منابع الماء ، ثم صب الرصاص على دائره حتى صار بحيث لا يمكن أن تتناوله يد الزمان . وقد وضع على هذا البناء ستار من الحرير الاخضر مكتوب فيه « لا اله الا الله محمد رسول الله » يحيط بها أحجبة مكتوب فيها قوله تعالى « ما كان محمد أبأ أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » وفيما بين ذلك دوائر مكتوب فيها أسماء النبي صلى الله عليه وسلم . ويحيط بهذا الستار (على ارتفاع مترين



القبلة النبوية بالروضتين الشريفتين

ونصف تقريباً) حزام من الحرير الأحمر عرضه نحو ثلاثين سنتيمترا مكتوب فيه بقصب الذهب اسم السلطان الذي أمر بعمل الستر الشريف . وهذه الكسوة ترسل من الدولة العلية عند تولية كل ملك من ملوكها ، والكسوة الحالية وصلت الى الحجرة الشريفة بعد اعلان الدستور . وأول من كسا الحجرة الشريفة الخيزران أم هرون الرشيد ، عند ما قدمت في حجها لزيارة النبي عليه الصلاة والسلام . وصارت من بعدها سنة الملوك والسلاطين . وبين المقصورة المبنية والشبكة النحاسية الخارجة طرقة متوسط سعتها نحو ثلاثة أمتار من جهاتها الشرقية والغربية والقبليّة ، وفي زاوية هذه الطرقة من الجنوب كرسي موضوع عليه مصحف شريف كبير ، أهدها الى الحجرة الشريفة المصباح بن يوسف الثقفي ، ويقولون أنه من المصاحف الستة التي كتبها عثمان بن عفان .

وسمى هذه الطرقة مملوءة بثريات من الذهب والفضة ، وخصوصاً في الجهة الجنوبية فيما يقابل الوجه الشريف فان فيها كثيراً من المشاكي الذهبية منها احدى وثلاثون مرصعة بالماس والزمرد والياقوت ، ومعلقة بسلاسل النضار ، ومجموع مصابيح الحجرة الشريفة مائة مصباح وستة .

وفي مقابلة الوجه الشريف على جدار المقصورة حجر كبير من الماس البرلاتي ، يحيط به تركيبة من الذهب المرصع . وهذا الحجر في حجم بيضة الحمام الصغيرة ويقدرون ثمنه في ذاته بثمانمائة الف جنيه أما في شرف نسبه الى الحجرة الشريفة فقيمته أكبر من أن تقدر بثمن : ويسمون هذا الحجر بالكوكب الدرّي لشدة تألقه وعظيم سنانه وبهائه . وهذا الكوكب أهدها للحجرة الشريفة السلطان احمد خان الأول ابن السلطان محمد خان من سلاطين آل عثمان في مبادئ القرن الحادي عشر الهجري . وقد علق تحته كف من الذهب المرصع بالجوهر وفي وسطه حجر من الماس أصغر من الكوكب الدرّي ، أهدها اليها السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد الاول في سنة الف وسبع وأربعين للهجرة . وهناك لوح كبير من الذهب منقوش فيه بخط جميل جداً بمحجارة الماس البرلتي « لا اله الا الله محمد رسول الله » ، أهدها اليها صاحبة السمو والعصمة عادلة سلطان بنت السلطان محمود سنة الف ومائتين واحدي وتسعين هجرية .

وفي هذه الحجرة الشريفة غير هذا ، كثير من الجواهر الفاخرة التي لا تقدر بثمن : منها قطعة كبيرة جدا على مثال الكردان مكتوب فيها بالماس اسم السيدة «فاطمة الزهراء» وهي موضوعة على مقصورتها الداخلية في الجانب الشرقي ، والى جوارها عقد من اللؤلؤ الكبير الحجم ، لا يماثله شيء في عظمه وجوهه . ويوجد فيها شمعدانات من الذهب الخالص المرصع بالجواهر الكريمة ، منها اثنان كبيران طول الواحد منهما نحو مترين ، أهداها اليها السلطان عبدالمجيد خان في سنة الف ومائتين وأربع وسبعين . وشمعدانان اخرين أهداها السلطان محمود . والى جانب هذه الشمعدانات مكانس من اللؤلؤ ، ومرآح مرصعة بالاحجار الكريمة ، وهذا عدا ما يوجد في خزائن الحجرة الشريفة من المصاحف المرصعة والتحف الفاخرة . وبالجملة فقد قدروا ثمن ما للحجرة الشريفة من الذخائر بسبعة ملايين من الجنيهات .

ولقد كانت الملوك والكبراء والعظماء يهدون لها في كل الازمان كثيرا من الجواهر الفاخرة ، والذخائر الثمينة وكثيرا ما كانت تتناول اليها يد الاشرار من ولاية المدينة مثل جاز بن هبة الذي نهب في سنة ثمانمائة واحد عشر من ذخائر الحرم المدني ما قدره السهودي بعشرين قنطارا من الذهب والفضة . وتبعه في ذلك الشريف حسن بن زبير المنصوري سنة ٩٠١ هـ . فأخذ منها شيئا كثيرا . وفي مبدأ القرن الثالث عشر الهجري كانت الحجرة الشريفة عامرة بما لا يحصى من الذخائر الثمينة ، فنهبا الوهابي سنة الف وثلثمائة واحد عشرين ، وباع بعضها الى الشريف غالب بمبلغ خمسين الف ريال . وبعد تتميم الصلح بين ابن سعود وطوسون باشا اشترى منه هذا الاخير بعض ما نهبه أبوه من آثارها الذهبية بمبلغ الف جنية مصرى وردھا للحجرة الشريفة .

— بحث فيما كان عليه بيته صلى الله عليه وسلم بالمدينة —

من ينظر الى المتصورة الشريفة الحالية ويعلم أنها اقيمت على مكان بيت النبي صلى الله عليه وسلم (المشهور بيت عائشة) ، ويفكر في أبوابها ، وتسمية كل باب باسم



باب الرحمة بالحرم المديني

مخصوص ، ويضيف الى ذلك أن بيت السيدة فاطمة كان بجانب بيته صلى الله عليه وسلم ، وأنه كان فيه شباك يطل على بيت أبيها ، وكان صلى الله عليه وسلم يستطلع أمرها منه حتى سده محبة في استقلال كل بيت عن الآخر ، بحكم معي بأن وضع بيته صلى الله عليه وسلم مدة وجوده كان على نحو الشكل الآتي .

والذي ساعدني على هذا الوضع ما ورد عن مالك رضى الله عنه « قسم بيت عائشة باثنين ، قسم كان فيه القبر ، وقسم كانت تكون فيه عائشة وبينهما حائط ، وكانت عائشة ربما دخلت حيث القبر فضلا (يعنى سافرة) ، فلما دفن عمر رضى الله عنه لم تدخله الا وهي جامعة (١) عليها ثيابها .»

ومن ذلك تعلم أن بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان به حجرتان . أما بابه فقد قال بعضهم انه للشام ، وقال آخرون انه للغرب ، ولكن يستتج من رواية ابن سعد ان له باين حيث قال: «لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا (أى الصحابة) كيف نصلي عليه ؟ قالوا ادخلوا من ذا الباب ارسالا ارسالا فصلوا عليه واخرجوا من الباب الآخر» . ومما ورد أيضا ان بيت السيدة عائشة كان به صفة الى منزل فاطمة ويؤيد وجود فتحة في منزل عائشة الى القبلة قول ابن ذبالة: « كان بين بيت حفصة ومنزل عائشة الذى فيه القبر الشريف طريق وكانتا تماديان الكلام وهما في منزلهما من قرب ما بينهما » . وحنفة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم و بنت عمر بن الخطاب وكان بينهما كما لا يخفى على يمين خوخة آل عمر ، أى في جنوب بيت عائشة الى الشرق . واني لم أجسر على هذا الوضع الا بعد تدقيق شديد في أقوال الصحابة والتابعين الذين كانوا يتحرون كل موافقه عليه الصلاة والسلام ، وخصوصاً في بيته الذى هو أشرف بقعة على سطح الارض باجماع المسلمين . وعلى كل حال فهذا استنتاج لي وأورده عليك وأنت حر في تحسينه أو توهينه ، ولو بدون دليل تقيمه عليه .

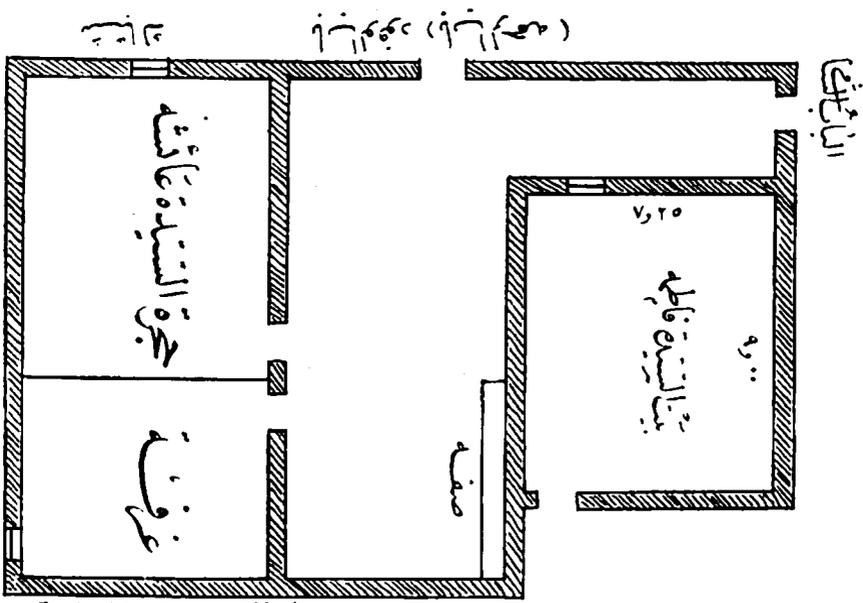
وعليه فيكون بيت السيد الرسول مدة حياته في المدينة على الرسم (الموضوع في

(١) انظر حفظك الله ورعائك الى هذا الادب العالي والحياء العالي الذى بلغ بكمال

القوم رضوان الله عليهم في المحافظة على الحجاب حتى على الاموات وحتى مع عمر !

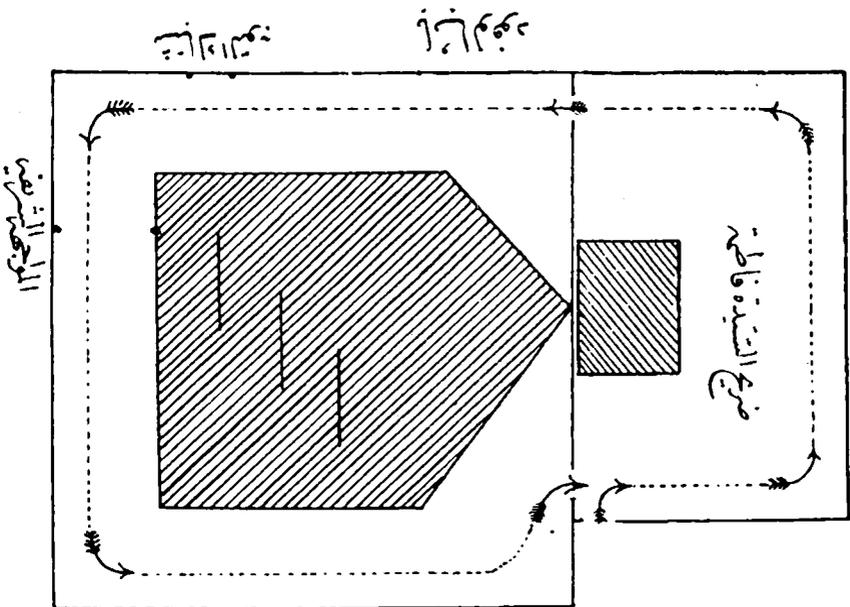
جنوب المقصورة الشريفة) وهو أكثر بساطة من مسكنه في مكة . وكان من دونه كما سبق منازل أزواجه رضى الله عنهن : وكان محيطها مع منزل عائشة مبنياً باللبن ، وقواطعها الداخلة من الجريد المكسوة بالطين والمسوح الصوفية . ومن ذلك يمكنك أن تحكم على مقدار بساطته صلى الله عليه وسلم في مسكنه . بحيث أنه ما كان يتعدى في أى حال من الأحوال الضروريّ لحياته ، وحياة أزواجه . وقد ورد عن عطاء الخراساني قال : « ادركت حجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فحضرت كتاب الوليد يقرأ يأمر بإدخالها في المسجد ، فأريت يوماً كان أكثر باكياً من ذلك اليوم ، فسمعت سعيد ابن المسيب يقول : والله لوددت أنهم تركوها على حالها ، ينشأ ناس من المدينة ويقدم قادم من الآفاق فترى ما اكتفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته ، ويكون ذلك مما يزهّد الناس في التكاثر والتفاخر فيها . »

ومع هذا فانك اذا أنعمت النظر في هيئة المكان على بساطته ، وفكرت في وضعه الصحي ، وكيف كانت منافذه منقية للهواء ، وأبوابه داعية الى السهولة في الدخول والخروج وخفة الحركة مع وفرة الزمن والسرعة الى المقاصد ، مما شرع فيه الآن في العمارات الكالية ، عرفت ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من القناعة ، والزهد ، وحسن الذوق . ومن يتأمل في ذلك يرّ فيه خير درس للناس يتعلمون منه كمال وضع الامور في مواضعها ، من غير زيادة عن الضروري ولا نقص عن الحاجي ، وهناك يرى الغنى في ماله فضلة يساعد بها الفقراء من عيال الله : فتبادل عاطفة الخنو والشفقة فيما بينهم ، وتثبت قدم المحبة في أفئدتهم ، فيصبح الكل بين محب ومحبوب وشاكر ومشكور ، وحامد ومحمود ، وهناك نزول عوامل الحسد وتموت شياطين التنافر والبغضاء ، ويحد الكل على العمل ، بل ويعمل الكل للكل ، ويكون الناس على اختلاف طبائعهم وعوائدهم كأعضاء جسم واحد تعمل كلها لحياته ووجوده ، واذن يكونون قد قاموا بالأمورية التي وجدوا من أجلها وهي خدمة الانسانية .



شمال

رسم وضيء يقري النبي لمرز النبي (ص) بالمدينة



رسم للمقصود الشريفه الحاليه التي بها قبره عليه الصلاة والسلام والى جواره قبر النبي رتم قبر عرضي الله عنهما .

المدينة المنورة

المدينة المنورة ، أو مدينة الرسول ، واسمها طيبة ، كانت تسمى قبل الهجرة يثرب ، وترتفع عن سطح البحر بنحو ٦١٩ متراً ، وهي واقعة على طول ٣٩ درجة و ٥٥ دقيقة شرقاً ، وعلى عرض ٤٤ درجة و ١٥ دقيقة من شمال خط الاستواء ، (أعنى على عرض خط دراو التي توجد فيما بين اسنا واسوان) ودرجة حرارتها في الصيف تصعد الى ٤٨ درجة سنجراد ، وتنزل في الشتاء الى عشر درجات فوق الصفر نهاراً ، والى خمسة تحت الصفر ليلاً ، وكثيراً ما يرى فيها الماء متجمداً في آينته عند الصباح في زمن الشتاء ، وإذا صح ما ذهب اليه بعضهم من ان كلمة يثرب محرفة عن الكلمة المصرية (إتريس) كان لنا ان نفكر في ان الذين بنوها انما هم العالقة بعد خروجهم من مصر ، ولنا في يهوديتهم ما يؤيد قول من ذهب الى ان موسى في طريقه الى فلسطين ، أرسل فرقة من قومه لتكتشف له تلك الجهة ، فساروا اليها ، وبلغهم موته ، فبنوا مدينة اتريس وأقاموا فيها . وعليه فعمران المدينة يتبدى من سنة الف وثمانية قبل المسيح أو الفين ومائتين واثنين وعشرين قبل الهجرة : وعلى ذلك يمكنني ان اقول ان لفظ طيبة ان كان مستعملاً اسماً لها من قبل الاسلام فلا بد أن يكون مصرياً أيضاً .

والمدينة مبنية في وسط واد شاسع ، واغلب مبانيها من الحجر المجلوب اليها من المحاجر القريبة منها . وشكل الابنية فيها هو بعينه ما رأيناه بمكة وجدة ، لولا أن منازلها اصغر ، وشوارعها اضيق ، وخصوصاً ما كان منها حول الحرم الشريف وكان يجب ان يكون حوله ميدان متسع يساعد على تنقية جو المدينة من جهة ، وعلى سهولة الوصول الى الحرم من جهة اخرى . واحسن شارع في المدينة غرب الحرم ويسمونه بحارة الساحة وهي اطول حاراتها ، وفيها احسن مبانيها ، وبها مكان المحافظة في قلعة على السور الداخلي . وما ينبغي ذكره اني رأيت بهذه الحارة منزلاً (للسيد هاشم) مشغولاً بأعمال الأوبئة بما استوفقتى أمامه باهتاً لجمال صنفته ودقتها ، وهي من صناعة جاوة : وبكل

اسف اقول ان هذه الصناعة البديمة قد انقطعت عن المدينة بالمرّة . وفي هذه الحارة زقاق يدخل منه الى مقام سيدنا عبد الله والد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان قد أتى الى المدينة قبل الاسلام لعمل له قنات فيها ، ودفن بها عند اخواله من بني النجار في بيت رجل منهم يقال له النابغة . وهذه الحارة تسمى الابواء ، او زقاق الطوال ، وفيها منازل آل أسعد .

وأغلب حارات المدينة يسمونها لضيقها أزقة : منها في شمال الحرم ، زقاق البقر ، وزقاق الخياطين ، زقاق الحبس ، وزقاق عنقيني ، وزقاق السماهيدي ، وزقاق البدر ، وزقاق الاغاوات ، وزقاق ياهو ، وزقاق الكبريت ، وزقاق القماشين ، وزقاق حيدر ، وزقاق الحجامين ، وزقاق مالك (ابن انس) الخ

وعلى كل حال فخارات المدينة نظيفة وضيقة يساعد كثيرا على تلطيف الحرارة فيها زمن الصيف كما هو الشأن في اغلب بلاد الشرق . وسوق المدينة يتبدى من الباب المصرى الى الحرم الشريف في شارع ضيق ، يقطعه على المارة تقابل جملين فيه مع بعضها ، والحركة فيه تكاد تنحصر في مدة الحج ، والموسم الرجبي : وهو موسم الزيارة الرسمية في بلاد العرب . وتجارة المدينة مدارها على وارداتها الخارجية ، لاسيما واردات جاوه والهند والشام ، وعلى الخصوص في الأقمشة القطنية والصوفية والحريرية والسبح والليف الأبيض والحناء والبسط والسجاجيد والخنايل المعجمة (الاكلة) والهندية والمغربية والاناضولية ، واثمانها اغلى منها في مكة بل وفي مصر ، وأما ابتاع الحجاج لها على سبيل البركة وسهولة الصرف في هذه الجهات . وتجارة البلح فيها هي اكبر التجارات واوسعها لان ضواحيها فيها كثير من المزارع والبساتين وفيها نخيل كثير تنتج نحو سبعين صنفاً من التمر واحسنها البلح العنبري ثم الجلبى ثم السكرى وهو اكثرها حلاوة ثم بلح السبح ويكثر نخله في جهة الخيف بين المدينة والحراء وكيفية تجهيزه : هي ان ينظم في خيط ثم يلقي به في الماء المغلي زمناً ما ثم يجفف في الشمس . ولقد اشترينا منها شيئاً من دكاكين اقيمت خارج الباب المصرى بالمناخة ، وكان البائع يروج تجارته باحاديث يسردها ، وينسبها الى النبي صلى الله عليه وسلم ، في مدح بعض انواع البلح

المتقدمة . فعجبت من ان القوم لا يستحون من الكذب على الرسول حتى وهم بين يديه الشريفتين ، وقلت له يا هذا انا نشترى منك بلحاً لا أحاديث وأريته أن مصيبة المسلمين أساسها الجرأة في القول على الله ورسوله !! فاعتذر الرجل بجهالة قائلنا انه أخذ هذا عن غيره من الباعة السابقين أو بعض المتمشيين .

وكانت المدينة في القرن الأول للهجرة في غاية الرقي الأدبي والمادي . وكانت بسايتها تملأ الفضاء المحيط بها وعلى الخصوص من الشمال والشرق والجنوب . وكان للقوم بها رياض زاهرة ، وقصور باهرة ، في وادي العقيق الذي كان يغزر ماؤه ويهر رواؤه، وتزهو ارجاؤه ، ويكثر زهره ، ويفوح عطره ، ويجني ثمره . وكان أغلبها لازواج رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن اماكنه المشهورة الزغابة ، واضم ، والغابة ، وحصير والحليقة ، والجثجانية ، وكلها كانت لعبد الله بن الزبير وبنه . وحمراء الاشير وكان بها قصور لغير واحد من القرشيين ، وخاخ وكانت للعلوين وفيها يقول الأحموس :

لها منزل بروضة خاخ ومصيف بالقصر قصر قباء

وتبه الشريد ، والغراء ، والمرس ، والبيداء ، وكان في جميعها منازل الاشراف من قريش وخصوصاً على سفح جبل عبر على يمين المقل من مكة . وكان في الجهة الاخرى مكان اسمه الجماء ، وتجاها في ضيق حرة الوبرة ، على أربع أميال من المدينة الى ضفيرة ، أرض عمرو بن الزبير وبها قصره المشهور بقصر العقيق ، وبثه المشهورة باسمه وفيها يقول الشاعر :

كفنونى ان مت في درع أروى واستقوا لي من بئر عمرو ماء
وكان يوجد أسفل هذا القصر ، تجاه الجماء ، مكان يقال له العرصة وبه كان قصر سعيد بن العاص الذي يقول فيه أبو قطيفة :

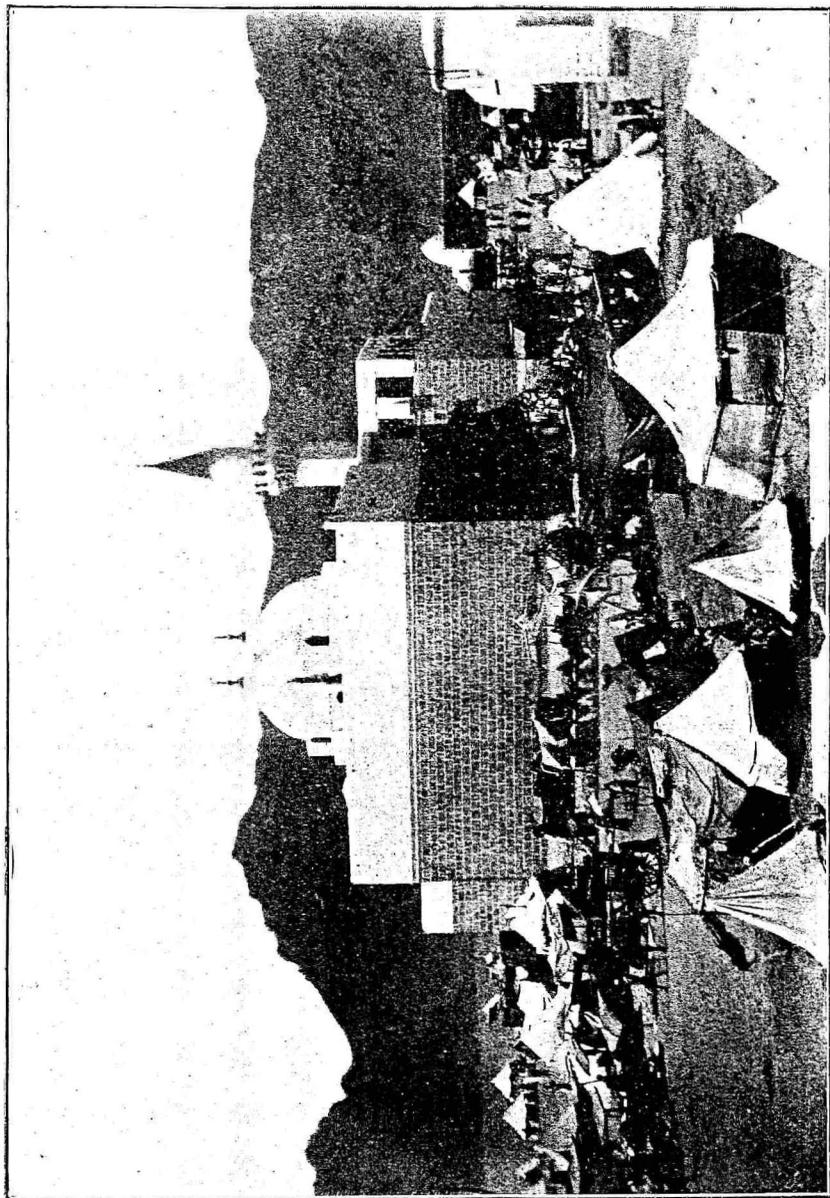
القصر ذو النخل فالجماء بينها أشهى الى القلب من أبواب جيرون

ويقال ان آثار هذا القصر موجودة الى الآن . وكان سعيد عاملاً لمعاوية على المدينة . وكان هذا القصر في أيامه آية في جماله وفخامته ، بل كان آية من آيات القرن الاول الهجري ، واعجوبة من أعاجيبه ، حتى فضله الشاعر عن أبواب جيرون (دمشق)

التي كانت في ذلك العهد عاصمة الخلافة، ومكان فخامتها وامتيازها . وهي الى اليوم آية من آيات الله في جمالها وبهاؤها: لأن القادم عليها من الجنوب يخترق الغوطة وما أدراك ماهيه جنة زاوية واذا قدما من الغرب يخترق المريج وهو نزهة الزائرين وبهجة الناظرين . وكانت أبنية المدينة الى أول القرن الثامن الهجري محصورة داخل سورها الذي بناه عليها في منتصف القرن السادس الامير جمال الدين وزير صاحب الموصل ، وزاد فيه نور الدين بن زنكي سنة خمسمائة وثمان وخمسين أثناء عمارته للحجيرة الشريفة وهذا السور باق للآن ، وهو في طريق باب العنبرية ، وعلى محيطه المزاغل والابراج المشحونة بالمدافع والذخائر الحربية لصد هجمات الاعراب الذين كثيرا ما كانوا ولا يزالون يعتدون على حرم رسول الله . وقد كانت عمارة هذا السور موضع اهتمام سلاطين الحرمين، وخصوصاً سلاطين آل عثمان ، لاسيما في مدة السلطان محمود والسلطان عبد المجيد. وأما سورها الخارجي فليس بذى أهمية تذكر ، وهو مهدم في كثير من جهاته وفيما بين السورين ، يعنى فيما بين الباب المصري وباب العنبرية ، فسحة كبيرة يقال لها المناخة : لان أغلب الحجاج ينيخون جالهم فيها ، ويقضون بها مدة الزيارة ، وفيها مقام ركب الحمل المصرى مدة وجوده بالمدينة . وحول المناخة ، من جهتها الخارجية ، ابنية كثيرة أحسنها ما كان على الشارع العمومى وهو شارع محطة السكة الحديدية ، ويسمى الآن بالشارع الرشادي ، وفيه التكية المصرية ، ولها مرتبات من مصر ، وتعمل بها الشورية يومياً للفقراء على النظام الذى تقدم في تكية مكة ، ثم قشلاق المسافر الشاهانية وهما من بناء المرحوم ابراهيم باشا جد العائلة الحديوية .

وفي المدينة وضواحيها مزارات كثيرة أشهرها مسجد قبا ، ويبعد عن المدينة بمسافة خمسة كيلو مترات ، وهو أول مسجد بني في الاسلام ، بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجنوب الغربى للمدينة عند دخوله اليها في هجرته ، وقد جدد بناؤه السلطان عبد الحميد الاول ، وبوسط صحنه قبة اقيمت على مبرك ناقته صلى الله عليه وسلم . ومسجد سيدنا حمزة ويوجد في شمال المدينة في وادى (١) أحد ، ويقرب منه قبة السن

(١) وهذا الوادى مشهور بالواقعة التي حصلت بين المسلمين والمشركين في ١٥



سید سیدنا حمزہ و حوالہ زوار المدینہ

ثم البقيع وله عند المسلمين مكانة عظيمة ويقال له بقيع الفرد ، لانه كان يكثر فيه هذا النوع من الشجر ، وبه دفن نحو عشرة آلاف من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم اجمعين ، وكثير من آل بيت النبوة صلوات الله عليهم ، منهم سيدنا علي زين العابدين بن سيدنا الحسين ، وولده محمد الباقر وولده جعفر الصادق ، والاخيران في قبة سيدنا العباس . وكان بالبقيع قباب كثيرة هدمها الوهابيون . ثم مسجد الزاوية . ومسجد الفتح . ومسجد القبلتين . ومسجد السقيا . ومسجد الغمامة . (بالمناخة) ومسجد علي (في طريق قبا) . ومسجد المائدة . (امام البقيع من جهة الشرق) . ومسجد الاحزاب (وراء جبل سلع الذي هو على يسار الخارج من الباب الشامي) .

وأهل المدينة يشربون من آبار كثيرة : ولكن ماؤها الذي عليه مدار سقياها يأتي إليها من مواسير من عين غربي مسجد قبا . وهذه العين تسمى العين الزرقاء ، نسبة الى مروان بن الحكم الذي اجراها بأمر معاوية رضي الله عنه وقت ان كان عاملاً له على المدينة ، (وكان يسمى الازرق لزرقة عينيه) . وماؤها عذب لذيد ، وهي موضع عناية كل الملوك والسلاطين الى هذا الزمان ، وقد تفرع منها فروع كثيرة في جهات

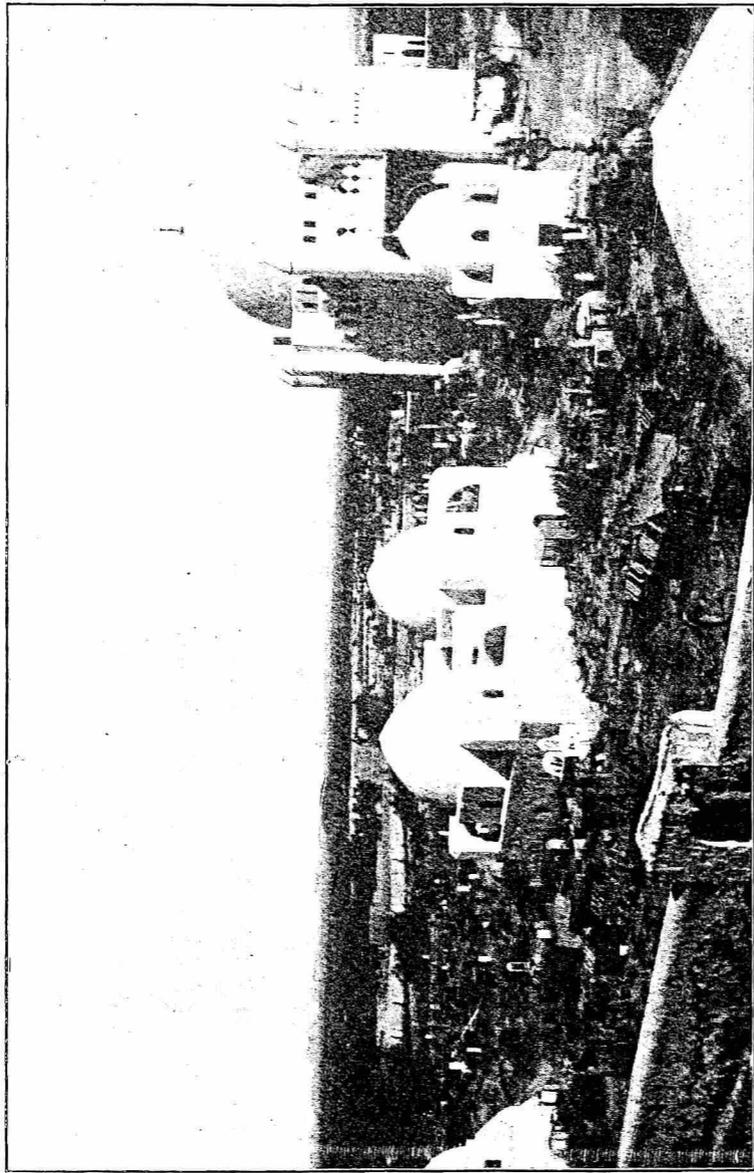
شوال سنة ٣ للهجرة ، وابلى فيها المسلمون بلاء حسناً ، واستشهد فيها سيدنا حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم وكسرت فيها رابعته صلى الله عليه وسلم اليمنى وشج وجهه وكنت شفته السفلى ودخلت حلقتان من مغفره في وجنته : وعن عائشة رضي الله عنها ان أبا عبيدة بن الجراح نزع احدى الحلقتين من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت ثنيته ، ثم نزع الاخرى فسقطت ثنيته الثانية ، فكان ساقط الثنيتين . وقد كان أهل المدينة نقلوا بعد انتهاء هذه الواقعة بمض قتلاهم لدفنهم فيها ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم منعهم قائلاً « ادفنوهم حيث صرعوا » وعليه فقد دفن حمزة في مصرعه الذي عليه الى الآن قبة يقال لها قبة المصرع ، شرق مسجده الحالي الذي نقلت جنته اليه فيما بعد لما عثب السيل بقبره الاول . ومن حوله قبور الشهداء الذين قتلوا في هاته الواقعة وعددهم ثيف وسبعون . وفي نهاية الوادي الى الشمال جبل احد وهو جبل صخري من الجرايات ، وهو وان كان من السلسلة الجبلية التي تخرق بلاد العرب الا أنه يكاد يكون منفصلاً عنها وطوله من الشرق الى الغرب نحو ستة كيلو مترات .

المدينة ، ولها خزانات تنزل عن سطح الارض بنحو عشرة أمتار يملاً منها السقائون ، وينزل اليها بسلام من حجر . وهناك عيون أخرى اتصلت بها لتزيد في مائها : مثل عين النبي صلى الله عليه وسلم التي في جهة قبا .
وفي المدينة حمامان تركيان احدهما داخل المدينة وهو من عمل السلطان سليمان القانوني ، والثاني بالمناخه .

وفيهما كتبخانات كثيرة احسنها كتبخانة شيخ الاسلام عارف حكمت ، وهي قرية من باب جبريل الى جهة القبلة ، وهذه الكتبخانة آية في نظافة مكانها وحسن تنسيقها وترتيب كتبها ، وارضها مفروشة بالسجاد العجمي الفاخر ، وفي وسط حوشها نافورة من الرخام ، فيها حنفيات للوضوء ، وفيها كتب ثمينة جدا . ولقد رأينا بها شيئاً من غرائب الصناعة النادرة في بابها : وهو كتاب أشعار فارسية مكتوب بالخط الايض الجميل للأشاهي ، وبيننا نحن نهجب من جودة الخط واتقان الصناعة ونظافتها وحسن تنسيق حروفها على صفرها ودقتها ، لفت نظرنا حضرة مدير الكتبخانة الى ان حروف الكتابة انما هي ملصوقة على الورق . فتأملناها فوجدنا شيئاً يبهت الطرف لرؤيته ويمجز اللسان عن نفعه ، خصوصا عندما اخبرنا انهم كانوا يكتبون هذه الكتابة ، ثم يفصلونها عن ورقها بظفرهم ، ثم يلصقونها على ورقة أخرى !!!

وفي باب السلام كتبخانة للسلطان محمود ، وهي وان كانت اصغر من كتبخانة عارف واقل منها نظاما الا انها جميلة ومرتبة . وفيها أيضاً كتبخانة بشيراغا ، في زقاق الحياطين . وقد بلغني ان هناك كتبخانات أخرى منها واحدة في رباط عثمان حافلة بنفائس كتب مذهب مالك . ولو جمعت كل هذه الكتب في دار واحدة وعمل لها نظام مخصوص لكان ذلك انفع والفائدة منه اكبر .

وفي المدينة جريدة اسمها (المدينة المنورة) تصدر باللغة التركية والعربية على مطبعة البالوزه كلما كان هناك داع لصدورها ، ومديرها حضرة الفاضل الشيخ محمد مأمون ، وكانت تصدر مدة وجود الجناب العالي بها ، شارحة حركاته اليومية ، وناشرة كل ما كان يقدم لذاته السنه من المدائح نظماً أو نثراً ، ومن ضمن ما رأيت فيها قصيدة لحضرة



الشيخ ووجبات المدينة المنورة وفي قبة سيدنا عثمان على اليسار وعلى يسارها قبة الامام مالك
مرفوعة وجات النبي صلى الله عليه وسلم ثم قبر سيدنا ابراهيم بن النبي ثم القبة الكبرى وفيها قبر
سيدنا العباس وسيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما جميعا

مديرها تهنئة للجناب العالي بقدمه وفي تاريخها (جوالمدينة للعباس قدسطما سنة ١٣٢٧) ونيس في المدينة من المدارس ما يستحق الذكر ، والذي يدرس في الحرم شيء بسيط من الفقه والتفسير . وفيها بعض رباطات لسكنى الفقراء والمساكين وعليها أوقاف ضعيفة جدا لا تقوم بحياة من يلجأ اليها ، وللمدينة المنورة حرم مثل حرم مكة يبلغ قطر دائرته نحو اثنين كيلو متر ولا يجوز لاحد الصيد فيه اجلالا له وتعظيما .

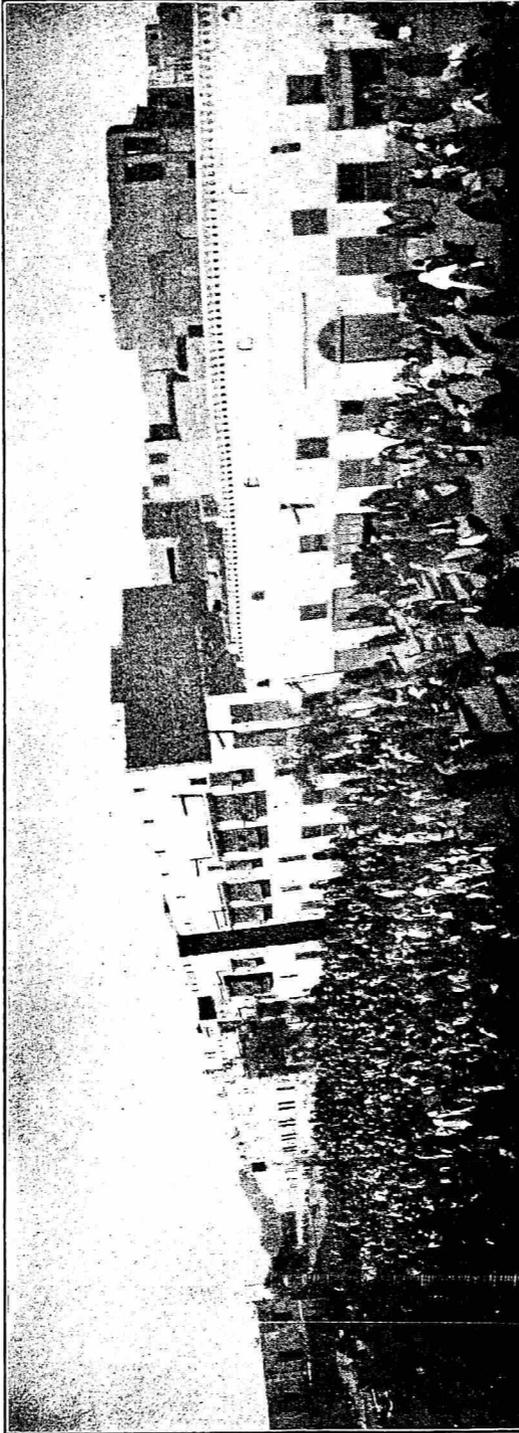
واهل المدينة يبلغ عددهم ستين ألفا منهم كثير من المهاجرين الاجانب ، واكثرهم من الهنود والأتراك . وأغلبهم يعيش من وراء خدمة الحرم وخصوصاً في الموسم ومنهم كثير من المزورين وهؤلاء في المدينة يؤدون وظيفة المطوفين في مكة ومنهم من يعيش من التجارة البسيطة ، وأهل المدينة يعبرون عن الجهات : بالشام للشمال ، والبحرى للغرب (لانه الى جهة البحر) ، والشرقي للشرق ، والقبلي للجنوب (لانه جهة القبلة) . ومنهم أخذ المصريون هذه التسمية واستعملوها في غير محلها في اطلاق القبلي على الجنوب ، لأن القبلي عندهم إنما هو الشرقي الجنوبي كما لا يخفى .

ومناخ المدينة صحي جدا وربما كان ذلك من الاسباب التي ساعدت على رقة أهلها ولطافة مزجتهم التي اذا اضفت اليها ما هم عليه غالبا من الصلاح والورع والادب وحسن المعاشرة ، حكمت لهم بانهم أحسن أهل بلاد العرب على الاطلاق في مكارم الاخلاق . وليس ذلك بعجيب فعجائزهم للسيد الرسول اكتبهم كثيرا من اخلاقه الكاملة ، على أن من يفكر في أن الرسول عليه الصلاة والسلام إنما اختصم بالهجرة الى بلدهم يحكم حكما قطعيا بأن مكارم الاخلاق فيهم من زمن بعيد ، وقد زادها الاسلام جمالا على جمالها وكالا على كالمها . وحسبك ان السيد الرسول « بعدان أدى مأموريته من اظهار الدعوة ونشر راية الدين الاسلامي وتقوية دعائه بحال لا يدخل معها الوهن الى أي جانب من جوانبه » اظهر في حجة الوداع أنه لا يريد الموت الا بين ظهراني الانصار ، الذين نرى اليوم احفادهم على سنتهم رضي الله عنهم أجمعين .

— فائدة تاريخية —

الانصار وهم الأوس والخزرج بطنان من الازد ، وكانت ديارهم مأرب باليمن ، فهاجروا مع من رحل عنها بعد سيل العرم في القرن الثاني عشر قبل الاسلام ، ومروا على يثرب : وكانت قرية فيها اسواق يقصدها اهل الجهات المجاورة ، واهلها كانوا يهودا ، وكانوا من بني النضير ، وقريظة ، و بني قينقاع وغيرهم ، وكان لهم بها حصون يلجئون اليها عند الشدة . فتنزل عليهم الأوس والخزرج على ان يكونوا تحت حكمهم ، وما زالوا كذلك حتى كان ما كان من سوء سيرة الفيطون أحد ملوك اليهود يثرب وظلمه وغشمه . فاستغاث الاوس والخزرج بملوك غسان ، فساروا لنصرتهم ، وأوقعوا يهود يثرب . ومن ثم صار الحكم فيها للأوس والخزرج ، وشاركوا اليهود في املاكهم ، واصبحت لهم عصبية عظيمة . ولهم حروب مشهورة لها أيام معدودة من أيام الجاهلية : منها يوم سمير ، ويوم كعب ، ويوم الربيع ، ويوم البقيع .

وكانت الاوس والخزرج اصحاب نجدة وهمة وشجاعة وأمانة ، وقد كان أتى مكة بعض منهم للحج في مبدأ ظهور الدعوة الاسلامية ، فقا بلهم النبي صلى الله عليه وسلم عند العقبة ، ودعاهم للاسلام ، وقرأ عليهم شيئاً من القرآن ، فاجابوه وقالوا له ان بين قومنا شرا وعسى الله ان يجمعهم بك ، فان اجتمعوا عليك فلا رجل اعز منك . فلما قدموا المدينة ذكروا لهم النبي صلى الله عليه وسلم ، ودعوهم الى الاسلام حتى فشا فيهم . وفي العام التالي وافي الموسم من الأوس والخزرج اثنا عشر رجلا ، فلقوا النبي صلى الله عليه وسلم بالعقبة الاولى ، فبايعوه البيعة الاولى ، وكان من ضمنهم رافع بن عجلان وعبادة بن الصامت ، وانصرفوا الى المدينة . وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم مصعب بن عمير ، وامره ان يقرئهم القرآن ، ويعلمهم قواعد الاسلام ، فوصل المدينة واجتمع عليهم رجال ممن اسلموا ، وسمع به سعد بن معاذ واسيد بن حضير وهما سيدا بني الاشهل ، فذهب اسيد للايقاع به ، فقال له مصعب أو تجلس فتسمع ؟ فإن رضيت أمرا قيلته ، وان كرهته كف عنك ما تكرهه . فقال أنصفت ثم جلس . فكلمه



الكتب المدرسي وبنود أهل المدينة في غزوة من الحج

مصعب في الاسلام وقرأ له شيئاً من القرآن . فقال ما أحسن هذا ! واسلم ، وانصرف واحتال على سعد حتى أخذه الى مصعب . فقال له مقالته الى أسيد ، وقرأ عليه قرآنا فاسلم سعد ، وباسلامهما أسلم القوم الا عدداً قليلا اسلم بعد الهجرة . وعندها اتفق جماعة منهم على المسير الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فساروا الى مكة واجتمعوا عليه ليلاً بالمقبة دون ان يعلم بهم أحد ، وعاهدوه على ان ينصروه : فسيامهم الانصار . وهنا لك أمر النبي صلى الله عليه وسلم اصحابه بالهجرة الى المدينة ، وكان أول من قدمها مهاجراً أبو سلمة بن عبد الاسد . وفي شهر ربيع الاول من هذه السنة هاجر الرسول الى المدينة ، وقدمها لاثنتي عشرة ليلة خلت منه ، ومعه أبو بكر رضي الله عنه ، وقدم بهما دليلهما على قباء ، فنزل صلى الله عليه وسلم على كثوم بن الهدم ، وأقام بينهم ثلاثة أيام ، بنى فيها مسجدهم ، ودعا الناس فيه لصلاة يوم الجمعة ، وهي أول جمعة في الاسلام ، وخطب فيهم عليه الصلاة والسلام . ثم سار الى المدينة ، فلما وصل الى مكان مسجده وكان مربداً لبني النجار ، قال ثامنوني به . فقالوا لا نبغى به الا ما عند الله . فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يبنى مسجداً ، واقام هو في دار أبي (١) أيوب الانصارى حتى بنى مسجده وبيته (بيت عائشة) . وكان يبنى فيه يده الشريفة هو والمهاجرون والانصار .

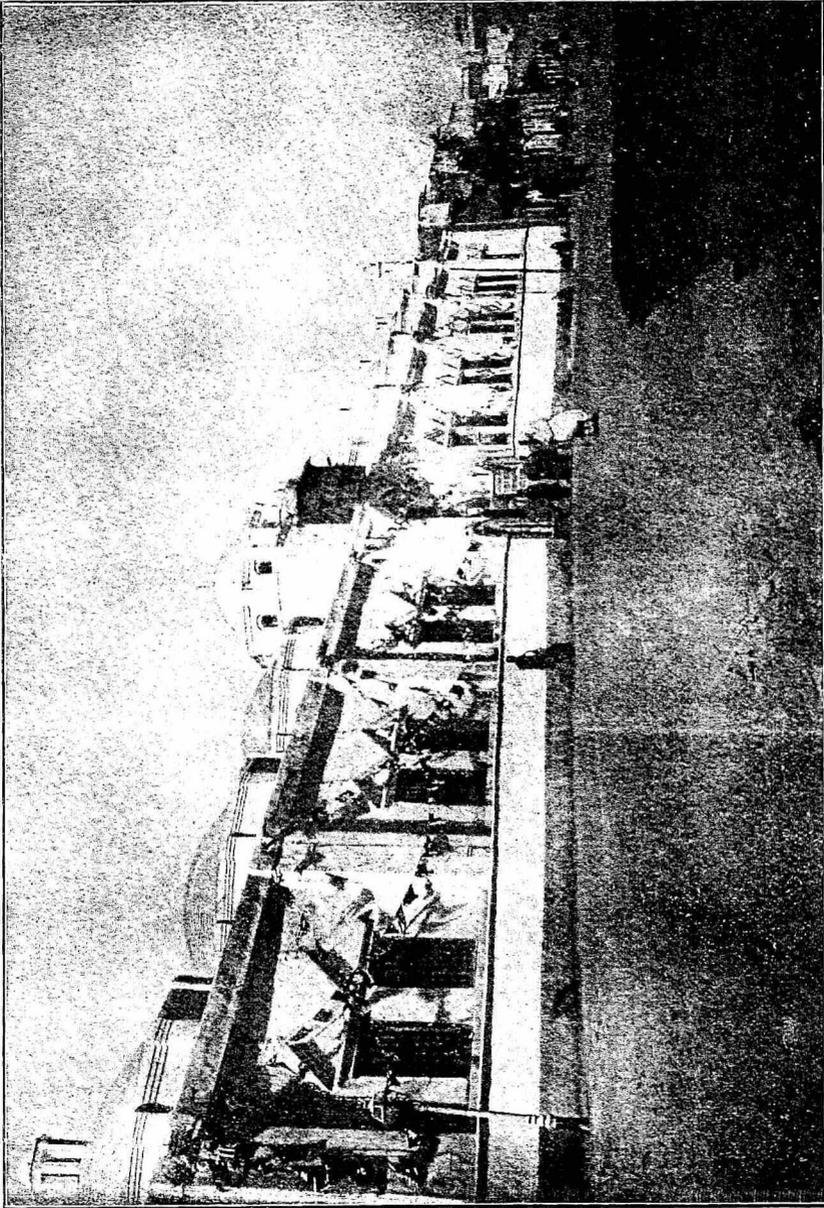
ومكث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بين الانصار احدى عشرة سنة ، كان فيها لهم وللهاجرين كلية كالية علمية وعملية : تعلموا فيها الاخلاق الفاضلة ، والمزايا العالية ، والسيرة الحميدة ، والتربية القويمية ، والبلاغة في الاقوال ، والمبالغة في محاسن الاعمال . فبعد صيتهم في جلائل الصفات ، ومكارم الاخلاق ، والشجاعة ، والقوة ، والمنعة ، وشدة البأس ، التي ظهروا بها في جميع المواقع التي أمرهم رسول الله بها ، أو

(١) أبو أيوب الأنصاري مات في حصار القسطنطينية سنة ٦٨٨ مسيحية أي في نحو السنة السابعة والاربعين للهجرة وكان سار إليها مع الجيش الذي سيره معاوية لفتحها ، وله فيها مسجد شهير في نهاية خليج قرن الذهب وهو محترم جداً لدى المسلمين والنصارى واليهود على السواء في عموم الاستانة . وأهلها يسمونه السلطان أيوب .

شدها هو معهم : وأهها بدر الكبرى فى السنة الثانية للهجرة ، وأحد فى السنة الثالثة ، والخذق فى الخامسة ، وخير فى السابعة ، وفتح مكة وغزوة حنين فى الثامنة ، وغزوة تبوك فى التاسعة ، وفى السنة العاشرة اكمل الله له دینه ، وظهره على الناس كلهم : وبذلك تمت دعوته صلى الله عليه وسلم ، وحج حجة الوداع ، وفيها سجل دعوته على المؤمنين . ورجع الى المدينة حيث مرض عليه الصلاة والسلام فى أواخر صفر ، وتوفى نصف نهار يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الاول سنة احدى عشرة للهجرة . ودفن فى بيته حيث هو الآن بمسجده الشريف . صلوات الله عليه وسلامه .

سفر الحجيج من المدينة الى مصر

الطريق من المدينة يتقسم بالنسبة للحاج الى اربعة طرق ، طريق نجد ولا يسلكه الاّ الى مصر سنة ١٢٧٧ هجرية حينما قصد زيارة قبر المصطفى عليه الصلاة والسلام . ومحطات هذا الطريق هي المدينة المنورة ، ثم آبار عثمان . (وفيها ماء ومزارع وبساتين) ، ثم محطة الضمى (وماؤها قليل) ، ثم محطة المليح (وماؤها حلوى) ، ثم محطة الشجوى (وماؤها كثير) وكانت مجتمع ومفترق المحملين الشامى والمصرى فى سفرهما معا ، ثم محطة ابي الحلوى (خلاوة مأمها) ، ثم محطة الفقارات (ولا ماء فيها) ، ثم محطة الفقير (وماؤها عذب) ، ثم محطة مطر (ولا ماء فيها) ، ثم محطة الخوثل (وماؤها عذب) ، ثم محطة ام حرز (ولا ماء فيها) ، ثم قرية الوجه ومنها كانوا يسرون الى السويس برا أو بحرا . والطريق الى ينبع هو الطريق الاكثر استعمالا ومنه يرجع سواد الحجيج المصرى والروسى والمغربى ، والسودانى ، والبنى ، والجاوى ، والهندى ، وغيرهم . وهذا الطريق يتقسم الى شعبتين شعبة قبيل الحمراء تمر على ينبع النخل ومنها الى ينبع البحر وعربان هذا الطريق من جينه ، وارضه رملية ناعمة . والشعبة الاخرى بعد الحمراء تمر على نقب الغار (نقب على) وهو ممر صعب بين جبلين شاهقين فى طريقه كثير من



التكية المصرية بالمدينة المنورة

الاحجار الضخمة ومنه الى ينبع البحر . وهذا الطريق للحوازم والاحامدة ومتوسط المسافة بين المدينة المنورة وينبع ٢٣٠ كيلومترا فاذا اضفنا اليها ٤٥٠ ما بين المدينة ومكة و ٤٠٠ من مكة الى عرفة ذهابا وايابا و ٨٠٠ من جدة الى مكة ، يكون مجموعها ثمانمائة كيلومتر وهي كل ما يركبه الآن الحاج المصرى برا .

فاذا وصل الحاج الى ينبع انتظروا بها المراكب التي تقلهم الى بلادهم وغالبا ينتظرون فيها اياما كثيرة لعدم انتظام حركة تقلهم الناشئ عن قلة المراكب . وهنا لك يكثر عناؤهم ويسوء حالهم وتشتد فاقتهم ، وتفتك فيهم الامراض لكثرة الاقذار التي تحيطهم من فضلاتهم ، وخصوصا من عدم صلاحية مياه الشرب . وقد رتبت الحكومة المصرية لهم كوندانسه في زمن الموسم ترشح لهم ماء البحر ولكن عملها غير منتظم وماؤها لا يصرف الا باذن خصوصى لا يصل اليه فقراء الحجيج . ولا اظن الا ان هذا من تعنت العمال الذين يجدر بحكومتنا السنية ان تشدد عليهم كل التشديد في القيام بواجبهم .

وياحبذا لو انتهت الى ذلك الحكومة العثمانية الجديدة ، واسمعتها شركات السفن وخصوصا الشركة الحديدية ، فانهم يخففون عن الحجاج المساكين كثيرا من عنائهم مما تشكرهم عليه الانسانية .

ومن ينبع يصل حجاج مصر الى الطور لتمضيه ايام الكورتينا (١) ان كان هناك حجر صحي : وهي مكان فسيح على طول ٣٣ درجة و ٣٧ دقيقة وعرض ٢٨ درجة و ١٤ دقيقة وبينه وبين السويس ١٢٥ ميلا ومن هناك تأتى بشائر الحجاج بوصولهم الى مصر بالسلامة على لسان البرق أو البريد وكانت قبلها تصل عن يد بعض الافراد الذين كانوا يحضرون

(١) لفظ كورنتينه أو كارايتينه اصله فرنساوى (Quarantaine) ومعناه الشى الذى يبلغ عدده تقريبا الى اربعين . والافرنج يقولون ان جمهورية فينسيا لما رأت ان الاوبئة كانت تأتى الى أوروبا من طريق الشرق ومن بلاد المغرب بشمال افريقيا اهتمت لهذا الامر ، لان مراكبها هي التي كانت تصل الشرق بالغرب ، وعينت لأول مرة سنة ١٣٤٨ مسيحية ضباطا صحيان كانوا يقومون بتفتيش السفن التي كانت تأتى من الخارج الى نفورها . وفي

من مصر لهذا الخصوص ويعودون من الطور أو الوجه بما يبشر أهل الحجاج بسلامتهم نظير البقاشيش التي كانوا يأخذونها .

والطور قرية صغيرة على شاطئ خليج السويس الشرقى واغلب سكانها من الاقباط والاروام وفي ضواحيها كثير من البدو ويقرب منها عين ماء ساخن عليها بناء لعباس باشا الاول بسمونه حمام موسى و يقولون أنه نافع للأمراض الروماتزمية . وعلى مسافة يومين بالجمال من هذه القرية دير الطور المشهور وفيه بساتين تنتج كثيرا من الفاكة وفي شماله بشرق جبل المناجاة الذي كلم الله عليه موسى وذكره في القرآن الكريم في غير موضع ، ويقصد هذا الدير حجج الروس بعد نزولهم من بيت المقدس فيزورونه ثم يرجعون الى بلادهم . وفي شرق هذه القرية محجر الطور وهو في نقطة صحية جدا وفيه مباحر وافية بالغرض واحذية مرتبة وبنائها نظيف وفيه اسبتاليات على غاية من النظام ولكل مرض قسم مخصوص منها . ولقد اصبح هذا المحجر بعناية الحكومة المصرية أحسن محجر صحي في العالم . ولا شك ان بعض الصعوبات التي يلاقها فيه الحجاج لا بد وأن نزول قريبا بحسن عناية الحكومة واستمرارها على الاهتمام براحة الحجيج .

سنة ١٤٠٣ اقامت أول محجر صحي سمته لازاريت (Lazarette) وجعلته في جزيرة صغيرة (قريبة منها) بالبحر الادرياتيقي اسمها سانت ماري دونازاربه (Sainte Marie de Nazareh) وكانت تحجر فيها على البضايح والاشخاص القادمين على بلادها من الشرق . ومشي على أثرها في القرن الرابع عشر والخامس عشر ثغور البحر الابيض المتوسط العظمى فاقامت جنزوه محجرا صحياً سنة ١٤٦٧ واقامت مرسلها محجرا في سنة ١٥٢٦ . وأول من اتخذ الاحتياطات الصحية ضد الطاعون في بلاده هو الملك رينيه (René) ملك نابولي في سنة ١٤٧٦ . وزادت العناية بها في سنة ١٦٥٦ التي فشا الطاعون فيها ببلاد ايطاليا كلها حتى أنهم كانوا يحرقون الموتى لعدم استطاعتهم دفنهم . ولما ظهر الوباء الاصفر في كاتالونيا (مقاطعة باسبانيا عاصمتها برشلونه) اهتمت أوروبا لهذا الامر وعملت فرنسا قانونا للكورتينات في ٣ مارس سنة ١٨٢٢ وهو اساس النظامت الصحية للمحاجر . وقد ادخل على هذا القانون تعديلات مهمة في ١٧ اغسطس سنة ١٨٤٧ ثم في ١٠ اغسطس سنة ١٨٤٩ ثم في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٥٠

أما الطريق الثالث فهو طريق السكة الحديدية الي الشام وهو الذي افتتحته الدولة العلية رسمياً بأول قطار للمدعوين الي هذا الاحتفال وصل الي المدينة المنورة في ثالث شعبان سنة ١٣٢٦ الموافق ٢٨ اغسطس سنة ١٩٠٨ . وتسافر عليه الآن حجاج الشام والترك والروسيا وكثير من المصريين وخصوصاً برسم الزيارة . ولقد تقرر أخيراً سفر المحمل

هذا ما كان في أوروبا بخصوص الكورنيتين أما بمصر فان محمد علي ذلك المصلح الكبير فكر في ضرورة انشاء مجلس صحي بها وشكل في سنة ١٨٢٠ ميلادية مجلساً كانت اعضاءه من حكماء الجيش وصيدليه . وفي سنة ١٨٢٥ ادخل كلوت بك على هذا المجلس نظامات جمه وسماه مجلس الصحة العمومي . ولما دخلت الكوليرا في مصر سنة ١٨٣١ زادت عناية محمد علي بهذا المجلس وادخل اليه نظامات الكورنيتين بأوروبا خدمة للاورالصحية والتجارية في جميع البلاد الواقعة على البحر الابيض المتوسط، فجمع قناصل الدول وشكل منهم لجنة للنظر في الامور الخاصة بالكورنيتين واسدر بذلك دكريتو في ٨ اكتوبر سنة ١٨٣١ وفي سنة ١٨٣٢ بنى بالاسكندرية أول محجر صحي (Lazarette) في الشاطبي ولا يزال الاسكندريون يسمونها مظريطه أو الأظاريطه الي الآن .

وكان من ضمن هذا المجلس عضو مصري اسمه طاهر بك وكانت له الكلمة العليا في اعمال المجلس لثاقب فكره وكبير همته والعناية التي كان يبذلها في صادمه ذلك الوباء الذي ذهب باغلب السكان في الوجه البحري . وفي أواخر سنة ١٨٣٩ التي محمد علي هذا المجلس الفصلي ولم يحفل باحتجاجات الدول عليه في هذا الصدد وشكل ادارة الصحة العمومية بمصر وجعل رئيسها ناظر الاشغال العمومية والتجارة وجعل لها سبعة أعضاء منهم طاهر بك السابق ذكره وستة انتخبهم الحكومه المصرية من أعيان التجار . وفي مدة عباس باشا الاول اهتمت هذه النظامات الصحية فطلبت منه الدول الرجوع الي النظامات الاولي الفصلية فلم يجب طلبها بل ولم يعرها أية التفاته . فاخذت فرنسا تسعي جدها في تشكيل مؤتمر دولي صحي من الدول ذوات المصلحة في البحر الابيض المتوسط ثم لها ذلك واجتمع هذا المؤتمر في باريس وكان فيه اعضاء من فرنسا ومرساليا والنمسا واسبانيا واطاليا واليونان والبورنوغال وسرديا والروسيا وتسكانيا وتركيا وعملوا قانوناً في ٤ يونيه سنة ١٨٥٣ راعوا فيه السهولة في الحجز خصوصاً على البضائع لان العلم كان وصل باكتشافاته المفيدة الي ان اغلب الاوبئة ليست معدية . ولم توافق انكثرا على قرارات المؤتمر واتخذت احتياطات خصوصية لموانها .

المصري بعد الاحتفال به في القاهرة الى الاسكندرية وعمل له فيها احتفال عظيم يوم السبت ٥ نوفمبر سنة ١٩١٠ حضره الجناب العالي الخديوي بحوش سراي رأس التين العامره ومنها ركب البحر الى حيفا ليسافر منها على السكة الحديد الحجازية الى المدينة المنورة و بعد الزيارة يسافر من الطريق الفرعي الى مكة و بعد تأدية فريضة الحج يعود الى جدة ويركب منها البحر الى الطور ثم الى السويس وهي ولاشك فكرة ناقبة صائبة .

وكان من نتيجة هذا القانون ان تشكل مجلس صحي دولي في الاستانة ومجلس في الاسكندرية ووظيفتهما اعلان أمر الاوثة عند ظهورها وعمل الاحتياطات اللازمة في اللوقوف في وجهها (حتى لا تصل الى أوروبا) . ولقد تقرر أيضاً تعيين بعض اطباء يركبون البحر على الدوام الى الشرق الأقصى ليرسلوا الى المجلسين بملاحظاتهم الصحية على البلاد التي يمرون عليها .

وعليه فقد اهتم سعيد باشا وشكل في سنة ١٨٥٤ مجلساً صحياً والحقه بنظارة الداخلية في ٢١ ابريل سنة ١٨٥٧ وجعل من حقه النظر في الامور الصحية من داخل البلاد كما شكل لجنة للنظر في الامور البحرية الصحية (الكورنثنيه) وكانت يد هذه المصاحبة الاخيرة مغلوقة عن التصرف بدون ارادة الحكومة المصرية الى سنة ١٨٨١ التي صدر في ٣ يناير منها دكرينو بفصل ادارة المصلحتين عن بعضهما وذلك بناء عن اتفاق من الدول مباشرة وسميت الاولى مصلحة الصحة العمومية وجعل مقرها مصر وسميت الثانية مجلس الصحة البحرية والكورنثينات المصرية وجعل مقره بالاسكندرية . ثم تغير هذا الدكرينو بدكرينو آخر صدر بتاريخ ١٩ يونيه سنة ١٨٩٣ بناء على قرارات مؤتمر باريس المنعقد في السنة المذكورة . وهذه الكورنثينات كلها لم يكن الغرض منها الحجر على الحجاج لان سفرهم من والي مكة كان على طريق البر وكانوا يفكرون ان طول مسافة هذا السفر مطهرة لهم من الاوثة الا ان شدة كوليرا سنة ١٨٥٨ في بلاد الحجاز جعلت اغلب الناس يفر منها الى مصر من طريق البحر على القصير . فاحتاطت الحكومة المصرية لهذا الامر وضربت الحجر على الحجاج لاول مرة في بر عنبر في وسط المسافة بين القصير وقنا . أما الحجاج الذين سافروا مع القافلة عن طريق العقبة فانها منعهم من الدخول الى السويس وضربت عليهم الحجر في عجرود . ومن هذا العهد رأوا ضرورة اقامة محجر صحي في الطور الا ان مؤتمر القسطنطينيه رأى الاستعاضة عن الطور بالوجه لان سواد الحجاج كان يسافر عليه براً واستمر الحجر فيه

وانا تمعياً للفائدة تقول لك ان المسافة بين المدينة المنورة ودمشق الشام تبلغ ١٣٠٢ كيلو مترا والى حيفا ١٣٣٣ كيلو تقطعها الواورات في اربعة ايام تقريباً ومتوسط سيرها فيها ٨٠ ساعة . وسير القطارات من الشام الى معان على متوسط ٣٠ كيلو في الساعة ومن معان

أو في رأس ملعب على ركاب القوافل ، وفي الطور او عيون موسى علي ركاب البحر كما كانت تقضي به الضرورة الى سنة ١٨٧٧ التي منها كثر سفر الحجاج من طريق البحر . وهناك أخذت الحكومة المصرية في اكمال الاستعدادات في الطور حتى صارت في سنة ١٨٩٣ وافية بالفرض منها . ومن ثم اصبحت هي المكان الوحيد الذي تعمل فيه الكورنتينا على الحجاج المصريين او الذين يمرون على مصر ولا تزال الاصلاحات تدخل اليه من وقت الى آخر . ومن المعجب انه قد ورد في مادة لازاريت (Lazarette) بقاموس لاروس الكبير « ان بعض الافرنج قال ان أصل هذا اللفظ أتى من الكلمة العربية (الازهرية) وذلك لان الازهر بمصر انما هو ملجأ للعيان والشيوخ المتعاقدين » وهو كلام اساسه الجهل المطبق أو التحامل على الازهر والازهرين ولو أنصف القوم لعرفوا لهذا الجامعة الاسلامية حقها في خدمة العلوم على اختلاف أنواعها . فكيف لها آيات من العرفان على بنى الانسان تذكر فتشكر . ولا غرو فاهتمام الجنب العالي الخديوى وحكومته السنية بالازهر الآن لا بد وان يجعله يوماً من الايام في مقدمة الجامعات الكبرى نظاماً وأحكاماً .

أما كلمة لازاريت (Lazarette) فهي لاطينه معناها (Ladre) يعنى الابرص أو المجدوم . وكانت الدولة الرمانية تبالغ في الحجر على المجدومين بل كانوا يضمنهم تحت الحجر طول حياتهم وكان عقاب من يخرج عن نطاقه . منهم ان يضرب بالرصاص وهو قانون حق لولا أنه مبالغ في شدته وتد ورد في الحديث الشريف « فر من المجدوم فرارك من الاسد » هذا هو تاريخ الحجر الصحى عند الافرنج . ولكن يرى المطلعون على التاريخ ان المسلمين رأوا ضرورة هذا الحجر قبلهم . فقد ورد في تاريخ بن الاثير في اخبار السنة الثامنة عشرة من الهجرة ما نصه :

وكان عمر بن الخطاب قدم الى الشام في مدة ذلك الطاعون (وهو طاعون عمواس الذى قتلك باهل الشام فتكا ذريعاً) فلما كان بسرّع وهو وضع قرب الشام بين المنبئة وتبولك لقيه امراء الاجناد منهم أبو عبيدة بن الجراح فاخبروه بالوباء وشدته وكان معه كثير من المهاجرين والانصار لانه خرج بهم غازياً . فجمع المهاجرين الاولين والانصار فاستشارهم

الى المدينة على متوسطه ١ كيلو في الساعة . واجرتها في الدرجة الاولى من حيفا الى المدينة ذهابا وايابا اربع عشر جنيتها ، وفي الدرجة الثالثة نصف هذا القدر ، وليس فيها درجة ثانية إلا ان عربات الدرجة الاولى ضيقة وفي كل عين منها ست مقاعد منفصلة بمحواجز (مساند) ثابتة والمسافر فيها إلى المدينة يصادف مشقات كبيرة وخصوصاً في الليل الذي يقضيه كما يقضى النهار جالساً . وكان الاولى بها أن تكون ذات اربع مقاعد يمكن تجهيزها ليلا الى أربعة أسرة لنوم المسافرين . لذلك ترى كثيراً من الركاب يفضلون ركوب الدرجة الثالثة وخصوصاً عربات البضاعة حيث يمكنهم ان يفرشوا بها فراشهم وبنائون ويجلسون على راحتهم . وأملنا في رجال الدولة حرسها الله ان يفكروا في ذلك حتى تكون عربات الدرجة الاولى وافية براحة المسافرين في هذه المسافة الطويلة

﴿ وهاك جدولاً بمحطات الطريق الحديدي من دمشق الى المدينة ﴾

فاختلفوا عليه فمنهم القائل خرجت لوجه الله فلا يصدك عنه هذا ومنهم القائل أنه بلاء وفناء فلا ترى ان تقدم عليه فقال لهم قوهوا ثم احضر مهاجرة الفتح من قريش فاستشارهم فلم يختلفوا عليه واثاروا بالعود فنأدى عمر في اللبس أني مصبح على ظهر فقال أبو عبيدة أفراراً من قدر الله ؟ فقال لو غيرك قالها يا أبا عبيدة (يعني لانتمت منه) نعم نفر من قدر الله الى قدر الله . أرايت لو كان لك أبل فهبطت وادياه عدوتان احداها مخبئة والاخرى مجدبة اليس ان رعيت المخبئة رعيتها بقدر منه وان رعيت المجدبة رعيتها بقدر منه ؟ وكان عبد الرحمن بن عوف غائباً فحضر فاخبر أنه سمع من النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً في ذلك وهو قوله صلى الله عليه وسلم « اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدهوا عليه واذا وقع ببلد وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه » فكان ذلك الحديث موافقاً لما رآه عمر رضي الله عنه فانصرف بالناس الى المدينة . وقد ورد هذا الحديث البخاري في الجزء الرابع بكتاب الطب بهذا النص : حدثنا حفص بن عمر حدثنا شعبه قال اخبرني حبيب بن ابي ثابت قال سمعت ابراهيم بن سعد قال سمعت اسامة بن زيد يحدث سعدا عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « اذا سمعتم بالطاعون بارض فلا تدخلوها واذا وقع بارض وأنتم بها فلا تخرجوا منها » . وقال شراح الحديث ان المنع من الدخول لا يتناول من كانت للرضى مصلحة في دخوله كالاطباء وغيرهم . وهل هذا الحديث الشريف إلا قانون صحي وضع للناس قبل أول قانون وضعته فينسيا (البندقية) ثمانية قرون ؟

المحطات التي فيها ماء	المسافة بالكيلو	اسماء المحطات	المحطات التي فيها ماء	المسافة بالكيلو	اسماء المحطات
*	٧٦١	٥٩٥ حالات عمار	*	٦٨٦	٠٠ قدم شريف
*	٦٩١	٦٠٨ ذات الحج	*	٧٣٥	٢١ كسوه
*	٧٤٧	٦٣٢ بئر هرمانس	*	٧٠٠	٣١ دبر على
	٧٥٤	٦٥٤ الهضم	*	٦٢٠	٥٠ مسجد
	٧٥٠	٦٧٧ المحطب		٦٤٣	٦٣ جياب
*	٧٧٥	٦٩٢ تبوك		٦٢٤	٦٩ خيب
	٨٤٤	٧٢٠ وادي الاتيل		٦٠١	٧٨ محجه
	٩٠٤	٧٤٤ دار الحج		٥٩٩	٨٥ شفرة
	٩٥٠	٧٥٥ مستجمه		٥٨٧	٩١ أذرع
*	٨٨٢	٧٦٠ الاخضر		٥٧٥	١٠٦ خربة النزاله
	٩٠٨	٧٨٢ جيس	*	٥٢٩	١٢٣ الدرعا
	٩٦٤	٨٠٥ دى بسعد		٥٨٦	١٣٦ نصيب
*	٩٨١	٨٢٢ المعظم	*	٧١١	١٦٢ المفرق
	١٠٣٣	٨٥٣ ختم صنعا		٥٥٨	١٨٥ خربة السمرا
	١١٠٣	٨٨٠ الدار الجرا	*	٦١٧	٢٠٣ الزرقه
	١١٥١	٩٠٤ المطلع	*	٧٣٧	٢٢٢ عمان
	٩٦٦	٩١٨ ابو طاقه		٩٤١	٢٣٤ القصر
*	٩١٤	٩٣٠ المرجم		٧٧٢	٢٤٩ لون
*	٧٨١	٩٥٥ مداين صالح	*	٧٢١	٢٦٠ الجبزه
*	٦٨٤	٩٨٠ الملا		٧٥٢	٢٧٩ الضبمه
*	٦٠٣	٩٩٩ البدايع		٧٨٢	٢٩٥ خان زيب
	٦٧٠	١٠١٢ شهد		٧٥٨	٣٠٩ سواق
	٦٠٠	١٠٣٤ سهل المطران	*	٧٨٣	٣٢٦ قطرانه
	٧١٤	١٠٤٩ زسرد		٨٤٠	٣٤٨ منزل
	٧٣٩	١٠٧٢ البئر الجديد		٨٩٣	٣٦٧ فريفره
	٦٧٠	١٠٩٠ الطويره	*	٨٢٢	٣٧٨ الحسا
*	٤٦٠	١١١٦ المدرج		٩٥٨	٣٩٧ جروف الدراويش
	٣٨٥	١١٣٣ هديه		١٠٥١	٤٢٣ عنزه
*	٤٥٧	١١٥٥ جداعه		١٠٨٠	٤٤٠ وادي الجردون
	٤١٨	١١٤٣ او النعم		١٠٨٤	٤٥٩ معان
*	٥٣٠	١١٨٩ اسطلب عنتر		١٠٠٠	٤٧٥ غدبر الحج
	٤٧٢	١٢٠٨ بوبر		٩٩٦	٤٨٧ بئر الشيديه
*	٤٨٩	١٢٢٨ ديار ناصف		١١٥٢	٥١٤ عقه
*	٥٣١	١٢٤٧ بواط		١١٢٥	٥٢٠ بطن النول
	٥٤٠	١٢٦٨ الحنيه		٩٩٤	٥٣٠ وادي الرتم
*	٧٥٠	١٢٨٧ المحيط		٨٥٠	٥٤٦ تل الشحم
	٦١٩	١٣٠٢ المدينه المنوره	*	٨٠٦	٥٥٥ الرمله
				٧٣٤	٥٧٢ المدوره

ومن شطه الدرعا يخرج فرع حديدي الى جينا ومحطاته هي : الزريب ، تل شهاب ، زيزرون ، وادي كليب ، الفازن ، شجرة ، صاخ ، الهه ، جسر الجامع ، بيسان ، الفوله ، النمام ، جينا .

الطريق الى الحرمين في غابر و حاضر

و لقب الحاج عند عامة المسلمين

كانت طريق الحجيج الى بيت الله الحرام كلها مشقات واطفار في الزمن السابق بما كانت تلقيه يد الطبيعة في سبيلهم من الشدائد الطبيعية التي كانت تفنك بسوادهم في الطريق من حر الصيف وقر الشتاء ، أو جفاف ماء الآبار في هذه الصحراء المحرقة ، وما كان يدهمهم فيها من السيول التي اشد ما حصلت في سنة ١١٩٦ حيث اجتاحت نصف الحجيج المصري بين مكة والمدينة . وعدا هذه الشدائد الطبيعية فكثيرا ما كانت توقع بهم يد اشرار الاعراب واقسى ما وقع لهم في سنة ١٢٠٠ هـ : وكان أمير الحاج المصري امسك بعض لصوص حرب في طريق المدينة ووسمهم بالنار على خدودهم . فصرخت صرختهم وتلاحقت به قبائل حرب وحملوا عليه فهرب مع عسكره ووقعت الحجاج بين أيديهم فافنوم عن آخرهم وأخذوا ما كان معهم من سلب وذخيرة . وكثيرا ما كان تجاذب السلطة بين اشراف مكة وبعضهم ، أو حربهم مع قبائل الاعراب ، أو اختلاف أهل مذهب مع أهل مذهب آخر ، يقفل في وجوه الحجاج ابواب مكة أو المدينة بعد وصولهم الى هذه أو تلك فيرتدون عن الأولى من غير تأدية المناسك وعن الثانية بدون زيارة السيد الرسول ويعودون الى بلادهم وقد اضافوا على متاعهم الاولى مشقات جديدة تزيد في شدتها عليهم الآمهم المعنوية من حرمانهم من أمنيتهم فتضعف قواهم وتخور عزائمهم ، وغالبا ما كانت تشتمهم يد الفوضى وتعرض بهم حال الضعف الى النهب والسلب !! كل ذلك كان يحصل لحجاج بيت الله الحرام والناس لا يمنهم عنه مانع ولم يسمع أنهم انقطعوا عنه من انفسهم في سنة من السنين الاهم الا ما قعد ببعضهم من غير جزيرة العرب أيام القرمطى والوهابي لان الطريق كانت مقطوعة عليهم ولم يسمع بان جميع المسلمين اهملوا هذا الواجب مطلقا ولم يقف أحد منهم بعرقه من مبدأ الاسلام الى الآن الا في سنة ٦٥٤ التي لم يحج فيها أحد للفتنة التي كانت بين الاشراف

على امانة مكة . لذلك كانت الحجاج اذا طلوعوا الي اداء هذه الفريضة كانوا اول ما يستعدون على سلاحهم كأنهم سائرون الى دار حرب لا الى دار قد أمن الله فيها حياة الانسان والحيوان بل وحياة الاشجار ، فاذا عادوا الى بلادهم استقبلهم أهلوهم وذوهم بالطبول والزمر فيقيمون لهم الافراح والليالي الملاح بعد ان يعدوا لهم كل ما فيه راحتهم ورفههم من نقش الدور وتجديد ما قدم عنده فيها من فرش وغيره لا فرق في ذلك بين أمير أو فقير . وكانت الطبقة الصغرى ، وهي سواد الحجاج واكثرهم مشقة طبعاً ، تزوق لهم وجبات منازلهم : فيرسمون عليها صورة المحمل وقافلته وحرسه ويرسمون الى جانبها نخلة قد ربط الى جذعها سبع وضع في سلسلتين من حديد ويقرب منهما رجل قد اشهر سيفه في يده اشارة الى ان صاحبنا حفظه الله تغلب بقوته وشجاعته على ما صادفه في طريقه هذا من المخاطر والمهالك .

لذلك كان ولا يزال لقب الحاج عند سواد المسلمين اشرف الالقاب التي يتحلى بها صدر اسماء الطبقة الصغرى وهو يدل على ما يمتاز به الشخص من صفات الشهامة في الشبان فاذا قيل لواحد منهم يا حاج فلان يعني أيها الشهم الشجاع ، أما اذا لقيت به الشيخ والكهول فانما يكون ذلك اشارة لكمال يقينهم ومثانة دينهم الذين تحملوا في طريقه الاهوال التي تشيب منها الاطفال .

على ان طريق الحاج أصبح اليوم أقل صعوبة منه في أمسه ، لذلك ترى الحاج في عودته يستقبل باسبسط مما كان يستقبل به في الزمن السابق . وقليلاً ما تراهم بمصر يرسمون شيئاً على دور الطبقة الفقيرة اللهم الا محملاً يسير في جنده والى جانبه مركب بخاربه أو قطار سكة حديد مما لا شئ فيه من معنى المشقة التي كان يصادفها الحاج في طريقه في الزمن السابق . وفي الحقيقة فان طريق الحاج اليوم اقل صعوبة واكثر أمناً منه بالأمس ، بل لا نسبة بين الحالتين بالمرّة . وما دام طريق الحرمين أصبح محل اهتمام دولتنا العلية فلا بد أن يأتي يوم قريب يتدلل ما بقي فيه من الصعوبات خصوصاً اذا تحققت خبر تسير الطريق الحديدي بين المدينة ومكة وبين هذه وجدة ، والله الهادي الى سواء السبيل .

سفر الجناب العالي

من المدينة الى مصر

في فجر يوم السبت ١٥ يناير سنة ١٩١٠ الذي قرر الجناب العالي سفره فيه من المدينة المنورة الى تبوك ، قصد حفظه الله الحرم الشريف ، وبعد صلاة الصبح ، أدى خدمته في الحجرة الشريفة ، وزار زيارة الوداع ، ثم قصد المحطة التي اكتظت رحباتها بمجموع الأعيان والأشراف والمأمورين الملكيين والعسكريين ، وفي مقدمة الكل حضرات العلماء وقياد الأشراف والمفتي والقاضي وخازن دار الحرم الشريف ومديره وسعادة رضا باشا محافظ المدينة المنورة . فصاحفهم حفظه الله واحدا واحدا ، وركب صالونه الخصوصي ، شاكرآ لهم ما لقيه من آدابهم ولطف اخلاقهم أثناء اقامته بالمدينة ، وركب في خدمة جنباه العالي سعادة دقتردار المحافظة وحضرة المهمندار الخصوصي الذي تعين لسموه من قبل حكومة الحجاز ، ثم تحرك القطار في شروق الشمس تماما قاصدا تبوك ، بين طلقات المدافع وعزف الموسيقى وهتاف الاهالي . وكان قطار المعية السنية قام اليها قبل القطار الخصوصي بساعتين ، وكان قد ركب فيه نحو خمسين عائلة من مصريين وشوام وآراك ومغاربة كان قطعهم في المدينة ضيق ذات يدهم ، فأمر حفظه الله بتسفيرهم الى بلادهم بناء على التماسهم .

ومرّ القطار في منتصف الليل على محطة العلا ، ثم على مدائن صالح (١) التي تبعد عنها بنحو خمسة وعشرين كيلومتراً ، ووصل حفظه الله الى حذاءات كورنتينة تبوك في الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم التالي (الأحد) ، فدخل القطار الخصوصي الى الكورنتينة ، وبقيت فيه دولة الوالدة مع حاشيتها ، أما

(١) ومدائن صالح (وتسمى الحجر بكسر الحاء وسكون الجيم) نسبة الى نبي الله صالح الذي ارسل الى قوم ثمود ، وكانوا يسكنون في هذه الجبال الى يثرب . وهم قوم من العرب ذهب بعض المؤرخين الى أنهم من اليمن ، نزلوا الى شمال شبه جزيرة العرب مع من هجرها بعد سيل العرم ، وكانت مساكنهم فيها بمحضرةوت قرب مساكن عاد ، ودليلهم على ذلك ما وجدوه على بعض آثارهم في العلا من الخط المسند (الجبرى) . وقد ذكر المقرزى في الكلام على آياله ما ماخصه ان حمير الاكبر بن سبأ الاكبر أمر بطرد قوم ثمود من اليمن لظلمهم لمن جاورهم ، فنزلوا من آياله الى ذات الاصال (اطراف نجد) فقطعوا الصخور ونحتوا من الجبال بيوتا وتكبروا وظفوا فبعث الله فيهم صالحاً نبياً ورسولاً فكذبوه وسألوه ان يخرج لهم ناقة من صخرة هناك ، فاخرجها لهم فمقروها فاهلكهم الله بالصيحة فاصبحوا في ديارهم جائعين (مصوقين) .

وذهب بعضهم الى ان الثموديين من عماليق الشمال الذين أتوا من العراق وسكنوا مدينة بظرة وكانت لهم بها دولة واسعة في القرن الرابع قبل المسيح ، ويستدلون على ذلك بما وجدوه على كهوف الحجر . من الخط الآرامي الذي هو كتابة الانباط .

ومن ذهب الى الرأي الاو ل يقول ان الثموديين لم يكتبوا هذا الخط الا بعدما تبوا لحكومة الانباط في القرن اثنتى أو الاول قبل الميلاد بحكم تغاب لغة المتبوع على التابع . وعندى أنه لا يبعد أن يكون اصلهم من عرب الرعاة الذين طردهم الملك نحومس في سنة ٢٠٥٠ قبل الميلاد ، ومن انصريين تعلموا كيف نحتون الجبال والصخور . قال تعالى « وثمر الذين جابوا (نحتوا) الصخر بالواد » . وربما كانوا من قوم موسى الذين خرج بهم من مصر في سنة ١٦٢٥ ق م ، فاتوا واقاموا في المنطقة التي بين الحجر والمدينة ، بدليل ان ديانهم كانت اليهودية . ثم كان لهم مع نبيهم صالح ما حسبك منه ما ذكره الله تعالى في الربع الرابع من سورة الاعراف . « والي ثمود (ارسل) اخاهم صالحا قال

الجناب العالی فانه نزل بمعیته الى الحذاء الذى ضربت فيه صواوینه الخصوصیة وخيام حاشيته من ملكین وعسکریین . ومكث حفظه الله فی الكورنتیة خمسة أيام كان یتردد فی أنائها من الصیوان الخصوصی الى صالون قطار السكة الحديد ، وكان الهواء فی تلك الاثناء بارداً جداً یتراوح بین ١٥ درجة

یا قوم اعبدوا الله مالکم من اله غیره ، قد جاء تکم بینة من ربکم ، هذه ناقة الله لکم آية فذروها تأکل فی أرض الله ولا تمسوها بسوء فیاخذکم عذاب الیم ، واذکروا إذ جاءکم خلفاء من بعد عاد وبوأکم فی الارض تتخذون من سهولها قصوراً وتحتون الجبال بیوتاً ، فاذکروا آلاء الله ولا تعشوا فی الارض مفسدین . قال الملا الذین استکبروا من قومه للذین استضعفوا لمن آمن منهم أن تعلمون ان صالحاً مرسل من ربه ؟ قالوا إنا بما ارسل به مؤمنون . قال الذین استکبروا إنا بالذی آمنتم به کافرون ففقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا یا صالح أنتنا بما تعدنا إن کنت من المرسلین . فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فی دارهم جاثمین» وفی تفسیر روح المعانی ان ثمود كانت ديارهم من الحجر الى وادی القرى جنوباً ، وقد جاء فی تفسیر قوله تعالی أخذتهم الرجفة : « قال الفراء والزجاج أى الزلزلة الشدیدة ، وقال مجاهد والسدی هی الصیحة ، وجمع بین القولین بأن أخذتهم الزلزلة من تحمهم والصیحة من فوقهم » .

ولا یبعد ان هذه الحركة كانت ناشئة عن ثورة بركانية حصلت فی حرة العویر (جبل بركانی تقدم ذکره) ، فكانت منها تلك الهزة العنيفة التي خسفت بالقوم فی ديارهم من غیر ما يشعرون . یؤید ذلك ما حصل أخيراً فی کالابریا التي كانت حركتها ناشئة عن ثوران بركان فیروف . (وكانت حادثة ثمود حوالی بعثة عیسی علیه السلام) .

ولقد مرّ رسول الله صلی الله علیه وسلم علی الحجر فی غزوته لتیوک فی السنة التاسعة للهجرة ومنع قومه من الدخول إلی ديار ثمود والشرب من مياهم . وأرى ان ذلك لسببین مهمین الاول أدب وهر مبالغته علیه الصلاة والسلام فی السخط علی هؤلاء الاقوام لعصیانهم ربهم ومخالفتهم لنبيهم حتی كان من أمرهم ما كان . والثانی صحی وذلك لأن کهوفهم المتروكة من زمن بعيد ، وهی بمثابة مقبرة لهم ، لا شک بكون هواؤها فاسداً وماؤها مضراً بمن يشربه .

سنتجراد نهراً و ه تحت الصفر ليلا ، أما الرياح فقد كانت شديدة جداً لا تستقر معها انخيم ثابتة في امكنتها ، بل كنت تراها متزعزعة على الدوام وخصوصاً في اليوم الأول والثاني ، وكثيراً ما كنا نشاهد خيام الكورنتينة التي في الحذاءات الاخرى تطير من أماكنها فيسرع أربابها بالجرى وراءها

أما النقوش التي شاهدوها على ما وصل اليها من هذه الديار فأغلبها بالخط الارامي وهي لانخرج عن عبارات دينية مما ينقش عادة على قبور كثير من الامم الى الآن . نذكر لك منها ترجمة عهد كتبه على قبره رجل اسمه عائد بن كهيل (انظر صحيفة ٨١ من الجزء الأول من تاريخ العرب قبل الاسلام لصديقنا المؤرخ الفاضل جورجى اقدى زيدان) : « هذا القبر الذى بناه عائد بن كهيل بن القيس لنفسه وأولاده وأعقابهم وان يكون في يده كتاب من يد عائد يبيح له ولأى واحد يخوله عائد في حياته أن يدفن فيه . في شهر نيسان السنة التاسعة للحارث ملك الانباط محب شعبة (وذلك حوالي سنة ١٨ بعد الميلاد) ولعن ذو الشرى ومناة وقيس كل من يبيع هذا القبر أو يشتريه أو يرهنه أو يهبه أو يؤجره أو ينقش عليه شيئاً آخر ويدفن فيه أحداً إلا الذين كتبت أسماؤهم أعلاه ان القبر وما كتب عليه فهو حرم مقدس ، حسب القاعدة التي يقدها الانباط والساميون إلى أبد الأبدن » .

ومن هذا ترى ان القوم غيروا هوديتهم بوذية النبطيين الذين كان من آلتهم ذو الشرى ومناة وقيس وهبل واللات وغيرها ، ومنهم أخذ العرب وثائيتهم . ولقد أهتم الحجاب العالمي الحديوى بخدمة العالم التاريخى بنقش ما بقى من آثار الحجر فأوفد الى هذه الجهة البروفسور هيس أحد المستشرقين السويسريين وتزيل مصر الآن فعاد منها بعض صور غير مهمة مما أبقته فيها يد السراق . ويوجد كثير من آثار القوم في متاحف لندن وباريس وبرلين والاسانه . وقد بلغني أنه يوجد منها شئ كثير في صناديق محفوظة في مدينة حيفا منذ سنتين على ذمة متحف القسطنطينية ولا أدري ما هي الحكمة في عدم ارسالها اليه الى الآن . وعلى كل حال فإن المشتغلين بالآثار النبطية والنمودية لا بد وأن يزيدونا يوماً من الايام معرفة هؤلاء الاقوام .

ويتعلقون بأطنابها فيوقفونها عن سيرها ببناء شديد ويرجعون بها ثم يراولون
نصبها وهم في عراقك مع الرياح يزهبق الارواح .

وفي هذه الكورنتينة اثناعشر حذاءً جويًا تحيطها وتفصلها عن بعضها
شبكة من السلك ، وهي ستة في مقابلة ستة اخرى ، يسير فيما بينها شريط
الطريق الحديدي ، وطول كل حذاء مائة متر في عرض ٧٥ مترًا ، وليس
فيها ابنية أصلاً ، اللهم الا مبخرة واحدة في جوار الحذاء الاول ، أخذ اليها
عسكر الحرس والخدم فتبخرت ملابسهم وظلوا في أثناء التبخير عرايا في
حوش المبخرة وهم يرتعدون من شدة البرودة ولا شك في أن دولتنا العلية
ستزداد عنايتها بهذا الحجر^(١) حتى يكون كافلاً لراحة حجاج بيت الله الحرام .

وكان حضر الى تبوك أثناء الحجر جناب منيسر باشا الالمانى باشمهندس
الخط الحديدي الحجازى وسعادة وفابك قائمقام معان وعلى بك فؤاد
باشكاتب المتصرفية للسلام على الحضرة الفخيمة الخديوية ، فلم يقابلهم جنابه
العالى قيما بواجب قانون الكورنتينات ، فبقوا في ضيافته بادارة الحجر ، حتى
انقضت مدة الحجر في صباح يوم الجمعة ٢١ يناير ، فحضروا الى المخيم الخديوى
ونالوا شرف الثول بين يدى حضرته العلية . وهناك أبتدىء في شحن
القطارات ، وتحرك الركاب الخديوى في الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم ،

(١) هذا الحجر لايزال خاصاً بأهل تركيا والشام أما أهل مصر فانه لا بد لهم من
تمضية الحجر الصحي في الطور قبل دخولهم إلى الثغور المصرية وقد حصلت مخاطبات
رسمية في اعتبار كورنتينة تبوك كورنتينة عامة بحيث يكفي الحجر فيها على المصريين وغيرهم
ولكن لم يتقرر شئ بهذا الخصوص إلى الآن .

فمر على محطة تبوك : وهي محطة صغيرة تبعد عن الحذاءات شمالاً بنحو الف متر وفي الكيلو ٦٩٣ من الشام ، وبينها وبين البلدة نحو ثمانمائة متر . ومساكن هذه القرية على مرتفع من الارض وسط الصحراء يحيط بها النخل وبعض غيطان منزرعة ذرة ، وبعضها مبني بالطوب النيء وبعضها بالدبش ، وقد رأيت فيها بيتين موشين بالجير من خارجهما ، ومن أبنيتها ماهو بالطوب المدهوك من الداخل والخارج بالشهبة (طين به مادة جيرية) . وفيها مسجد اقيم على المكان الذي صلى فيه عليه الصلاة والسلام حين خروجه الى هذه الجهة ، وعلى باب هذا المسجد على يمين الداخل اليه بئر من أثر السيد الرسول نبع ماؤها بين يديه صلى الله عليه وسلم في وقت كان هو ومن كان معه في شدة الحاجة الى الماء ، وهي التي يشيرون اليها ضمن معجزاته صلى الله عليه وسلم بأن « الماء نبع من بين أصابعه » وماء هذا البئر عذب جداً ، وقد وضع عليها أخيراً ناظم باشا الذي كان مدير أعمال السكة الحديد الحجازية ، طلحة تحفظ ماءها نظيفاً بعيداً عن عبث العابثين ، فجزاه الله خيراً .

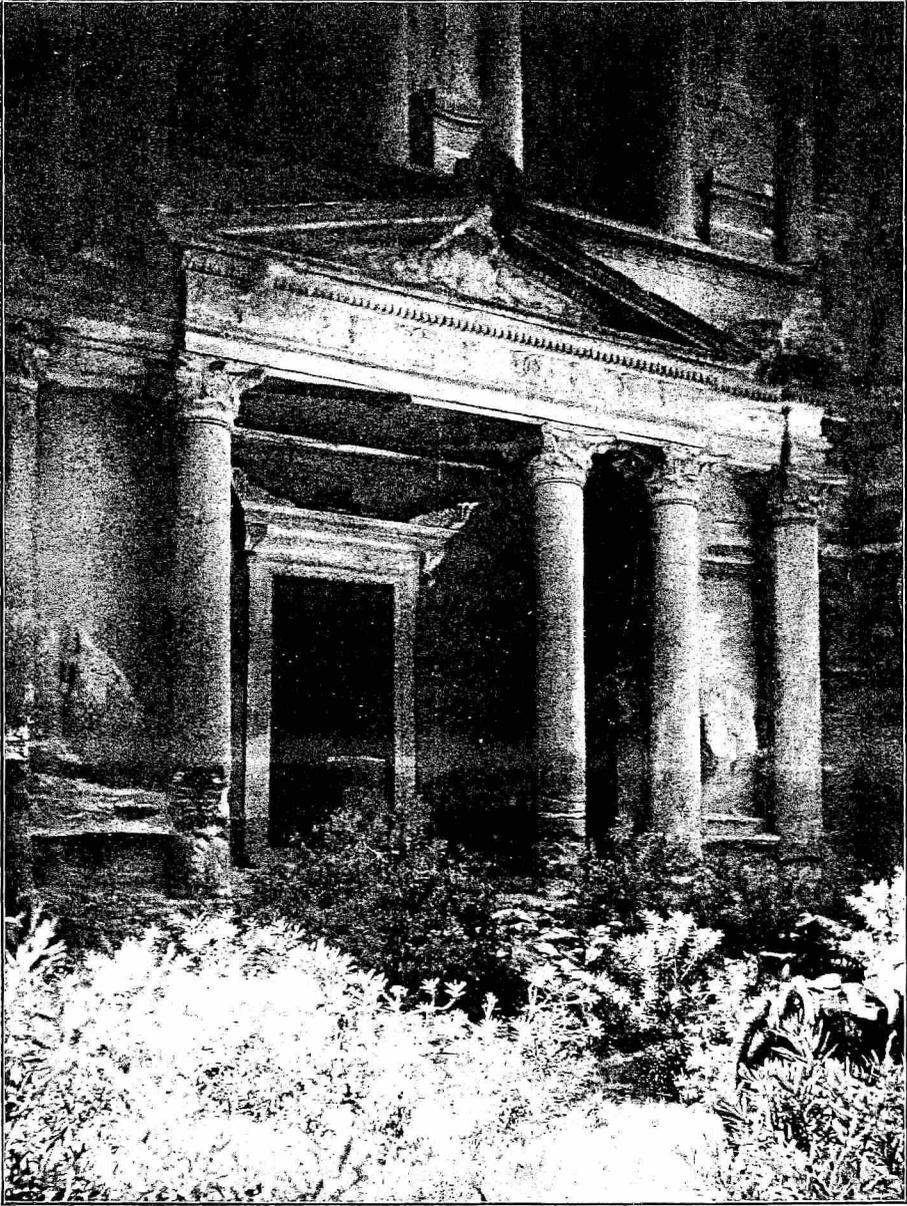
وما زال القطار سائراً حتى مرّ على محطة ذات الحج ، وفيها قلعة قديمة كانت تخزن اليها مؤن الحمل الشامى حين سفره في البر ، ثم وصل الى محطة معان في نحو نصف الليل : وهي أكبر محطة بين المدينة المنورة والشام ، وعلى كيلو ٤٥٩ من دمشق ، وفيها ورشة كبيرة لتصليح الواورات ، وبيوت لمستخدمي هذا الخط الحديدي منها منزل جميل لمنير باشا .

وقرية معان تبعد عن المحطة بنحو ٢٠٠٠ متر الى الغرب بأحراف الى الشمال ، ولا تظهر للمسافر من المحطة لانها في جوف الجبل ، وسكانها نحو

الف شخص يشغل معظمهم في اعمال الطريق الحديدى ، وقد كانوا قبلا يهاجرون للتجارة البسيطة ولا يشغل بالزراعة منهم الا القليل فيما لا يبعد عن قريتهم لخوفهم من عرب الحويطات الذين يوجدون بكثرة في تلك المنطقة ، وكثيراً ما كانوا ينقضون عليهم وينهبون مزارعهم . وفي شمال هذه القرية على مسافة ثلاث ساعات خرائب كثيرة اكبرها اسمه بسطه (وأظن انها اثر مصرى) ثم اذرح (اضرح) وفيها تلال قديمة تتخللها آثار عتيقة . وفي تلك الجهة مياه كثيرة عذبة وأراض زراعية مما يدل على عمرها في قديم الزمان . وجل هذه الخرائب من آثار (١) مدينة النبطيين .

(١) والمنطقة التي في غرب السكة الحديد فيما بين معان وعمان إلى نهر الاردن والبحر الميت وما يليه جنوباً غنية جداً بالآثار القديمة التي بعضها للنبطيين والفسطيين والعرب والرومان والمصريين (البطالسة) . وأخف هذه الآثار مدينة بطره (Petra) (كلمة يونانية معناها حَجَر ومنه قولهم (Arabi Petra)) يني بلاد العرب المتحجرة) وهي تبعد عن معان غرباً بمسافة ٣٥ كيلو متراً تقريباً وعن العقبة جنوباً بمسافة ١٣٠ كيلو وترى بها إلى الآن كثيراً من المباني الفخيمة الاثرية ، وهي في واد ترتفع الصخور إلى ٥٠ متراً على مدخله الذي تختلف سمته من ٣ إلى ٩ أمتار ، وقد نقر فيها هيكل نحيم جداً على ارتفاع عشرين متراً ، وفيه كثير من النقوش الجميلة وبسومونه بخزنة فرعون ، ويظن بعضهم انه للرومان ، أقاموه بعد تملكهم المدينة لمعبودهم ايزيس .

ويوصل طريق هذا المدخل الى واد واسع يقطعه مجرى ماء من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي كانت فيه المدينة . ولا يزال اطلالها به إلى الآن ويسمونه وادى موسى . وعلى جانبه قبور نقرت في الصخر ، والتي على يمين الوادى منها يعني إلى جهة الشرق كانت لاشراف القوم : لما تشاهده عليها من النقوش والرسوم التي تزيد في فخامتها ، أما التي على يساره (في الجهة الغربية) فهي لعامة الناس . وعدد هذه القبور لا يقل عن ٧٥٠ قبراً ، وكأها منقورة في الصخر . ويقرب منها تيارو قد نقر في الجبل بمسححه



قزنة فرعون في طبره

وفي صباح يوم السبت ٢٢ يناير أمر الجناب العالي حفظه الله فسارت حملة الجمال والمهجن التي كانت في ركابه السامى ومعها بعض الحرس الخديوى تحت قومندانة حضرة البكباشى ابراهيم أفندى أدم من معان الى العقبة، ومسافة ما بينهم ١٣٠ كيلو متراً، واستمرت في سيرها الى السوبس من طريق البر . وفي الظهر تناول سموه الغذاء في دار منيسر باشا . وفي مبدأ الساعة الثالثة تحرك قطاره قاصداً حيفا ، فسار في صحراء واسعة ترى فيها الجبال على افق البصر من الجانبين الشرقي والغربي ، والأرض في هذه المنطقة رملية

ومقاعده ، وفيه ٣٣ مدرجا على هيئة أنصاف دوائر تسع ٣٠٠٠ شخصاً . ويقصد بطره سنويا في فصل الربيع قوافل السياح من الافرنج وعلى الخصوص من الامريكان . ولا بد لزيارتها من اذن خصوصي من ولاية الشام وهو ما (كان) لا يسهل على كل انسان الحصول عليه .

وكانت هذه المدينة عاصمة لحكومة الانباط : وهي حكومة عربية كبيرة كانت توجد مدة القرن الرابع قبل المسيح . وكانت لها مدنية عالية ، وجيوش قوية ، ساعدت الاسكندر الاكبر في استيلائه على بلاد الفرس وعلى مصر . ولقد حاربها انطيفونوس (Antegon) خليفة الاسكندر في سنة ٣١٢ قبل الميلاد ، فانهزم أمام جندها الباسل، وقال انه لم يمارس في حروبه في الشرق والغرب رجالا مثل رجالهم . ثم حاصرها ديمتريوس وانقلب عنها خائبا وكانت مملكة النبطيين في القرن الثانى قبل المسيح قوية جدا وضربت ملوكهم السمكة باسمهم ، ومن أكبر ملوكهم الحارث الذى ملك في سنة ١٦٩ م ، وامتد ملكه الى وادى القرى جنوباً ، ودخل في حكمه العلاء والحجر وما والاها شرقا إلى حدود العراق ، وغرباً إلى بحيث جزيرة سينا . وكانت مدينة بطره المركز التجارى بين الشرق والغرب والشمال والجنوب إلى مبدأ القرن الثانى بعد المسيح ، حيث ساق عليهم الامبراطور تراجان الروماني جيوشه فهدم مدينتهم ، واكتسح ملكهم ، ومزقهم كل ممزق ولم تقم لهم بعدها قائمة . حتى أن مؤرخى العرب لم يذكروا عنها كلمة واحدة في فتوح العرب للشام .

تكثر فيها الحجارة الصوانية السوداء ، وكانت رؤوس الجبال الغربية التي
يسمونها جبال الشيخ (وهي حلقة من حلقات السلسلة الجبلية التي تصل جبال
لبنان بجبال السراة التي تقطع بلاد العرب من جنوبها الى شمالها) تلوح لنا بيضاء

وإلى النبطيين ينسب الرقي الذي حصل في الكتابة التدمرية حتى كانت الحروف
النبطية أمهات للحروف العربية ، وحسبهم بذلك نظاراً .

والعرب تسمي هذه المدينة من زمن بعيد بالرقيم . واخرج ابن جرير وابن أبي
حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس « ان الرقيم واد دون فلسطين قريب من أيله ،
والكهف في ذلك الوادي ، فهو من رقة الوادي أى جانبه » . وأظن أن الرقيم بمعنى
مرقوم ، لما هو مكتوب ومنقوش على كوفها وربما كانت هذه الكروف هي المعنية بقوله
تعالى في سورة الكهف « وترى الشمس إذا طلعت تراور (تميل) عن كهفهم ذات اليمين
وإذا غربت تقرضهم (تبعد عنهم) ذات الشمال » . وإلى شمال هذه المدينة على الجبل قبر
هارون أخى موسى ، ويقصده العرب من قديم الزمان لزيارته ، وقد ابنتي الصليديون
قلعة إلى جواره .

وتحت جبال الشيخ أثر يقال له قلعة يناس ، ويظنون أنه من أعمال النسانية . وفي
الكرك هيكल الشمس . وفي اراك الامير هيكل من هياكل الامونيين يقال له هيكل العبد
وفي ميدبة ، التي تبعد عن عمان بنحو عشرة كيلو مترات ، آثار جميلة يسونها خربة القال .
وفي حصبان التي تبعد عنها إلى الشمال الغربي بنحو خمسة عشر كيلو متراً آثار من آثار
مملكة يهوذا ولم يحفظ منها إلا صهاريج جميلة منقورة في جوف الجبل ، ولها فتحات من
أعلىها يدخل منها الماء اليها . ويوجد في محطة القصر قلعة نظيظا . وكان بمحطة مشاناً آثار
جميلة ومن ضمنها قصر من القرن السابع قبل المسيح وكانت له وجهة من الفخامة يمكن
أخذها الألمان هدية من السلطان عبد الحميد ونقلوها إلى برلين سنة ١٩٠٤ . وفي عمان آثار
جميلة جداً . واهم ما فيها القلعة التي هي من هياكل الامونيين وفيها كثير من المنابر والقبور
المتحونة في الصخور ، وعلى كل حال فهذه البلاد ملائ با آثار الاقدمين التي يهتم بها الأجنب
ولا يكاد يعرفها أهل البلاد أنفسهم وأكبرها فخامة قلعة بملبك الشهيرة ، أما آثار تدمر
(بلبر) في الشمال الشرقي لدمشق فحدث عنها ولا جرح والطريق اليها من حصص .

من الثلوج كأنها قد شابت ناصيتها من وحشة الوحدة في هذه البيداء الجافة .
أما الجهة الشرقية فكان يلوح لنا فيها من آن الى آخر ، بعد ميل الشمس
عن خط الزوال ، بحيرات كبيرة من الماء على دائرة افق هذه الصحراء .
وكنا كلما اقتربنا منها زاد صفاؤها وتحرك ماؤها على بعضه بتواجته البلورية ،
وكانت تظهر في وسط هذه البحيرات أحيانا جزر قامت عليها غابات من
الاشجار تزيد في جمالها ، حتى اذا تآقت لها النفس ، وصارت منك على مناول
اللمس ، وجدتها احدى القيعان ، سكن فيها الشيطان ، فاذا وصلت الى جنبه
للحظوة بشرابه ، وجدته كأن لم يكن !!

ومع اني بمجرد ما وقع بصري على هذه البحيرات كشفت مستورها ،
وعرفت ضميرها ، ولكن كان يلتفتى اليها على الدوام حسن منظرها ، والتفكر
في مخبرها : فكنت آنا أفكر ان هناك منخفضاً من الارض مليء بالهواء ،
وقد انعكست في مرآته قطعة من السماء الصافية ، وانكسرت على سطحه
ظلال مافي دائرته من الاعشاب ، وأخذت تتحرك بحركة تماوجاته ، فتعددت
صورها بما تكونت معه هذه الغابات الناضرة ، وسط تلكم البحيرات الباهرة !!
وزد على ذلك ان العين التي لم تمثر في الصحراء الاعلى مناظر جافة ، تعظم
ما تراه فيها من الصور اللطيفة ، وتنقله الى الوم حقيقة مجسمة .

وكنت أحيانا اتخيل انها شئ من البحر تسرب ، ومنا اقترب ، حتى
اذا خلب اللب بسنائه ، وجذب القلب بلا لائه ، واشتقت أن تنال من مائه ،
فتح فاهه ، وابتلع مياهه ، ضاحكا من سذاجتك وبساطتك ! وكنت أتوم
آونة ان الصحراء ، أرادت ان تخنف عن أبصارنا منظر ذلك الجفاء ، فلبست

لباس البحار ، وسط هذه القفار ، وأخذت تتلون تتلون الحبراء ، وهل
يبعد على شيطان الطبيعة أن يتشكل بما شاء ؟ حتى اذا اقتربت منه ضرب في
الهواء ، وطار طير العنقاء .

لا لابل هو السراب الذي « يحسبه الظمان ماء حتى اذا جاءه لم يجده
شيئاً » ، أخبرنا به القرآن قبل ثلاثة عشر قرناً ، ولم تعرفه اوربا الا في القرن
السابع عشر ، بل لم تتحقق من أمره الا تلك الحملة العلمية التي دخلت مصر
مع نابليون بونابارت في رأس القرن التاسع عشر .

ولا غرابة في ذلك فان السراب لا يوجد الا في صحارى البلاد الحارة :
ذلك ان الشمس اذا ارتفعت حرارتها سخنت الرمال التي على سطح الارض
فتسخن به طبقة الهواء التي تلامسها ، وهذه الطبقة تسخن التي فوقها ، وهذه
تسخن التي تلوها ، وبذلك يتمدد الهواء في جميع هذه الطبقات بنسبة حرارة
كل واحدة منها ، ويحدث من انتقال الطبقة الساخنة منه الى أعلى ، ومن
نزول الكتلة الباردة لتشغل محلها ، تموجات تنعكس في صفائها صور الاشباح
القريبة منها ، وهذه الصور تنعكس بمجموعها في منخفض من هذه الرمال
المتبلورة فتراها من بعد كأنها حقيقة مجسمة .

أما مونيخ (Nonge) وهو أول من شرح نظرية السراب ، وكان من
أعضاء الحملة العلمية الفرنسية السابقة الذكر ، فقد ذهب الى أن السراب
انما هو صورة أشباح حقيقية يشاهدها الرائي من بعد ، فيخترق شعاعه البصرى
الذى ينقل صورتها اليه طبقات الجو التي تختلف في حرارتها وكثافتها كلما
اقتربت من أرض الصحراء التي سخنتها حرارة الشمس ، ويأخذ فيها سيراً

طبيعياً على خط منحني متصل دائرته بالأرض في نقطة تنطبع في رمالها اللماعة صورة الشبح المرئي ، وهناك تخيل للرأى إنما يشاهد الشبح من هذه النقطة وليس كذلك .

والطريق الحديدى في هذه الجهة كثير المنحنيات بل تراه في حالات كثيرة مثل حرف (S) ، أى على شبه قوسين متضادين أخذاً بطرفي بعضهما ، وذلك يكون في حال صعوده على الجبال ، أو قطعه لها من جهة الى جهة اخرى . وما زال السير على هذا المثال حتى وصلنا الى محطة قطرانه ، وهي الثغر الحديدى لتصرفية الكرك التي تبعد عنها غرباً بنحو ٣٠ كيلومتراً ، وكان حضرة متصرفها قد حضر مع بعض رجاله لاستقبال الجناب الخديوى . وبعد تأديتهم الى مقامه الفخم واجب التسليم والتعظيم استأنف القطار مسيره حتى وصل الى محطة الدرعا في منتصف الليل ، ومنها يتفرع الطريق الحديدى الى شعبتين : شعبة تسير نحو الشمال الى دمشق الشام ، والاخرى تسير نحو الغرب الى حيفا . وكانت في هذه المحطة زينة لطيفة لمقدم سمو الخديو المعظم وكان كثير من أهل الدرعا (التي تبعد عن المحطة بنحو النى متر) قد حضروا للتمتع بمشاهدة طلعة الجناب العالي . ولقد مكثنا في هذه المحطة الى فجر اليوم التالي ، ثم سرنا في أرض زراعية من يميننا وشمالنا حتى وصلنا محطة تل شهاب ، ومنها يتبدى الطريق الحديدى يسير في جوف الجبل ، فكنت ترى القطار صاعداً ، نازلاً ، منجداً ، متهماً ، داخلاً في نفق ، مشرفاً على هاوية ، قاطعاً قنطرة الى الشرق ليمر على كوبرى الى الغرب ، ذاهباً ، آيماً ، مقبلاً ، مدبراً ، كأنه الغزال في لفتاته ، أو الثعلب في روغانه ، متخطياً مجارى الماء ، متباعداً عن مساقط السيول !!

وبالجملة فهذا الطريق صورة صغرى من طريق السمرنج فيما بين تريستا ووثينا . وما زلنا سائرين بين هذه الهضاب ، وهاتيك الشعاب ، التي تحيرت في جمالها الالباب ، مندهشين من جلال طبيعة هذه الجبال ، ونخامة ما صنعتها بها يد الدولة من عظيم الاعمال ، متمتعين بما على سفوحها من الخضرة التي يكثر فيها بصل النرجس فيعطر الارجاء بعيره ، والتي يرعى في كلتها آلاف من قطعان الابقار والاعنام حتى نزل الوابور الى الوادى فشهدنا بعض الفلاحين يشق الارض بمجراته (وهو أصغر من المحراث المصرى كثيراً) . وبمد كيلو ١٣٥ كثرت الخيام في جوف الوادى الذى ابتدأ يعمر بالسكان . وفي الكيلو ١٠٠ غزرت المراعي : فكنت ترى معالي الجبال ومواطنها مفروشة ببساط أخضر سندسي يتلون منظره في ارتفاعاته ، وانخفاضاته وشمسه ، وظله ، بألوان مختلفة ذكرتني بتغيرات مناظر البوسفور الجميلة . وهذا الوادى يسمى بوادى الساسابان ويبتدىء من محطة صماخ (١) التي يبتدىء منها جفلك السلطان عبد الحميد ، وفيه خمسون قرية ، وأرضه غاية في الجودة يشقها الطريق الحديدى ومياهه غزيرة جداً . وكان القمح فيه على ارتفاع شبر من سطح الأرض ويستمر هذا الجفلك الى محطة الغنوله ، التي بمجرد ما تركناها شاهدنا بكل فرح وسرور مباني حيفا . وقبل الوصول اليها ببضعة كيلو مترات شاهدنا على

(١) ويقرب منها قرية حطين المشهورة بواقعتها الكبرى التي حصلت في سنة ٥٨٣ هجرية بين صلاح الدين الايوبي والصليبيين وانتصر فيها صلاح الدين عليهم نصراً ميئاناً كان فاتحة لانتصاراته المتوالية عليهم . ويقرب من حطين قرية يقال لها خياره بها قبر شعيب النبي . وصماخ تشرف على بحيرة طبريه وتسمى في التوراة بحر الجليل ، وهي أعظم بحيرات سوريا ، وطولها من الشمال إلى الجنوب ١٤ ميلاً ، وأعظم عرض لها ثمانية أميال

يسارنا طريقاً بالمكدام لتسحة القوم قد خرج اليه بعض الناس في عرباتهم
لاستقبال أميرنا المعظم ، وعلى حافنه قهاوٍ قد اكتظت بالمتفرجين على مقدم
هذا المليك الأكرم . وما زال القطار حتى وصل الى رصيف المحطة التي
رفعت عليها أعلام الزينة ، واحتشد الى رصيفها صنوف المستقبلين من عليّة
القوم ، يتقدمهم مأمورو الدولة بين عسكريين وملكيين ، وقناصل الدول ،
والعلماء يتقدمهم فضيلة القاضي والمنقذ وأمين الأشراف . وكان جناب
المتصرف ووكيله وقومندان عموم القوة العسكرية قائمين بحفظ النظام . ولما
وقف القطار الخصوصي ضربت المدافع ، وعزفت الموسيقى العسكرية بالسلام
الخديوي ، وصعد سعادة المتصرف الى الصالون مسلماً على الجناب العالي بالنيابة
عن الدولة العلية ، ودعا الى بهو المحطة الذي اعد لاستقبال سموه بصفة
رسمية . نزل حنظله الله وسار في وسط هذه الجموع التي لا يحصى عددها
حتى دخل قاعة الاستقبال . وهناك ابتدأت التشريفات : فدخل الكبراء
والعظماء للسلام على جنابه العالي ، وكان يقدمهم الى سموه سعادة القائم مقام .
وبعد ذلك قدمت المتصرفية الى جنابه الشاي ثم القهوة ، وعندها قام باشكاتب

وكثيراً ما كان المسيح عليه السلام يعيش على ضفافها . وقد ورد في دائرة المعارف ان
النصارى يقولون ان السيد المسيح سوف يخرج من البحيرة فيخرج على طبريه ، ثم يسير الى
صفد فيقيم عرشه على أعلى قمة الجبل . أما اليهود فيعتقدون في طبريه أنها رابع المدن المقدسة .
ويقرب من هذه البحيرة حمامات كبريتية حارة قديمة ، رمها المرحوم ابراهيم باشا جد العائلة
الخديوية حين استيلائه على الشام ، وبنى إلى جوارها قصرآ لا تزال آثاره بها . والناس
يقصدون هذه الحمامات للاستحمام بها ، والاستشفاء بياها الكثيرة الفائدة خصوصاً في
الامراض المزمنة ، وموسمها في فصل الربيع حيث تكون حرارة مياهها مرتفعة .

المحكمة الشرعية ، والتي خطابه طويلة مرحباً فيها بمقدمه السعيد ، مهتماً تلك
الديار بشرف حلوله في ربوعها ، ثم تلا قصيدة غراء في مدح فضائل الحضرة
الفخيمة الخديوية ، فشكره الجنب العالي . وقد كان حفظه الله مدة وجوده
في هذه الحفلة يتكلم مع هذا بالتركية ومع ذلك بالعربية ، ثم مع كل قنصل
بلغته ، منتقلا من موضوع الى آخر بعبارات كلها بلاغة وحكمة حتى أدهش
الحاضرين عموماً من كمال معارفه ، وواسع مداركه ، وعظيم آدابه . وبعد نحو
نصف ساعة ركب القطار الى الأسكله ، وركب معه رجال الدولة مهئين ،
مودعين ، شاكرين لجنابه ، مثنين على آدابه ، فشكروهم حفظه الله ثم سلم عليهم
ونزل في الزورق البخاري لو ابور المحروسة ، فبلغها بإسلامة الله الساعة خمسة
بعد الظهر من يوم الاحد ٢٣ يناير سنة ١٩١٠ . ونزل في ركابه العالي من كان
في خدمته من رجال المعية السنية . أما بوساء الحجاج المصريين الذين سافروا على
نفقة الجنب العالي فقد أمر حفظه الله بتسفيرهم الى بورسعيد مع بعض رجال
الحرس الخديوى على أحد وابورات الشركة الخديوية الذى كان منتظراً بالميناء .
وفي منتصف الساعة العاشرة مساءً تحركت سفينة المحروسة باسم الله
مجرها الى ثغر الاسكندرية الذى ابتدأت تظهر معالمه في الساعة الرابعة بعد
ظهر يوم الاثنين ٢٤ يناير سنة ١٩١٠ ، وهناك ابتدأ يتأثر وجودنا بما مل
السرور والحبور ، وما زلنا حتى تجلى لنا شاطئ الثغر ، يتعاقب مع ماء البحر ،
وأخذت تأتينا منه نسيمات تترى ، حاملة روائح ذكية ، أحييت النفس ،
وأنعشت الحس ، فكان ريحها . ناكريح يوسف من يعقوب : نعم كانت تحمل
الينارح الاوطان ، والبنين والاهل والخلان ، فضمنناه لأنه أحاط بجسوم

الاحباب، ونقل الينا من عواطفهم ما حرك فينا الاشجان، وأهاج عبرة الوهان، وما زالت بنا المحروسة حتى ألتقت مرساها داخل الميناء في الساعة الخامسة مساء . وهناك اطلقت المدافع من طوابي المدينة بين هتاف الآلاف من المصريين الذين كانوا قد ركبوا الزوارق وساروا بها الى ظهر البحر للتمتع برؤية ملكهم المحبوب . وهناك حضر دولة الأمير محمد على باشا مع حضرات النظار وصحبتهم السيرالدين غورست على زورق بخارى واستأذنوا في الصعود الى الركاب الخديوى . ولما تشرفوا بالمشول بين يديه الكريمتين أخذوا يرتلون آى حمد الله على وصول ملكهم العزيز بكمال الصحة والعافية . فأبدى لهم حفظه الله شكره وامتنانه ، ثم نزل وهم فى ركابه العالى الى زورق المحروسة ويم سراي رأس التين العامرة ، وتبعته دولة الوالدة وحاشيتها ، ثم رجال المية السنية فى زوارق أخرى .

وكانت السراي الخديوية غاصة بكبار الموظفين ، وعظاء الأجانب ، وأعيان البلاد من أقصاها الى أقصاها . وهناك جرت التشريفات على غير موعد ، وتشرف الكل بمحضرة الجنب العالى ، واستلموا يد هذا الأب البار الكريم ، مهئين أنفسهم بسلامته ، وانصرفوا شاكرين ما لاقوه من كرم سموه وعظيم ايناسه . وقد استمرت التشريفات الى مبدأ الساعة التاسعة ، وبعدها تناول الجنب العالى طعام العشاء بالسراي العامره .

وكانت المدينة كلها كأنها قطعة من نور اللزينات التى أقامها الاسكندريون فى أطرافها ، والتي أقامها المجلس البلدى من سراي رأس التين الى آخر شارع رشيد ، مخترة المدينة من طرف الى آخر . وكانت ثريات الكهرباء فى طول

هذا الطريق على شكل أقواس نصر تجمع أطرافها أوتار تتعاقب أشعتها ، وتعاكس في مرآة صفاء هذا الجو ، حتى كأن يتخيل لك أن الدراري قد نرات من أفلاكها لتساعد الاسكندريين على معالم الزينة احتفالاً بمقدم أميرهم المحبوب . وعدا ذلك فكنت ترى الدكاكين والمنازل على طول الطريق وخصوصاً في ساحة المنشية ، وشارعي شريف ورشيد ، قد قامت عليها معالم الزينة بأشكال بدیعة ، تختلف في مناظرها ، وتتفق في حسن تنسيقها . وكنت ترى بين تلكم الأنوار ، الاعلام على اختلاف جنسياتها ترفرف بين هذه الاضواء ، فتكسبها رواة على رواء .

وكان الناس على جانبي الطريق كالبنیان المرصوص ، تتقدمهم رجال البوليس ، ويتخللهم عمال المجلس البلدى حاملين في أيديهم ثريات الشموع انتظاراً لتشريف الجناب العالی الذي تفضل فوعد زيارة دار البلدية بناء على التماس المجلس البلدى .

وفي نهاية الساعه التاسعة ركب حفظه الله عربة خديوية والى يساره سعادة محمد سعيد باشا (رئيس النظار) وكان ناظراً للتواخيلية ، ومر على زينة العروة الوثقى التي كانت في مبدأ شارع رأس التين . وكان أعضاؤها مجتمعين في رادق غاية في البهجة والجمال انتظاراً للركاب العالی . فتنازل جنباه الفخيم ووقف لحظة شكر فيها أعضاء الجمعیه ، ثم سار بين دعاء الاهلين وهتافهم الى ميدان المنشية ، فشارع شريف ، فشارع رشيد . وكان كلما مر هتف الناس له بأصوات السرور والحبور ، بما كان يتردد في جميع الارحاء ، ويرتفع الى عالم السماء . ولما وصل حفظه الله الى سراى المجلس البلدى استقبل بما يليق

بمقامه الكريم، من الاجلال والتعظيم . وبمجرد ما استقر بالصالون الذى اعد لجنابه الفخيم ، قام رئيس المجلس وتلا بين يديه الكريمتين خطبة رحب فيها، نيابة عن الاسكندريين بمقدم سموه من حجه المبرور ، وسعيه المشكور ، وهو على ما يرجو الكل له من الصحة والعافية . فشكره الجناب العالي ، ثم قام حفظه الله الى البوفيه فأخذ شيئاً منه وبارح المكان بين مظاهر الاجلال والاعظام ، وعاد الى سراى رأس النين العاصرة من الطريق الذى حضر منه وكان احتفال الاهالي به في ذهابه لا يقل عن احتفائهم به في اياه .

وفي صباح يوم الثلاثاء ٢٥ يناير قصد الجناب الخديوى محطة الباب الجديد في كوكبة من حرسه ، وكانت المحطة غاصة بأعيان الاسكندريين ، وكبار الموظفين ، وكثير من سراة البلاد ، فثموا يده الشريفة ، وركب حفظه الله يحف به حضرات النظار ، وسار القطار على بركة الله الى مصر . وكانت زينات المحطات على طول الطريق الحديدى مما لم يسبق له مثيل خصوصاً في دنهـرر ، وطنطا ، وبركة السبع ، ونها ، التي احتشد على أرضفتها عمد وأعيان البحيرة والغربية ، والدقهليه ، والمنوفيه ، والشرقيه ، والقليوبيه ، يتقدمهم حضرات المديرين ، وكبار المستخدمين . وشرف القطار الخديوى محطة مصر في مبدأ الساعه الثانية بعد الظهر : وكانت المحطة غاصة بأعيان القاهرة ، والعدد الجمل من أعيان الوجه القبلي ، وقناصل الدول ووكلائها ، وكبار مستخدمي الحكومة السنية وفي مقدمتهم العلماء الاعلام ، والامراء الكرام ، والذوات الفخام ، وأعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية يتقدمهم دولة البرنس حسين باشا (وكان دولته رئيساً لهما) . وبالجملة فقد كان هناك كل ذى حيثية كبرى

وكان كل من صاحب السعادة محافظ مصر وحكمدارها يقوم بالنظام العام ولما وقف القطار نزل الجناب العالي الى رصيف المحطة التي كانت كالعروس في زينتها ، وسلم على الحاضرين واحداً واحداً ، ثم سار تحف به رجال حكومته حتى ركب عربته والى جانبه سعادة رئيس النظار ، بين دوى طلقات المدافع وعزف موسيقات فرق الجيش المصرى ، وجيش الاحتلال ، التي كانت واقفة في رجة المحطة لاداء واجب التعظيم . وقصد حفظه الله سراى عابدين بين جموع الخلق الذين لا يحصى عددهم والذين وقفوا صفوفاً يتلو بعضهم بعضاً في عرض الطريق وطوله الى السراى العامره ورجال البوليس أمامهم لحفظ النظام .

وكانت كلما مرت عربته الجناب الخديوى هتف الناس هتاف السرور لمشاهدة ملكهم المحبوب ، بما كانت تترجم له أطراف مدينة القاهرة ، بحال لم يسبق لها مثيل بالمره . وكانت الدكاكين والمساكن التي على جانبي الطريق رافعة أعلامها على اختلاف جنسياتها ، حتى اذا وصلت العربته الى ميدان الأوبره كان الناس فيها على بعضهم : هذا على رجله وذاك واقف في أوميله وآخر على عربته ، والبلكنات والشبايك قد ملئت بملية المنفرجين من الاجانب والأهلين نساء ورجالا ، والكل يهتف بأصوات الفرح . ولم يصل الركاب العالي الى السراى العامرة الا في منتصف الساعة الثانية تماما .

وفي المساء لبست المدينة حلة من الانوار ، وبدت زينة لجنة الاحتفال بعيد الجلوس المأنوس في أبهى مظاهرها ، كما تجت الزينات الخصوصية التي أقامها الاهلون والاجانب من جميع انحاء القاهرة . وبالجملة فقد كانت المدينة

في زينة باهرة ، وكانت كلها من ثريات السكرباء على شكل أقواس نصر.
مثالية من السراى العامرة الى المحطة ، وكان اتصال هذه الاقواس بحيث
كنت ترى الطريق قد تفتت بحجيمة صيغت من قباب من نور .
وقد اقامت لجنة الاحتفال في ميدان عابدين سرادقا فخيا جدا كانت تلالاً
أنواره ، وتتألق أزهاره ، وتصل اشعة اضوائه الى منافذ السراى العامره ،
حاملة عواطف الرعية الصادقة الى هذا المليك المحبوب . وتنازل حفظه الله
بتشريفه صيوان اللجنة في منتصف الساعة العاشرة مساء . فاستقبله حضرات
أعضائها بكل ما يمكن من مظاهر الاجلال والاعظام ، وتلا حضرة رئيسها
عنان بك مرتضى المستشار بحكمة الاستئناف المختلطة بالاسكندرية خطاباً
بليغاً بالنيابة عن اللجنة ، حمد الله فيه على وصول هذا المليك الكريم بسلامة الله
من رحلته المباركة ، ثم رفع الى مقامه السامي عبارات الشكران والامتنان على
تنازله بتشريف الاحتفال . فشكره الجنب العالى وأتى على همه اللجنة التي تمثل
هذه الامة المخلصة بخطاب كله درر وغرر . وعندها قدمت المرطبات لجنابه
السامي فتناول منها شيئاً ، وأمر حفظه الله فادبرت على عموم الحاضرين وعند
ذلك قام حضرة الشاعر المصرى النابغة حافظ افندى ابراهيم وتلا عن ظهر قلبه
في هذا المكان الرهيب قصيدة آية في البلاغة يهني فيها مصر بوصول الجنب
العالى بسلامة الله . فشكره سموه ، ثم كرر شكره لحضرة رئيس لجنة الإحتفال
وأعضائها ، وركب حفظه الله عمرته وسار مخترقا طريق هذه الزينات الباهرة ،
وآلاف الناس على جانبيه مكررين آيات الهناء والدعاء ، حتى وصل بسلامة
الله تعالى الى سراى القبة العامرة في مبدأ الساعة الثانية عشرة مساء .

وفي يوم الخميس ٢٧ يناير كانت المقابلات الخديوية : فكنت ترى السراى العاصرة قد ضاقت رحبائها عن جموع المهئين من الأجناس المختلفة والالاف من وفود الارياف من اصوان الى الاسكندرية يردون الى عابدين أفواجاً أفواجاً لتقديم واجبات التهاني الى الأعتاب الخديوية ، والسراى الخديوية تموج بهم بحال لم يسبق لها نظير ، وكان الجناب العالى حفظه الله يقابل الكل بلطفه وايناسه . وفي مبدأ الساعة الثانية بعد الظهر تمت التشريرات وانصرف الناس وكلهم ألسنة ثناء ودعاء لحفظ هذه الذات العباسية المأنوسة المحروسة درة في جبين الدهر ، وتاجاً على مفرق هذا العصر م



(تقريب صاحب الفضيلة شيخ المشايخ الاعلام مولانا الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر)

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم حمد الشاكرين ونصلي ونسلم على صفوة خلقك اجمعين وآله الطيبين وصحابه الطاهرين . وبعد فان اسمي ما خطه براع وسمى به ابداع وتمته بنات وظهره بيان من ضروب القول وصور الكلام ما كان متصلا بحج بيت الله الحرام وزيارة حضرة المصطفى عليه الصلاة والسلام . وقد اطلمت في هذا الباب على السفر الجليل الموسوم بالرحلة الحجازية لولي الزم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديوم مصر ، الذي وضعه حضرة الكاتب الماهر والمثني البليغ سعادة محمد لبيب بك البتوني ، فوجدته من احسن ما كتب الكاتبون في هذا الموضوع النبيل والمقصد الجليل ومن خير ما دون في وصف تلك البقاع الطاهرة والمعاهد المباركة . واذا كان قد سبق هذا المؤلف كثير من فحول العلماء والمؤرخين في الكلام عليها والكتابة فيها فكتبوا وادسعوا وأطالوا فاشبعوا فان كتبهم لم تتناول جميع الاغراض التي انفسح لها هذا الكتاب فطرقها من احسن الأبواب : فقد قصر بعضهم كتابه على جغرافية البلاد وغيره على تاريخها العمراني والبعض لم يتجاوز كتابته مواضع العبادة ومناسك الحج . وأنت بمرور نظرك على عنوانات هذا الكتاب ترى ان واضعه بارك الله فيه قد بلغ الى الغاية من كل ما يزيد القارئ ان يتعرفه في جزيرة العرب مما يتعلق بأمر دينه أو أمر دنياه ببيان يسحر الأبواب واسلوب يمجز الكتاب ، فهو وان جاء متأخرا عن تقدمه في مثل هذا التصنيف فقد سبقه في ان جمع الى حسن الاختيار سبك التأليف . وجملة القول ان هذا السفر جاء برهانا واضحا وحجة ناطقة بما لمؤلفه الفاضل من سعة الاطلاع وغزارة المادة . هذا واذا صحبه التوفيق ، وانه لنعم الرفيق ، فجري قلمه بما جرى تسطيرا لرحلة الداوري الاثم والامير المعظم ولي النعم محيي الهم عزيز مصر ، فليواصل معنا الدعاء الى الله تعالى أن يديم ذاته السنية ملحوظة بعين العناية الربانية وان يحفظ ملكه ويخاد أيامه ما دارت الافلاك واستنارت الاملاك آمين

شيخ الجامع الازهر

سليم البشري

تقريباً صاحب الفضيلة وشيخ الأدب والمكتاب الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان

بسم الله الرحمن الرحيم

ليك اللهم ليك نحمدك على ما أنعمت وأعطيت ونشكرك على ما تفضلت وأوليت
ونصلي ونسلم على المبعوث لتكامل مكارم الاخلاق فكانت بهته عامة لكل الناس في
كل الآفاق سيدنا محمد وآله وصحابته والتابعين له الماملين على سنته ما طلع النيران
وتعاقب الجديدان .

وبعد فمن المعلوم للمعوم أن تفاضل العلوم في المرتبة والشرف إنما هو بشرف
موضوعاتها وتفاوت غاياتها، فكلمها كان موضوع العلم أعلا وغايتها اسما كالتوحيد كان
هو بالنسبة لغيره في المرتبة الاولى، وعلى هذا أيضاً تتفاضل الاعمال الصادرة من خيرة
الرجال فكلمها كان العمل أعم وغاياته اعم وموضوعه أرفع وثمرته أجمع وتبجته انفع كان
هو بالنسبة لغيره من الاعمال ارقى واعظم واعلا واشرف كما هو مشاهد للعيان .

اسعدني الجدد فتحت هذه الرحلة الحجازية التي كتبها العاضل محمد بك لبيب
البتوني وقرأتها كلمة كلمة وتبعت غايتها خطرة خطرة فإذا موضوعها حجج مولانا
ومولانا عباس حلمي باشا الثاني خديو مصر الخالي أدام الله أيامه واعلا أعلامه ، ومن
الواضح الجلي أن هذا المضاف وهو الحج هو في ذاته عمل ديني بدني منيف وركن
من أركان الدين الحنيف فهو في حد ذاته عمل شريف وأن هذا المضاف إليه وهو
الجناب الخديوي الاعظم هو ذلك الذات الأكرم أشرف ذات في الافطار والامصار
وليس من يدانيه أو يضاهيه في شرف المحتد والمعصر والاسول ولا من يشبهه في
حسبه ونسبه أو في مركزه وعلو مقامه، فالعمل الذي قام به الجناب العالي في هذه الرحلة
المباركة من اشرف الاعمال (خصوصاً أنه فضله على ما أوتيته وقتاً ما من ابهة الملك
وجلال السلطان) العامل وهو جناه الفخيم هو أشرف الرجال، فهو موضوع هذه الرسالة
من اشرف الموضوعات، ولذلك نحكم بان تأليفها عمل من الخرف الاعمال يبقى حجة على
ان حجج مولانا العباس خير كنه للناس بقاء الدهور والازمان .

ربما ساعد على قبول العمل وتعميم النفع به ما يكون لعالمه من المنزلة بين أهل فنه

ومعرتهم بانه كفؤ للعمل ومخلص فيه والحمد لله قد استجمع الكتاب لهذه الرسالة هذه المزايا فنزلته بين افاضل الكتاب .نزلة المجيد وكفائه كفاة القادر المجتهد وأخلاصه في عمله هذا لا يحتاج الى برهان .

لا يمتري واحد ولا يختلف اثنان في أن الغاية من هذا السفر الواجب الذي انشأه مولانا العباس هي من أشرف الغايات واكمل المقاصد لانه أدى به واجباً من واجبات الدين المفروضة على كل مستطيع من المؤمنين وتوجب فيه بالزيارة لسيد المرسلين، وفوق هذا التعمد قد ضمن سفره المبارك فوائد اجتماعية عامة النفع فجمعت رحلته الميمونة بين المفروض والمسنون ومصالح العباد وأهمها ان تقتدى بعمله هذا عامة أمراء المسلمين وكبار السرات والمثربن في قصد هذه المنازل المقدسة وأسداء المبرات وارسال الحسنات والخيرات فتمر بها هاتيك البلدان .

ولا نذكر للاستدلال على ان لجناب العالى حفظه الله مقاصد عاليات غايات أكثر مما جاء في ارادته السنية التي أصدرها قبيل سفره الى رئيس نظاره اذ ذلك فقد جاء فيها ما نصه (وأنا ترجو ان يكون توجهنا الى تلك الاقطار المباركة ووقوفنا بالذات على أحوال الحجاج المصريين وحاجاتهم باعثاً في المستقبل لراحتهم واطمئنان بالهم) . وقد حثق الله رجاء جنابه الفخيم واتخذت الاحتياطات الكاملة لراحة الحجاج في هذا العام أكثر مما كانت في غيره من الأعوام وما تغيير خطة السفر وتبديل الطريق الا احدى هذه النتائج المباركة التي تعود على الحجاج بالخير والبركات ان شاء الله وليست هذه وحدها بل قد علمنا أنه عقب عود سموه من السفر السعيد أرسل وفداً من خيرة الرجال لينظروا في حال الطريق من جهة الوجه فذهبوا ورسوموا واشتغلوا وحكموا وعادوا الى مصر فعرضوا عملهم على أنظاره السامية وسيكون من وراء ذلك كله الخير الجزيل فيكون الحجاج في اسفارهم على أحسن ما يكون من الامن والاطمئنان .

ربما عدنا تأليف هذه الرسالة من خير نتائج هذه الرحلة المباركة فانها جاءت في بابها محكمة الوضع متقنة الصنع مفيدة لمن يقصدون الحج بمعرفة مسالكة ومناسكه على المذاهب الاربعة، ولمن لم يسافر بمعرفة هذه المواطن وما فيها من عجائب القدرة وما

كان لها من شريف في الجاهلية والاسلام، وهذا من أشرف ما يقصده القصاد ويطلبه الرواد ويعمله ذروا الفضل والعرفان .

اشتمت هذه الرسالة أولا وبالذات على وصف تنقلات الركب الحديوي من مصر الى السويس فجدت فمكة المكرمة فالوجه فالمدينة المنورة ومنها الى حيفا الى الاسكندرية في العود وما بين هذه المواطن الكبرى من المنازل الصغرى فقد وصف الكاتب في كل من هذه الامكنة وصفاً تفصيلاً ما كان للجناب العالى من الحفاوة بمقدمه المبارك رسمياً وغير رسمى حتى لكأنى بالتقارى لهذه الاوصاف بمد نفسه حاضراً مشاهداً بنفسه هذه الاحتفالات في تلك الاستقبالات فيعظم من قدرها كما عظمها الحاضرون ويتمنى ان لو كان له فيها خدمة شخصية حتى يشارك أهلها في أداء الواجب لهذه الذات الجليلة المستحقة لكل اعظام واحترام ولكنه يعود فيكتفى بما شاهد في الرسالة ويلزم التعظيم القابى الوجدانى والدعاء بظهر النيب بأن يحرس الله هذا الجناب للبر والمعونة والفضل والاحسان .

وصف هذا الكاتب البليغ هذه المشاهد وصفاً حقيقياً ولم تقته دقيقة في تبيان الزينات والاستقبالات والاستعداد للملاقة على اكل الهيئات وما كان للخاصة من الحفاوة اللاتمة بتمامه الكريم وما كان للعامة من الاجتماعات حول ربه المهيب وضجيجهم بصالح الدعوات وقد تنقل الكاتب في ذلك من أسلوب الى أسلوب ومن تعبير الى تعبير ولا غرو فالجمال فسيح والقائل فصيح وما هي الا كتابة ما يلميه الواقع وتصوره المشاهدة فاعلى الكاتب الا نقل ما شاهدت العينان الى العيان وتفاوت الكتاب في هذا الباب إنما هو في القدرة على التصوير وما اقدر كاتبنا على تصوير هذه المناظر حتى جلاها للقارىء بحجسة المعانى تكاد تلمسها اليدين .

وكما أبدع الكاتب في وصف هذه الهيئات الدينية اغرب في وصف ما كان للجناب العالى حين تأديته للمناسك المفروضة من عظيم التواضع وكبير الخشوع حتى ان جنابه لم يبال بالمظاهر الدنيوية وأدى مناسكه كلها من احرام وطواف واستلام وسمي ووقوف بعرفة ورمي للجمرات كما يؤديها من عاش عمره في شطف العيش وخبثونة البدن ولم يحفل بتعب الجسم فأدى السعي ماشياً على القدمين مع صحة ادائه راكباً

حتى لا تفوته مشوبة المشقة ولا أجر التعب وكذلك ادى المسنونات على وجهها الاكل كما يؤديها عامة الناس ، ثم بعد هذا نفع الفقراء والمساكين من أهل هذين الحرمين الشريفين بما نفحهم به من الصدقات واعان الحجاج المقلين بتسفيرهم على نفقته الخصوصية فجزاه الله عن دينه وفقراء عبيده افضل ما يجزى به انسان .

ولقد اشتملت هذه الرسالة تبمآ على فوائد تاريخية لاشهر البلدان ولاشهر الرجال ولاشهر الاعمال ، ففي كل بلد من البلاد الكبيرة كجدة ومكة والمدينة تكلم عن أوصافها أوصافاً جغرافية من جهة تجارتها وعمرانها وعلومها وسكانها ومقاربرها ومزاراتها وآثارها وبين على الخصوص تاريخ مكة القديم والحديث ومن له اليد الطولى في عمارتها ثم تاريخ الكعبة ومن بناها والازمان التى بنيت فيها وكسوتها ومن كساها داخلاً وخارجاً وعين زيدة ومانعها وما للأسرة الحديوية من منافع مادية وأدوية فى تلك البلاد وحروب الوهابيين واتقاذ المدينة ومكة منهم . وأحسن شئ يستلفت النظر ما تكلم به عن قبر امنا حواء فى جدة فانه لا يبقى معه للشك مجال فى أن هذا القبر هو على اسمها فقط كما يوجد كثير من الاضرحة فى بلادنا باسم البعض من الصالحين وليسوا فيها على التحقيق . وألطف من هذا انه نبه على ما يتقدم فى مكة من جهة الامور الصحية (خصوصاً فى عين زيدة وثرزرم وجهه المسعى) وغير الصحية بأدق عبارة وطلب الاصلاح باشارات مؤدبة للغاية وهذا هو اللائق برسالة الفت لغرض شريف هو بيان رحلة اكبر أمير اسلامي فانه لا يابق بها الا الكمال فى اتأدب والتلطف فى البيان .

ثم أنه وصف الطريقين القديم والحديث بين الحرمين وبين مصر فأجاد وأفاد وذكر تاريخ الاسفار ومقدار ما كانوا يقاسونه من وعورة الطريق وطول الزمان ، ثم وصف الحرمين الشريفين وصفاً مدققاً من جهة الحدود والسعة والتاريخ وما تجدد فى كل منهما من العمارات كل ذلك بعبارة فى نفسها واضحة ومؤيدة بالقول والنصوص من الكتب المتبعة مما لم يسبق الىه هذا الكاتب المجيد ، وما على من وصلت اليه هذه الرحلة الا تتبعها واستيعابها ليتضح له صدق ما قلناه ويثني على كاتبها بكل لسان .

لقد حمدناه عند ما بين سنة الطواف وأصلها وعند ما أوضح احترام بعض الاحجار

للناس من قديم الزمان حين الكلام على استلام الحجر الاسود وعند ما تكلم عن احترام الحمام في كل صوب وناحية قديماً وحديثاً حين الكلام على حمام الحى وهو الحمام الذى يأوي الى بيت الله الحرام فيكون آمناً وعند ما تكلم عن لباس الاحرام واصل استعماله قديماً بين امم كثيرة من البدو والحضر الى غير ذلك من الفوائد التاريخية التى تناسب كتاباً مثل هذا الكتاب، ولقد اعجبني كثيراً بيان الحدود والمسافات وتعداد المحاط من مدينة الى اخرى كما بين مكة والمدينة أو بين المدينة وحيفا مما يحتاج اليه في مثل هذه الاسفار الطوال، كل هذا أقوله بمبارة جملة تنوّه عما تضمنته هذه الرسالة من نضرة العلم ونور العرفان .

ومن الباحث التى تعجب كل قارى ما استظهره المؤلف في أصل وضع الروضة الشريفة والحجرة النبوية المنيفة من أنها هي بذاتها ما كان داراً له في حياته عليه الصلاة والسلام، وان ما استدل به على ذلك من الأحاديث الواردة فيه منتج لما استظهره فيما أعلم، وكذلك كلامه على الكورثينة وقوم صالح وما حققه المحققون في نبأهم وتاريخهم وكيفية مجيئهم الى وادي مدائن صالح فكله مقبول ومعقول تؤيده ما أورده من النصوص والتقول فلا فطيل فيه القول ولا تؤيده بغير ما أيده به من البرهان .

ولقد اطاعت على لحرائط الكروكية والرسوم الفوتوغرافية التي وضعها للحرمين الشريفين (خصوصاً ما كان عليه الحرم المدينى في غابره وحاضره) ليحلي به جيد هذه الرسالة من مناظر المواقع ومناظر الحفلات الرسمية في كثير من الاستقبالات وكلها رسوم جلية واضحة تمثل تلك المشاهد للعيان .

ظهر من هذا المختصر الذى ذكرناه ان هذه الرسالة قد شرف موضوعها (حج الجناب العالى الخديوى) الشرف الذى لا يضاويه شرف وشرفت غايتها كما سلف وارتفعت منزلة كاتبها عند كل من ذاق وعرف، فلم يبق الا أن نصفها حقاً بأنها أشرف رسالة ألفت في هذا العهد لهذا القصد، فليدعم الله سبب تأليفها (الجناب الخديوى) فينا نورا ساطعاً وليبق وولفها في ظله الظليل عاملاً نافماً ولكن هي لقراءتها دواء ناجماً وليتنتفع بها طلاب الفضل والفضيلة في كل زمان وفي كل مكان (عبد الكريم سلمان)

حدول الخطأ والصواب

خطأ	صواب	منحه سطر	خطأ	صواب	منحه سطر
توارت	تواردت	٨	٤	٨	٤
٢٦ ديسمبر	١٢ ديسمبر	٩	١٠	٩	١٠
رابع عشر ذى الحجة	رابع ذى الحجة	٣٠	١٧	٣٠	١٧
فلاديفوس	فيلا دلفوس	٤٣	١٠	٤٣	١٠
معها	معها	٥١	٢٤	٥١	٢٤
العمر الواحد والعشرين	القرن العشرين	٥٦	٤	٥٦	٤
ذره	زربه	٥٦	١٤	٥٦	١٤
لحيصه	لحيه	٥٧	١٧	٥٧	١٧
غرب بلاد	شرق بلاد	٥٧	١٨	٥٧	١٨
الغريبه	العربية	٥٨	٨	٥٨	٨
مع	تسع	٥٩	٢٠	٥٩	٢٠
دوش	دوش	٦٢	٢٣	٦٢	٢٣
إلى الحجة	من الحجة	٦٦	١٧	٦٦	١٧
سنة ١٣٢٤	سنة ١٢٣٤	٨١	٧	٨١	٧
اذر	أزر	٨٨	١٤	٨٨	١٤
أوضيه	أرضيه	٩١	٦	٩١	٦
قصه	قصة	٩٢	١٢	٩٢	١٢
المزباب	المزراب	٩٥	٨	٩٥	٨
١٠٢٤	١٠٢١	٩٥	١١	٩٥	١١
١٢٧٠	١٢٧٣	٩٥	١٣	٩٥	١٣
ميزانا	ميزابا	٩٥	١٣	٩٥	١٣
٩٠٦	١٩٠٦	١٠٤	٦	١٠٤	٦
وغيرها	غيرها	١٠٥	٥	١٠٥	٥

« تنبيه » ذكر سهواً في سطر ١٤ من صحيفة ٩٥ هذه البارة « تم تغير في مدة السلطان عبد العزيز بأخر ». وفي آخر صحيفة ١٥٢ تحريف مطبعي في وضع عبارة « ويجب أن يستدرا » وحقها أن توضع في السطر الذي قبلها قبل عبارة « في طريق الصحرا » . وهناك بعض أغلط محويه لا تخفى على فطنة القارى .

صفحة	موضوع	صفحة	موضوع
١٤٥	أصل لباس الاحرام	٥	مقدمة المؤلف
١٤٩	خروج الحجيج الى عرفه واقاضته منها	٧	سفر الجنب العالي من مصر الى جده
١٥١	الوقوف بعرفة	١٢	مدينة جده
١٥٥	الرجم	١٨	جبانة جده وقبر أمنا حواء
١٥٨	الآثار في منى	٢١	وصول الجنب العالي إلى جده
١٥٩	خروج الجنب العالي إلى عرفة	٢٧	الجنب العالي في مكة
١٦٢	الجنب العالي بمي وتلاوة قرمان الشريف	٤١	الطريق من مصر إلى الحرمين الشريفين
١٦٥	أشراف مكة أقدم أسرة في العالم	٤٩	مكة المكرمة
١٧٠	مواكب الشريف	٧١	تاريخ مكة
١٧١	سفر الحجيج من مكة	٨٢	الحرم المكي
١٧٢	الجمال وفسلوجيته	٨٨	الكعبة المكرمة
١٧٣	الطريق من مكة إلى المدينة المنورة	٩٦	الكعبة قبل الاسلام وبعده
١٧٧	نظام القوافل في طريق الصحراء	١٠٠	الطواف
١٨٥	سفر الجنب العالي من مكة الى الوجه	١٠٥	عدم امكان تحويل الناس عن الكعبة
١٨٧	الوجه والسفر منه الى المدينة المنورة	١٠٩	هدايا الناس إلى البيت الحرام
٢٠٤	الجنب العالي الحديوي باندنية المنورة	١١٠	كسوة الكعبة
٢٠٨	الحرم المدني	١١٤	المحمل
٢١٨	بحث فيما كان عليه بيته صلعم بالمدينة	١١٦	كسوة الكعبة القديمة
٢٢١	المدينة المنورة في غابرها وحاضرها	١٢١	حمام الحمى
٢٢٨	تاريخ الانصار	١٢٧	احترام الاحجار وتقديسها في الامم
٢٣٠	سفر الحجيج من المدينة إلى مصر	١٢٥	الحج عند الامم المختلفة
٢٣١	الكلام على الكورتينات وانشائها	١٣٠	صحراء بيت المقدس
٢٣٧	جدول محطات سكة الحديد الحجازية	١٣٨	كيف تمنح أيها المسلم
٢٨٣	الشدة التي كان يلاقها الحجاج في طريقهم ولقب الحاج عند عامة المسلمين	١٤٢	الجنائيات
٢٤٠	سفر الجنب العالي من المدينة إلى مصر	١٤٣	مناسك الحج على المذاهب الاربعه
٢٤١	مدائن صالح والكلام على قوم ثمود	١٤٤	الاحرام
٢٤٦	الآثار القديمة بالشام ومدينة بطرمة	١٣٢	منع الاجانب من الدخول إلى الحرمين
		١٣٣	مشاعر الحج قبل الاسلام